ISSN:2707-8183

المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية

مجلة محكمة

تصدر عن الاتحاد الدولي للمؤرخين للتنمية والثقافة والعلوم الاجتماعية

العدد العاشر تشرين الاول اكتوبر 2020

يتضمن العدد ملفان

الملف الاول: ابحاث ودراسات عن الاوبئة في العصور الاسلامية

الملف الثاني: دراسات عن الامراض والاوبئة خلال القرن التاسع عشر

من اعمال المؤتمر الدولي للاتحاد الدولي للمؤرخين وبالتعاون مع اللجنة الوطنية العر اقية للتربية والثقافة والعلوم جامعة سيدي محمد بن عبدالله وجامعة سليمان الدولية الذي عقد تحت عنوان

الاوبئة والامراض في التاريخ .. تجارب ودروس

10-11 حزيران 2020

محتويات العدد العاشر

	الباحث	الموضوع	الصفحة
1	المحتويات	المحتويات	
2	اللجنة العلمية وهيئة التحرير	اللجنة العلمية وهيئة التحرير	1-2
3	السياسات وقواعد النشر	السياسات وقواعد النشر	3-8
4	أ.م. د. حسين إبراهيم محمد الجبراني	طاعون عامي (750-850هـ/1349-1446م) في الاندلس والمغرب و أثره على الحركة العلمية ((في ضوء المصادر التاريخية الاندلسية والمغربية))	9-26
5	الدكتورعبد القادر سليماني	الأوبئة في المشرق الإسلامي (من القرن 4هـ/10م الى القرن 6هـ/12م)دراسة تاريخية وإحصائية من خلال المصادر	27-54
6	د. زهرة الثابت	الطاعون وباء من خلال بعض المصادر الإسلامية	55-70
7	د. أحمد محمد محمد عوض الله مشالي	الطواعين و أثرها في سقوط دولة الموحدين وقيام دولة بني مرين.	71-80
8	د.عوض عبد الجليل أبوبكر محمد د.أحمد محمد أحمد مركز	تاريخ الطواعين في عصر دولة الخلافة الإسلامية الراشدة (طاعون عمواس نموذجاً 18هـ/639م)	81-110
9	الدكتورمحمد حقي/كلية الأداب	سلوكات ومو اقف أهل المغرب والأندلس من الأمراض والأوبئة في العصر الوسيط	111-130
10	الدّكتورحاج بنيرد	الطّاعون الأسود في القرن الثّامن والعلماء المسلمون:	131-146
11	أ.م.د. سحر السيد ابراهيم السيد جامعة القصيم	تعاطي الشعوب مع الأوبئة والطواعين العصور الوسطى (المسببات وطرق العلاج)	147-198
12	فتيحة غديري	عنوان المداخلة : تمثلات الأوبئة والأمراض في المخيال الإغريقي القديم من خلال الكتابات الأدبية القديمة .	199-222
13	أ.م.د الاء حماد أ.د حسين جبار شكر	آراء الاطباء والعلماء بوباء الطاعون من خلال كتاب ما يفعله الاطباء والداعون بدفع شر الطاعون للعلامة مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي(ت 1033هـ/ 1623م)	223-232
14	د. ربيع عوادي	رصد الرحالة المغاربة لأثر الأوبئة بالمشرق العربي خلال القرن التاسع عشر	233-256
15	د.عبد القادر العبوي	وباء الكوليرا زمن الحرب الجيش الفرنسي بين شراسة المقاومة اليزناسنية وخطر انتشار الوباء (1859م)	257-280

	أ.م.د. صبا حسين مولى	الاوبئة والامراض التي اجتاحت العالم في القرن التاسع عشر	281-290
	د. منير كلخة.جامعة محمد الأول، وجدة، المملكة المغربية	دور الأوبئة والأمراض في التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالمغرب خلال القرن 19م. مقاربة سوسيوتاريخية.	291-300
	د. سمية سالم الشعالي	أنتشار الأمراض و الأوبئة بولاية طرابلس الغرب 1835.1934م أبان العهد العثماني الثاني و العهد الإيطالي .	301-312
	د. سيدي محمد رامي	تأثير الأمراض والأوبئة على المشروع الاستعماري في الجزائر خلال القرن 19م	313-332
	سعيد إدحمان	" مساهمة الأوبئة وأزمة الأقوات في التفاوتات الطبقية بالمغرب الحديث"	333-346
	عبدالعزيز بودرة	الطاعون والطب الكولونيالي بالمغرب خلال القرنين 18م و19م"سياسات المخزن وتدابير المجلس الصحي"	347-360
	محمد المنتفع	ذاكرة الأوبئة بالمغرب وارتباطاتها المجالية خلال القرن 17م	361-376

هيئة التحرير واللجنة العلمية الاستشارية

رئيس التحرير

الاستاذ الدكتور ابراهيم سعيد البيضاني

نائب رئيس التحرير

الدكتور عثمان برهومي تاريخ تونس

مديرة التحرير

الدكتورة وفاء سمير نعيم اجتماع مصر

الهيئة العلمية الاستشارية

- الأستاذ الدكتور ناهدة حسين علي الاسدي تاريخ العراق
- الأستاذ الدكتورة جنان عبدالجليل همونديي تاريخ العراق
- الأستاذ الدكتور ميلاد مفتاح الحراثي علوم سياسية ليبيا
- الأستاذ الدكتور حاجي دوران اجتماع تركيا
- الأستاذ الدكتور حسين جبار شكر تاريخ العراق
- الأستاذ الدكتور محمد سالم الطراونة تاريخ جامعة السلطان قابوس
- الأستاذ الدكتور علي علام تاريخ المغرب
- الدكتور لحسن اوري تاريخ المغرب
- الدكتور حاتم الصديق محمد احمد تاريخ السودان

المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية

السياسات والقواعد والاجراءات

ترحب المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية والاجتماعية البحوث العلمية المكتوبة وفقا للمعايير العلمية في اي من الحقول الدراسات التاريخية او العلوم المساعدة ذات العلاقة ويشمل ذلك كل العلوم نظرا لطبيعة التاريخ كعلم يتناول النشاطات الانسانية كافة مع مراعاة عدم تعارض الاعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، والا تتخذ ايه صفة سياسية والا تتعارض مع الاعراف والاخلاق الحميدة، وان تتسم بالجدة والأصالة والموضوعية وتكتب بلغه سليمه واسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية والاجتماعية الى استيعاب رو افد كل الافكار والثقافات ذات البعد التاريخي ويسعدها ان تستقبل مساهمات الافاضل ضمن اقسام الدورية البحوث والدراسات عروض الكتب عروض الاطاريح الجامعية وتقارير اللقاءات العلمية.

هيئه التحرير

تعطي هيئة التحرير الأولوية في النشر والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية الواردة للمجلة، ووفقا لاعتبارات علمية و فنية تراها هيئه التحرير.

وتقوم هيئه التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالمجلة للتأكد من تو افر مقومات البحث العلمي وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.

يحق لهيئة التحرير اجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار تنسيق النص في عمودين مع مراعاة تو افق حجم ونوع الخط مع نسخه المقال المعياري.

هيئه التحكيم

يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصيه هيئه التحرير والمحكمين، اذ تجري عملية التحكيم السري للابحاث المقدمة وفقا لاستمارة خاصة بذلك.

يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث الى المدى ارتباط البحث بحقل المعرفة والقيمة العلمية لنتائجه ومدى اصاله افكار البحث وموضوعيه ودقه الادبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، فضلا عن سلامه المنهج العلمي المستخدم في الدراسة ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث وسلامه تنظيم اسلوب العرض من حيث صياغة الافكار ولغة البحث وجوده الجداول والاشكال والصور ووضوحها.

البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون اجراء تعديلات جذريه عليها تعادل الى اصحابها لأجرائها في موعد اقصاه اسبوعين من تاريخ ارسال التعديلات المقترحة الى المؤلف اما اذا كنت التعديلات طفيفة فتقوم هيئه التحرير بإجرائها.

تبذل هيئه التحرير الجهد اللازم لإتمام عمليه التحكيم من متابعه اجراءات التعديل والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة حتى

التوصل الى قرار بشأن كل بحث مقدم من قبل النشر بحيث يتم اختصار الوقت الازم لذلك الى أدني ممكن.

في حاله عدم مناسبه البحث للنشر تقوم الدورية بأخطار الباحث بذلك، اما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها واستوفت قواعد وشروط النشر بالمجلة فيمنح كل باحث افاده بقبول بحثه للنشر.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الاعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها وتقديمها للنشر في مجله الكترونيه او مطبوعة اخرى.

يجب ان يتسم البحث العلمي بالجودة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه متو افقا مع عنو انه.

التزام الكتاب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات و اقتباس الافكار وعزوها لأصحابها وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الاصول العلمية في اعداد وكتابه البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع مع الالتزام بعلاقات الترقيم المتنوعة.

اعطاء مساحة واسعة للتحليل والاستنباط والقراءات الفكرية والتوقعات المستقبلية بالنسبة للموضوعات التي تأخذ بعدا تاريخيا سياسيا.

ارشادات المؤلفين (الاشتراطات الشكلية والمنهجية)

ينبغي الا يزيد حجم البحث على ثلاثين 30 صفحه ولا يقل عن 12 صفحة حجم A4 ،مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميا بشكل البحوث بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل ملخص مقدمه موضوع البحث خاتمه ملاحق الاشكال الجداول الهوامش المراجع .

عنوان البحث

يجب ان لا يتجاوز عنوان البحث عشرين 20 كلمه وان يتناسب مع مضمون البحث ويدل عليه او يتضمن الاستنساخ الرئيسي.

نبذه عن المؤلف والمؤلفين

يقدم مع البحث نبذه عن كل مؤلف في حدود 50 كلمه تبين اخر درجة علمية حصل عليها واسم الجامعة والكلية والقسم التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة والوظيفة الحالية والمؤسسة او الجهة او الجامعة التي يعمل لديها والمجالات الرئيسية لاهتماماته البحثية مع توضيح عنوان المراسلة العنوان البريدي وارقام التليفون الموبايل الجوال والفاكس.

صور شخصية

ترسل صوره واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع .

ملخص البحث

يجب تقديم ملخص باللغة الانكليزية للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود 100 الى 150 كلمة، اما البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود 150 الى 200 كلمة.

الكلمات المفتاحية

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشره كلمات يختاره الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث وفي حاله عدم ذكرها تقوم هيئه التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وادراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث اثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكه الانترنيت.

مجال البحث

الإشارة الى مجال تخصص البحث المرسل العام والدقيق.

المقدمة

تضمن المقدمة بوضوح دواعي اجراء البحث والهدف وتساؤلات وفرضيات البحث مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة.

موضوع البحث

يراعي ان تتم كتابة البحث بلغة سليمه واضحه مركزة، وبأسلوب علمي حيادي وينبغي ان تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحه وملائمه لتحقيق الهدف وتتوفر فيها الدقة العلمية مع مراعاه المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدا عن الحشو تكرار السرد.

الجداول والاشكال

- ينبغي ترقيم كل جدول شكل مع ذكر عنوان يدل على فحواه والإشارة اليه في متن البحث على ان يدرج في الملاحق ويمكن وضع الجداول في متن البحث اذا دعت الضرورة الى ذلك.. وبالنظر الى ان المجلة في الجانب الفني تنظم على عمودين لذا نرجو من الباحثين تنظيم الجداول والرسوم بما يتناسب ذلك او وضعها كرفقات في نهاية البحث.

خاتمة البحث

- تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث على ان تكون موجزه بشكل واضح ولا تأتي مكرره لما سبق ان تناوله الباحث في اجزاء سابقه من موضوع البحث .

الهوامش

- تنظم الهوامش بطريقة الكترونية ويكون الهامش بتسلسل اسفل كل صفحة بالنسبة لدليل شيكاغو. ووفقا للالية المعتمدة في اسلوب APA.
- تعتمد المجلة في تنظيم الهوامش اسلوبين الاول دليل شيكاغو والثاني APA)).حجم ونوع الحروف،
- مراعاة التنظيم الالكتروني والفني للبحث وفق ما يلي:

نوع الحرف المطلوب sakkal Majalla وبحجم 20 بخط عريض للعنوان وحجم 18 عادي للمتن وحجم 14 عادي للهوامش، وتكون هوامش الصفحة من جميع الجهات 2 سم.

عروض الكتب

- تنشر المجلة المراجعات التقييمية للكتب العربية والأجنبية حديثه النشر.
- يجب ان يعالج الكتاب احدى القضايا او المجالات التاريخية المتعددة ويشتمل على اضافه علميه جديده.
- يعرض الكتاب ملخصا و افيا لمحتويات الكتاب مع بيان اهم اوجه التميز واوجه القصور و ابراز بيانات الكاتب كامله في اول عرض اسم المؤلف المحقق المترجم الطبعة الناشر مكان النشر سنه النشر السلسلة عدد الصفحات .
- الا تزيد عدد الصفحات العرض عن ستة صفحات.

عروض الاطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الاطاريح الجامعية رسائل الدكتوراه والماجستير التي تم اجازتها بالفعل ويراعي في الموضوعات المعروضة ان تكون حديثه وتمثل اضافة علمية جديدة في احدى حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة. وخاصة التي تعالج موضوعات فكرية تاريخية تسهم في وضع اطار نظري لمدرسة تاريخية جديدة.
- ابراز البينات كما وردت في اول العرض اسم الباحث اسم المشرف الكلية الجامعة الدولة سنه الإجازة.
- ان يشمل العرض على مقدمة لبيان اهمية موضوع البحث مع ملخص لمشكلة موضوع البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وادواته وخاتمة لاهم ما توصل اليه الباحث من نتائج.
- ولا تزيد عدد صفحات عرض الاطروحة او الرسالة عن 8 صفحات.

تقارير اللقاءات التعليمية

- ترحب المجلة بنشر التقارير العلمية عن الندوات والمؤتمرات والحلقات النقاشية سينمار الحديثة الانعقاد والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية والاجتماعية والانسانية.
- يشترط ان يغطي التقرير فعاليات اللقاء نوه مؤتمر ورشه عمل سينمار مركزا على الابحاث العلمية واوراق العمل المقدمة ونتائجها واهم التوصيات التي يتوصل اليها اللقاء.
- لا تزيد عد صفحات التقرير عن 6 صفحات.

قواعد عامة

ترسل كافه الاعمال المطلوبة للنشر بصيغه وورد, ولا يلتفت الى اي صيغ اخرى .

المساهمون للمرة الاولى من اعضاء هيئه التدريس بالجامعات يرسلون اعمالهم مصحوبة بسيرهم العلمية وفقا أحدث نموذج مع صورة شخصية واضحة.

ترتيب الابحاث عند نشرها في المجلة وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث او قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئوليه كامله عما يقدمه للنشر بالمجلة وعن توفر الأمانة العلمية به سواء لموضوعه او لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الاشارة الى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والافكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن راي أحد غيره وليس للمجلة او هيئة التحرير ايه مسئوليه في ذلك.
- ترسل المجلة لكل صاحب بحث منشور نسخة الكترونية متكاملة للعدد الصادر.
- يحق للكاتب اعاده نشر البحث بصوره ورقيه او الكترونيه بعد نشره في المجلة دون الرجوع لهيئة التحرير ويحق للمجلة اعاده نشر المقالات والبحوث بصوره ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للمجلة اعاده نشر البحث المقبول منفصلا او ضمن مجموعه من المساهمات العلمية الاخرى بلغتها الأصلية او مترجمة الى ايه لغة اخرى وذلك بصوره الكترونيه او ورقية لغايات غير ربحيه.
- لا تدفع المجلة ايه مكافئات ماليه عما تقبله للنشر فيها ويعد ما ينشر فيها اسهاما معنويا من الكتاب في اثراء المحتوى الرقمي العربي.

الاصدارات والتوزيع

- تصدر المجلة الدولية للدراسات التاريخية بشكل دوري فصلي، ومن الممكن ان تصدر شهريا وفقا للابحاث المقدمة والملفات العلمية.
- المجلة متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الالكتروني على شبكه الانترنيت.
- ترسل الاعداد الجديدة الى كتاب المجلة على بريدهم الالكتروني الخاص.
- يتم الاعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة والمجموعات البريدية والشبكات الاجتماعية.

رسوم النشر: 100 دولار

المراسلات

ترسل الاعمال المطلوبة للنشر الى رئيس التحرير

historical.magazine2015@gmail.com

طاعون عامي (750-850هـ/1349-1446م) في الاندلس والمغرب و أثره على الحركة العلمية ((في ضوء المصادر التاريخية الاندلسية والمغربية))

أ.م. د. حسين إبراهيم محمد الجبراني

جامعة دهوك / كلية التربية: عقرة /قسم التاريخ.

العراق

ملخص البحث:

ان ظاهرة الأوبئة والمجاعات والقحط في القرون الوسطى، وتكرار أحدثها في باطن الكتب التاريخية وكتب الرحلات والجغرافية والكتب الفقهية وكتب التراجم والسير والمناقب والكتب الطبية، لاسيما في الاندلس والمغرب، استدعت الاهتمام بهذه الظاهرة ودراستها من كل المناحي بعد ان اختلف فيها المؤلفون مما دونوا احداثها، تبعا لظهورها واختفائها وشدة ما كانت تتركه من اثار مؤلمة في النفوس والتي كانت أول علامتها كثرة الموت وخلو المدن من سكانها ،الى جانب الاثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، والعلمية، كانت السبب في دراسة وباء الطاعون من جانب المؤلفات الاندلسية والمغربية التي كتبت عن هذا الوباء أكثر من غيرها بشكل خاص أو عام في مصنفاتهم المتنوعة ، بإظهارها ومن ثم التعريف بهذا المرض لغة واصطلاحا ، وبيان الأسباب المؤدية لانتشار تلك الاوبئة، والتعريف بأهم وبائيين ضربا الاندلس والمغرب ومدة الوباء ،ثم ذكر لأهم الأثار المترتبة للوباء على الحياة العلمية في الاندلس والمغرب.

Abstract:

The phenomenon of epidemic,famines and droughts in the middle ages the repetitions of these events in historical books,geographical and juristical adventuves,transtionl books, scientific, biographic, and medical programs especially in morocco and andulisiya, asked talking care of this phenomenon and study it from all of its sides after the differs of authers about what they have been registered .According to the appearance and disappearance of this phenomenon and the had impacts that was left by it upon peoples mind causal them death

and even migration from their cities. This was beside the hard impacts upon the political economical ,religious and social relationships(status),all these impacts caused the studying of plangue disease by andulisaya authors and writers who were mast of focusing upon it, in all different classifications, by defining these diseases epidimecs and the cause of their spreading. So as,defining the most influential diseases that faced morocco and andulisaya ,with showing the impacts they left upon the scientific and educational life according to Al Qalsadani adventures books.

.

المقدمة:

تعاقبت الأزمات والابتلاءات والمحن التي أصابت البشرية عبر تاريخها الطويل، ونزلت بالناس صنوف شتى من الابتلاء؛ كالطواعين والمجاعات والفيضانات والزلازل والجفاف وغير ذلك. وبالطبع، فقد نال المسلمين من ذلك البلاء والجوائح الكثير، وسجل تاريخهم أحداثها ووقائعها وآثارها. ولعل أكثرها فتكاً كان مرض "الطاعون" الذي انتشر أكثر من مرة في مصر والعراق والشام والمغرب والأندلس وقتل ألوفاً من سكانها.

شهد الاندلس والمغرب في العصور الوسطى، شأنها شأن بقية البلدان في اوربا والمشرق الاسلامي موجات من الأوبئة ، كانت نتيجة ظروف قاسية كالحروب، أو الكوارث الطبيعية من قحط وفيضانات، مما أدى الى نقص في الغذاء والمياه بالنسبة الى السكان، وكان لتلك الكوارث أثر في ظهور العديد من الأوبئة، والأمراض التي تركت أثارا مدمرة على تلك البلدان بما فيها الانسان، اذ حصدت ارواح الألوف من الناس تاركة اثارا مباشرة وغير مباشرة على كل نواحي الحياة.

وقد قدم المؤرخون الذين عاصروا تلك الأحداث صوراً متنوعة عن تلك الأوبئة وآثارها وعواقبها في سائر أرجاء الأرض، مثل: ابن البيطار المالقي وابن خاتمة المري ولسان الدين ابن الخطيب وغيرهم... ونظراً لما تركت تلك الأوبئة من آثار في التاريخ الإسلامي نظراً لانعكاسها على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية للمجتمع الاسلامي

بعامة والمجتمعين الأندلسي والمغربي بعامة ولهذا كان لابد، بد من تناولها والاهتمام بدراستها.

تتضمن الدراسة وباء عامي (750-850هـ/1349-1446م)،الذي أصاب كلأ من الأندلس والمغرب في القرن السابع والثامن الهجريين/الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ،والذي امتد تاثيره الى بقية الأصقاع، وترك اثارا سلبية على الحياة العامة في الاندلس والمغرب على حد سواء، على اعتبار هذا الوباء من أشد الأوبئة خطرا, والتي كانت تعصف وتحصد أرواح البشر، وأختلف الناس في تقدير ذلك الوباء.

تضمنت الدراسة على مقدمة وعدة محاور وخاتمة، اما المحور الاول فقد تطرق الى أهم المصنفات الأندلسية والمغربية في الوباء والطاعون، بينما تناول المحور الثاني مفهوم الوباء لغة واصطلاحا، والمحور الثالث فقد استعرض المناخ وأثره في انتشار الأوبئة، وكيف أن المناخ يلعب دور رئيس في انتشار الاوبئة، اما المحور الرابع فتناول وبالتفصيل وباء الطاعون في القرنين السابع والثامن الهجريين/الثالث عشر والرابع عشر للميلاد واسباب انتشارها، وفي المحور الخامس والاخير فأشاره الى الاثار السلبية لوباء الطاعون على الحياة العلمية في المغرب والاندلس، واخيرا خاتمة بأهم نتائج البحث.

المحور الاول : أهم المصنفات الأندلسية والمغربية في الوباء والطاعون:

1ـ الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، لابن البيطار المالقي (ت:646هـ/1249م) وهو: عبارة عن معجم ذكر فيه ابن البيطار مختلف الاعشاب والادوية المستعملة لمعالجة الأمراض، وقد أشار الى العديد من النباتات الطبية التي تنبت بالمغرب والأندلس، وفوائدها الطبية [1].

2ـ تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد:لابن خاتمة المري الأنصاري(ت:770هـ/1369م)، ذكر فيه ابن خاتمة وباء سنة(750هـ/1349م) الذي ضرب الأندلس والمغرب، مبتديا بالتعريف بالوباء وذكر أسبابه، ثم الحديث عن

[1] سميرة المزكلدي: المجاعات والأوبئة بالمغرب الوسيط(534-776هـ/1139-1375م)، اطروحة دكتوراه، جامعة سيدي محمد بن عبدالله، كلية الاداب والعلوم الانسانية،(فاس،2004)، ص50 ومابعدها.

هـــذا الوبـــاء ومصـــدره، ومنـــاطق انتشـــاره، ذاكـــرا بالتفصـــيل عـــدد الوفيـــات بالوبـــاء فـــي المريـــة الانـــدلس بشـــرق وتلمســـان بـــالمغرب الاوســـط على سـبيل المثـال، كمـا أنـه تحـدث عـن كيفيـــة انتشـــاره، وســـبل تجنـــب الوباء[1].

3. مجموعة رسائل وكتب ابن الخطيب: لما توفي ابن الجياب شيخ ابن الخطيب في طاعون سنة(750هـ/1349م) خلفه ابن الخطيب(ت:776هـ/1374م) في رياسة ديوان الإنشاء(ديوان المراسلات والاوامر السلطانية)، ومنحه السلطان أبو الحجاج النيار المؤيد بالله (734-755هـ/1333-1354م) رتبة الوَزارة وألقابها[2]، كتب لسان الدين ابن الخطيب عدداً من الرسائل والكتب المتنوعة منها في هذا المجال الأول: رجَز في الأغذية (أو أرجوزة الأغذية)، وتقع في حوالي مائتين وألف بيت، عرَضَ فيها الأغذية مرتَّبَة على حروف المعجم، وذكر طبائعَها ومنافعها ومضارّها وإصلاح خللها .والثاني :عمل مَن طبّ لمن حبّ، وهو كتاب طبيّ ضخم نشرته المستشرقة الإسبانية مارية دي لاكونثيثيون، في العام 1972، تطرق فيه ابن الخطيب إلى مختلِف الأمراض مستعْرضاً أسبابَها وأعْراضها وسبلَ علاجها، ونظام الغذاء المناسب لكلٍّ منها، كما تحدث فيه عن شتى أعضاء الجسم، وطرق الاعتناء بها، وقد ألفه صاحبُه عام (761هـ/1359م)، خلال إقامته الأولى بفاس، وأهداه إلى السلطان أبي سالم المريني(759-761هـ/1357-1359م)، الذي كانت أفضاله على ابن الخطيب كثيرة؛ لذا فقد أشاد به في ديباجة الكتاب بعبارات رنّانة، مصرّحاً بأنه لم يَجد، لرد جميل أبي سالم، خيراً من الطب الذي يحفظ الصحة، ومنه الدين والدنيا. وله تأليفٌ آخرُ شبيهٌ بهذا من عدة وجوه، عنوانُه: الوصول لحفظ الصحة في الفصول، كتبه في غرناطة، عام (771هـ/1369م)، لسلطانها أبي عبد الله محمد الخامس النصري (755-761هـ/1354-1359م)

([1]) مخطوطة المكتبة الوطنية الجزائرية ، رقم(1767) ، ص181.

([2]) عبدالكريم الخطابي: الطب والاطباء في الأندلس الاسلامية، دار الغرب الاسلامي (بيروت،1988) 1/151-186.

و(764-794هـ/1362-1391م)، وهو من مؤلفاته الطبّية التي وصلتنا[1].

أما المؤلف الآخر فهو مقنعة السائل عن المرض الهائل، وهو عبارة عن رسالة طبّية وصحية ، ألفها لسان الدين ابن الخطيب عن الطاعون الخطير الذي اكتسح الأندلس وجُلّ مناطق العالم الإسلامي في أواخر سنة(749هـ/1348م). وفيها يصف ظروف ظهور هذا الوباء، وسرعة انتشاره، وعلاماته الأولى، وسُبَل التحوُّط منه. كما عرف فيها وباء الطاعون، مبرزاً أسبابه ، وموضحاً آثاره على مستوى بدن المصاب به، وطرق المعالجة منه، وانتقد بعضَ التصورات البعيدة عن مفهوم القدر واثبت وجود العدوى، وعاب على القائلين بعدم وجودها[2]. وقد ذكرها ابنُ الخطيب، ضمن الترجمة التي كتبها لنفسه في آخر كتابه(الإحاطة في اخبار غرناطة)، هذه الرسالة باسم :رسالة الطاعون، فضلا عن ذلك هناك مصادر أخرى لأتفل أهمية عما ذكرناه منها: مخطوطة مارواه الواعون في أخبار الطاعون[3].

4. مخطوطة شفاء السقيم فيما ينتفع به في زمن الوباء والوخم [4].

5. مخطوطة رسالة في معالجة الوباء قبل نزوله[5].

المحور الثاني: مفهوم الوباء لغة واصطلاحا:

ان الوباء بوصفه مصطلحًا واضح الدلالة والمعاني لم يكن موحد الاستخدام في المصادر التاريخية الإسلامية، وإن كانت تلك المصادر تغطي الأحداث التاريخية للأمم والشعوب ، فالمصادر التاريخية في كثير من الأحيان كانت

(1) حسن الوراكلي: لسان الدين ابن الخطيب في اثار الدارسين(دراسة وبيبلوجرافيا)، المغرب، مجلة كلية الاداب بتطوان، العدد(2)، السنة2، (1987)، ص113؛ رابحة المغراوي: كتاب الاحاطة بأخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب(713-776 هـ) منهجية التاليف والتصنيف (دراسة تحليلية)، مجلة افاق الثقافة والتراث، العددين(21.20) ،السنة(1998)، ص181-182.

(2). منشورات معهد العلوم العربية الاسلامية ،المانيا، جامعة فرانكفورت،1997، ص93.

(3) نسخة مصورة عن مخطوطة، برقم1544،عن موقع يوسف زيدان للتراث للمخطوطات www.Zeidan.com

(4) نسخة مصورة عن مخطوطة المكتبة الوطنية بالجزائر، برقم532.

(5) مخطوطة مكتبة البلدية بقرطبة، برقم (r28439)،نسخة مصورة عن موقع يوسف زيدان للتراث والمخطوطات www.zeidan.com.

حوادث الوباء تندرج ضمن الأحداث التاريخية حتى وان كانت كوارث طبيعية مثل السيول والقحط والثلوج وغيرها تعدّ من الحوادث.

لقد كان الجانب الديني يطغى على تلك الأحداث مصبوغة بصبغة دينية ولقد تواترت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة في ذلك أن المصائب التي تنزل بالعباد بسبب ذنوبهم ، قال الله سبحانه وتعالى: ((ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ))[1]. أي استعلى الفساد في البر والبحر أي فساد معايشهم ونقصها وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة بطبعها. وقوله سبحانه وتعالى : ((فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون))[2]. تلكم الذنوب وتلك عواقبها ، وما هي من الظالمين ببعيد. ما ظهرت المعاصي في ديار إلا أهلكتها..ولا تمكنت من قلوب إلا أعمتها..ولا فشت في أمة إلا أذلتها . وما ورد عن النبي (ﷺ) قوله:((اتاني جبريل عليه السلام بالحمى والطاعون ،فامسكت الحمى بالمدينة وارسلت الطاعون الى الشام، والطاعون شهادة لامتي ،ورحمة لهم، ورجز عن الكافرين)) [3]، ، فالوباء عند أهل اللغة يعني: بأنه كل مرض عام يمد، ويقصر، وجمع المقصورة أوباء، وجمع الممدودة أوبئة، وقد وبئت الأرض توبا فهي موبوءة اذا كثر مرضها[4].

أما مفهوم الوباء اصطلاحا: فقد اتفق ممن تحدثوا عن الوباء كالأطباء أو المؤرخين الذين دونوا بعض أحداث الأوبئة في مؤلفاتهم، بأنه: المرض الذي يعم أهل البلد بسبب فساد الهواء. فيذكر الطبيب ابن زهر الاشبيلي(ت:525هـ/1130م)، بأن الناس في الأندلس والمغرب قد اعتادوا على اطلاق اسم الوباء على الأمراض التي تصيب أهل بلد من البلدان ويشمل

(1) سورة الروم ، الاية: 41 .

(2) سورة العنكبوت، الاية: 40 .

(3) أحمد بن حنبل: المسند الصحيح، مؤسسة قرطبة،(القاهرة، د.ت)، 81/5 الحديث 20786.

(4) محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، دار صادر، (بيروت، 1968)، 189/1-190.

أكثرهم، ولهذا اذا كان الهواء فاسدا عم المرض في ذلك البلد[1]، ويذهب ابن خاتمة الانصاري بالقول: ((بأنه مرض عام للناس قتال غالبا عن سبب مشترك)) [2]، أما الوزير لسان الدين ابن الخطيب يقول عن الوباء:((هو مرض حار حاد السبب سمي المادة يتصل بالروح بواسطة الهواء ،ويسري في العروق، فيفسد الدم ويحيل الرطوبات الى السمية وتتبعه الحمى ونفث الدم، أو يخرج عنه خراج من جنس الطواعين)) [3]، بينما استخدم ابن خلدون (ت:808هـ/1405م) للدلالة على الوباء كلمة الموتان، والذي يعني جميع المرض الذي يصيب الانسان والحيوان معا، قائلا:((فاذا كان الفساد قويا،وقع المرض في الرئة، وهذه هي الطواعين وأعراضها مخصوصة بالرئة)) [4].

وعلى العموم فقد اتفقت كل المصادر الاسلامية على ان الوباء: مرض عام يحدث بسبب فساد الهواء، على الرغم من ان المصادر التاريخية التي كتبها المؤرخون لم تفرق بدقة بين الوباء الذي يحدث بسبب فساد الهواء وبين مرض الطاعون(الجذام)[5]. كما حدث سنة(749هـ/1348م)،مما جعل مسالة تحديد ماهية المرض الذي حدث كما تورده المصادر التاريخية امرا محيرا بسبب عدم التحديد بدقة[6].

فالوباء في كتب السير والتراجم نراه يختلف عما موجود في كتب التاريخ العام وما ورد في كتب السير التراجم، يختلف

([1]) أبو مروان بن أبي العلاء بن عبد الملك/ كتاب الأغذية، تحقيق:اكبيراتيون غارثيا،مدريد،المجلس الأعلى للأبحاث العلمية بمعهد التعاون مع العالم العربي(مدريد،1992)،ص134.

([2]) تحصيل غرض القاصد،ص162-181.

([3]) مقنعة السائل، ص38.

([4])عبدالرحمن بن محمد بن خلدون: المقدمة، تحقيق: محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي(بيروت،2006)، ص282.

([5])الطَّاعُونُ: دَاء وَرمي وبائي سَببه مكروب يُصِيب الفئران وتنقله البراغيث إِلَى فئران أُخْرَى وَإِلَى الْإِنْسَان. وقَيل: الطاعون: قروح تخرج في الجسد فتكون في الآباط أو المرافق أو الأيدي أو الأصابع وسائر البدن، ويكون معه ورم وألم شديد، وتخرج تلك القروح مع لهيب ويسود ما حواليه أو يخضر أو يحمر حمرة بنفسجية كدرة ويحصل معه خفقان القلب والقيء ، للمزيد. ينظر. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: ، دار إحياء التراث العربي، ط2 (بيروت، 1392هـ)، 14/ 204؛ إبراهيم مصطفى (واخرون): المعجم الوسيط، دار الدعوة ،(القاهرة، د-ت)، 558/2.

([6]) ابن خاتمة الأنصاري، تحصيل غرض القاصد،ص181،161.

ايضاً عما ورده في كتب الفقية ، ففي الأول لايرد اسم الوباء الاعند وفاة أحد الشيوخ الصلحاء او الأولياء، بأن صاحبه توفي بذلك الوباء وأن له في ذلك ثوابا حسنا،بينما في كتب التاريخ يأتي خبر الوفاة في داخل تلك التراجم والأحداث بشكل اخر، فالوباء على سبيل المثال في نظر ابن خلدون: دخل من منظور علم الاجتماع ،باعتبار الوباء حدثا ملازما لا عمار الدول والأمم بسبب الكوارث(الحروب والقحط والسيول والمجاعات)،وانها عارض يصيب الأمم التي أخذت بالاضمحلال، والتدهور، كعلامة على قرب زوال تلك الأمة ونهايتها، بسبب كثرة العمران الذي عده من أسباب الحضارة ورقي الأمم، وازدحام السكان مما يرافقه فساد الهواء، أي أن الوباء في نظره كان في الحضر والعمران اكثر من البوادي والارياف(الوبر) ،اذا ما علمنا أن ابن خلدون كان ضحية الوباء عانى هو نفسه منه، عندما توفي والداه واغلب شيوخه في وباء اواخر سنة (749هـ/1348م) [1]، وفي التراجم يرد ايضاً عند ذكر وفاة الشيوخ والعلماء وحضور تشييعه ودفنه عددا كبيراً من الناس بما فيه الحكام والسلاطين[2]،

أما الوباء في كتب الفقهية نراه بشكل يختلف عما سبق ذكره، فنراها تتكلم عن الوباء بشكل أسئلة يجيب عنها الفقهاء شانها شأن كثير من المسائل العامة التي يستفتي الناس فيها عن الأجوبة[3]، وعليه كان الوباء(الطاعون) هو الخطر الثاني الذي يهدد أهل الأندلس من بعد خطر النصارى الاسبان الذين كانوا يضغطون باستمرار على أراضي المسلمين منذ اواخر عصر الخلافة الاموية بالاندلس(422هـ/1030م). وأخيرا لابد من القول بأن العلماء المسلمين قد فرَّقوا بين الوباء والطاعون، فعدوا

---

(1) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية(بيروت ،2004)، ص64-65.

(2) أبو الحسن علي القلصادي : رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق: محمد ابو الأجفان ،الشركة التونسية للتوزيع، (تونس ، 1985)، ص98.

(3) أحمد بن يحيى الونشريسي : المعيار والمعرب والجامع المغرب عن علماء افريقيه والأندلس والمغرب، اشراف: محمد الحجي ، دار الغرب الاسلامي(بيروت ،1981)، ص12؛ محمد فتحة: النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الاسلامي من القرن6الى 9، منشورات كلية الاداب، جامعة الحسن الثاني (الدار البيضاء،1999)، ص 32-37.

الطاعون وباءً وليس العكس، اذ إن الطواعين في الغالب غير معلومة المصدر بينما يكون مصدر الوباء بشكل عام معروفاً .

المحور الثالث المناخ وأثره في انتشار الأوبئة:

وعلى الرغم من أن الأوبئة والطواعين ضمن الآفات السماوية والعاهات التي لا يد للإنسان فيها بل هي من مشيئة الله سبحانه تعالى، الا أن المؤلفات الطبية التي كتبت عن الطب النبوي، قد رصدت جملة من الأسباب منها طبيعية ومناخية ومنها روحانية ومنها مايكون ناتجا عن الحروب والمجاعات[1]، ويلعب المناخ حتى اليوم الدور البارز في انتشار الأوبئة والأمراض وانتقالها من مكان الى اخر، إذ كان الجغرافيون المسلمون سباقين في ذلك عندما قسموا العالم الى أقاليم مناخية منها مايصلح للسكن ومنها لايصلح للسكن، ويعد ابن خلدون أول من أشار الى المناخ وأثره على نشأة العمران، وتاثيره في طبائع الناس وعاداتهم وسلوكهم[2].

السبب الرئيس لفساد الهواء في نظر الاطباء المسلمين يكون بسبب الحرارة والرطوبة والعفونة التي تورث الخمول والضعف في الجسم، مما ينتج عنه الوباء كما عبر عنه ابن خلدون قائلاً:((الوباء سببه في الغالب فساد الهواء لكثرة مايخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة))[3]،فالتنوع الجغرافي لأقاليم الأندلس والمغرب وتأثير الرياح القادمة من البحار والصحاري ،وسقوط الأمطار الغزيرة والمفاجئة في فصل الصيف كان له الأثر في فساد الهواء وتعفنه، مما يعقبه أمراضا مثل الحمى وظهور الأمراض الوبائية والطواعين، خاصة في أواخر فصل الصيف الذي تكثر فيه العفونة والأبخرة[4].

ويذهب بعض المؤرخين ممن عنوا بالفلك والجغرافي الى أن الوباء الذي يعم

([1]) مزدور سمية: المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط(558 -927هـ/1129 -1520م)، رسالة ماجستير، كلية الاداب والعلوم الانسانية(قسنطينة 2009)، ص118.

([2]) المقدمة، ص91-92.

([3]) المقدمة، ص282؛ ابن خاتمة: تحصيل غرض القاص د،ص169 -171

([4]). ابن زهر: التيسير في المداواة والتدبير، ص449-453؛ ابن خاتمة: تحصيل غرض القاصد،ص170.

البلاد يرجع الى أمور فلكية كاجتماع الكواكب واتصالها مع بعضها البعض، من قبيل اجتماع المريخ وزحل في البروج النارية، مما يجعل ذلك سببا أقوى لظهور الوباء ، ويشير لسان الدين ابن الخطيب الى ذلك قائلا((سبب أقصى وهو الامور الفلكية من القرانات التي تؤثر في العالم حسب مايزعمه ارباب صناعة النجوم ويأخذه الطبيب مسلما عنهم))[1]، أي أن الأطباء في بعض الأحوال كانوا الى جانب التشخيص يأخذون بقراءة الأبراج والازياج(جداول فلكية يُعرف منها سير النجوم) لتفسير بعض الظواهر وحدوثها مثل الأوبئة، في حين ربط البعض الاخر ظهور الوباء وانتشاره بظهور نجم الثريا وسقوطها، فاذا سقطت الثريا وغابت تكثر الأمراض والطواعين، واذا طلعت ترتفع كل الأمراض والعاهات عن كل قطر[2].

المحور الرابع: وباء الطاعون في القرنين السابع والثامن الهجريين وانتشاره:

أشارت المصادر التاريخية وكتب التراجم، التي تناولت بين طياتها الحديث عن الأوبئة في الأندلس والمغرب عن شدة الوباء وحجم الموت في السكان، وحجم الأضرار التي اصاب الحواضر والبوادي، وكانت واضحة المعالم على الجانب الاقتصادي والعمراني والسكاني، وان كان الحديث في تلك المؤلفات عن الوباء يأتي بشكل عارض ضمن أحداث السنين مثل طاعون أواخر عام(749هـ/1348م). الذي عم الأندلس والمغرب والعالم كله[3].

([1]) مقنعة السائل عن المرض الهائل، ص38.

([2]) محمد الانصاري التلمساني بن الرصاع: الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية، تحقيق ودراسة: محمد حسن، دار المدار الاسلامي(بيروت ،2007)، ص116 -119.

([3]) محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي بن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبد الهادي تازي، ،مؤسسة الرسالة (بيروت،1985) ص161؛ عبدالرحمن محمد بن خلدون: تاريخ ابن خلدون والمسمى بـ (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) ، دار القلم، ط5، (بيروت، 1984م)، 713/6. يذكر ابن بطوطة بهذا الشأن عند حديثه عن مدينة دمشق، بانه عندما انتشر الطاعون الاعظم في البلاد في اواخر ربيع الثاني سنة تسع وأربعين وسبعمائة اجتمع الناس للصلاة بجامعها الاعظم بناء على أوامر حاكمها، إذ أمر مناديا ينادي بدمشق ان يصوم الناس ثلاثة ايام, ويطبخون بالسوق. فصام الناس ثلاثة ايام متوالية, كان اخرها يوم الخميس. ثم اجتمع الامراء والاشراف والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع,

ومن المؤسف ان تلك المصادر التي ذكرت هذه الاوبئة لا تفصل الحديث حول طبيعة تلك الاوبئة(نوعها) لعدم تفريقها بين الوباء والطاعون، حتى بعد سقوط الأندلس بيد النصارى الاسبان ظلت الاوبئة منتشرة بين الناس وانتقالها سهلا، بسبب الحملات الاسبانية والبرتغالية على سواحل المغرب عن طريق الجند مثلما حدث عندما نقل الغزاة الاسبان الوباء الى العالم الجديد الامريكيتين عندما اكتشفوا ذلك وراح ضحيته الهنود (السكان الاصليين). فعلى سبيل المثال: كان من أصعب الأوبئة التي انتقلت من الأندلس الى المغرب في أواخر القرن(9هـ/15م) ذلك الوباء الجلدي المعروف بالزهري(داء الافرنج)، والذي انتقل الى المغرب عن طريق اليهود الذين تم طردهم من غرناطة ، وامتدت اثاره الى الحيوانات التي كان الناس يربونها في بيوتهم فساهم ذلك في سوء أحوالهم المعيشية[1].

ويعد طاعون سنة(748-750هـ/1348-1349م) المعروف بالطاعون الكبير(العظيم)، من أعظم الطواعين التي ضربت العالم في القرون الوسطى، فقد امتد حتى شمل الحوض الغربي للبحر المتوسط ، كان مصدر وباء الطاعون في الشرق في بلاد الخطأ(غرب الصين حالياً)، كما يذكر ابن خاتمة بحسب ما نقله من بعض التجار النصارى الذين قدموا الى مدينة المرية ثغر الأندلس على الساحل الشرقي[2]، وبداية حدوث الوباء كما يذكر ابن الخطيب انه ابتدأ سنة (734هـ/1334م)، بحسب مانقله عن ابن بطوطة الرحالة[3]، اي ان المرض انتقل من بلاد

حتى غص بهم. وباتوا ليلة الجمعة ما بين مصل وذاكر وداع. ثم صلوا الصبح، وخرجوا جميعا على اقدامهم, وبايديهم المصاحف, والأمراء حفاة. وخرج جميع اهل البلد, ذكورا واناثا ,صغارا وكبارا, وخرج اليهود بتوراتهم، والنصارى بانجيلهم، ومعهم النساء والولدان. جميعهم باكون متضرعون الى الله بكتبه وأنبيائه. وقصدوا مسجد الاقدم, وأقاموا به في تضرعهم الى قرب الزوال وعادوا الى البلد, وصلوا الجمعة. وخفف الله تعالى عنهم بعدما انتهى عدد الموتى الى ألفين في اليوم الواحد. وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر على سبيل المثال لاحصر الى أربعة وعشرين الفا في يوم واحد.

(1) الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقي: وصف افريقيا ، ترجمة: محمد حجي ومحمد الاخضر، ط2 ، دار الغرب الاسلامي(بيروت ،1983) 84/1.

(2) تحصيل غرض القاصد،ص173.

(31) مقنعة السائل ،ص45.

الصين عبر طريق الحرير غربا بواسطة القوافل التجارية وحركة التجار.

ويبدو أن الوباء انتقل من الشرق عن طريق القوافل التجارية والحجاج، بشكل سريع وعم أغلب أمم العالم أنذاك، منتقلا من بلاد الصين الى بلاد الترك والعجم، ومنها الى أرض الحبشة ومصر والشام سنة(749هـ/1348م)،ومن ثم الى العراق سنة(750هـ/1339م)،وعن طرق التجارة البحرية انتقل عبر بحر الخزر(بحر قزوين) وبحر الروم(البحر الابيض المتوسط)الى الدولة البيزنطية، ومنها الى موانى جنوب أوربا وجزرها ووصل الى مضيق مسينة بصقلية سنة(747هـ/1347م) ثم الى نابولي وبيزة وجنوة والبندقية في الأراضي الإيطالية، ومرسيليا بجنوب فرنسا عن طريق الاسكندرية سنة(749هـ/1348م)،حتى بلغ بلاد الفرنجة في شمال الأندلس ومنها دخل الاندلس، وانتقل عبر جزر بحر الروم مثل صقلية الى افريقية سنة(749هـ/1348م) ومنها عم بلاد المغرب والعالم كلها[1]. كما يصف لنا ابن خلدون الذي عاصر ذلك الوباء العظيم قائلا:((وتحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران))[2]، ولتقريب الصورة عن قوة هذا الطاعون، وما خلّفه من خسائر بشرية، فإن ابن خلدون يؤكد أنه فقد أمه وأباه وعددا من أساتذته وأنه أهلك نصف ساكنة بعض المناطق أو ثلثها[3]، كما تطرق الى ذلك ابن خاتمة الأنصاري الذي عايش هذا الوباء[4].

ونظرا لكونه كان حدثا بارزا ومؤلما أصاب العالم أنذاك، اختلف في تسميته من بلاد الى أخرى في الشرق والغرب[5]، واختلفت المصنفات الاسلامية أيضا في الحديث عنه سواء كانت ضمن المصنفات التاريخية كأحداث سنوية، أو مصنفات طبية أثارها الوباء للتأليف عنه، او في سير تراجم الشيوخ والعلماء الذين توفوا في الوباء، أو بيد رحالة دونوا شيئا من اخباره.

([1]) ابن خاتمة: تحصيل غرض القاصد، ص137؛ محمد امين البزاز: الطاعون الاسود بالمغرب في القرن 14م، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية ، العدد(16)، (الرباط ،1991)، ص110.

([2]) المقدمة، ص38.

([3]) ابن خلدون :المقدمة، ص39.

([4]) تحصيل غرض القاصد، ص165،164.

([5]) الخطابي : الطب والاطباء، 149/2.

أما طاعون سنة(845-856هـ/1441-1452م)، فهو بعكس طاعون سنة(748هـ/1444) الذي ضرب الاندلس والمغرب معا ووصفه كلا من ابن خاتمة الأنصاري وابن الخطيب وابن خلدون وغيرهم من المؤرخين والأطباء، إذ نلاحظ بأن هذا الوباء كان تأثيره على الأندلس قليلا بالقياس الى المغرب الذي اقتصر تأثيره عليه، لذلك لم يحظ باهتمام وعناية المؤرخين الأندلسيين سوى اشارات أوردتها عنه كتب الرحلات العلمية والتراجم ،لا ترتقي الى المستوى المطلوب من المعلومات المهمة كما في الطاعون الكبير، وانما وردة كمجرد خبر وباء أصاب المغرب ،هلك فيه بعض الفقهاء والشيوخ أورده بعض الرحالة الأندلسيين أمثال القلصادي (ت: 891هـ/1486م) ،الذي ارتحل الى المشرق زمن الوباء طلبا للعلم لذلك ظل مجهولا هذا الوباء سوى ما نقله عنه بعض الرحالة وطلبة العلم الذين تأثروا به .

أما بالنسبة للمؤرخين المغاربة فهم أيضا لم يذكروا الشئ الكثير عن الوباء سوى معلومات مقتضبة، عدا كونها وبائين متعاقبين أحدهما بعد الاخر، الأول اطلقوا عليه تسمية بـ(تقصيص الضفرة)[1]، والثاني بـ (وباء عزونة)[2]، على أن هاتين التسميتين هما الاخريين لا يعرف عنها شئ هل هي اسماء مجازية أم اسماء أشخاص أوأماكن بدأ فيها الوباء.

المحور الخامس : الاثار السلبية لوباء الطاعون على الحياة العامة:

كان ظهور الوباء وانتشاره في القرون الوسطى حدثا وخيما على المجتمعات أنذاك، لما تركه من أثار كارثية تتمثل في موت عدد كبير من الأهالي بمختلف طبقاتهم، ونقص السكان وتوقف الحياة في تلك المدن لفترة طويلة قبل أن تسترد عافيتها من جميع نواحي الحياة العامة كما هو معلوم .

1- الأثار السلبية المترتبة على الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للأندلس والمغرب:

للطواعين والأوبئة أخطار كبيرة تصيب الأمم والشعوب فتهلكها، وتهدد أمن الدول وتؤذن بزوالها وإدبارها، فهي من بلاء الله الذي يصيب به من يشاء،

([1]) أبو العباس احمد بن ابي العافية المكناسي بن القاضي: لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد، تحقيق: محمد حجي، ضمن موسوعة اعلام المغرب، دار الغرب الاسلامي(بيروت، د-ت) ،2/752-761.

([2]) ابن القاضي، لقط الفرائد:2/752-761.

وسيف من سيوفه المسلط على عباده يضربهم به بقصد الرحمة أو النقمة، فيمكن أن يشكل الوباء خطراً على أمن الدولة والأمة، فلقد كان طاعون عمواس عظيم الخطر على المسلمين وأفنى منهم أكثر من عشرين ألفاً ومن بينهم خيرة أمرائهم، وهو عددٌ يوازي نصفهم بالشَّام وربما تخوَّف من ذلك المسلمون يومئذٍ، واستشعروا الخطر من قبل الرُّوم، وفي الحقيقة لو تنبَّه الرُّوم لهذا النَّقص الَّذي أصاب جيش المسلمين بالشَّام يومئذٍ، وهاجموا البلاد؛ لصعب على الجيوش المرابطة دفعهم، ولكن ربما كان اليأس تمكَّن من نفوس الرُّوم، فأقعدهم عن مهاجمة المسلمين [1].

اما من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، أدت الأوبئة إلى اختلال التركيبة السكانية، والذي أدى بدوره إلى تباين كبير في الكثافة السكانية بين المدن والقرى، إذ أن كثيراً من القرى اختفت تماماً بفعل الوباء، فنتج عن ذلك تغير ديموغرافي، حيث قل عدد الفلاحين، قلت المنتوجات والمحاصيل الزراعية والحيوانية، ونتج عن ذلك كله غلاء شديد في الأسعار زاد الأوضاع الاقتصادية سوءاً، ولجأ بعض ضعاف النفوس من التجار وأرباب الصنائع إلى استغلال الأزمة باحتكار السلع الأساسية لزيادة ثروتهم، بينما مال بعض المحتاجين والمعدمين إلى السرقة والاحتيال، والذي أدى بالضرورة إلى انهيار أخلاقي في المجتمع. وأدى الوباء إلى هلاك الكثير من الأتقياء ورجال الدين والعلماء الصالحين، فشكل ذلك فراغاً في المرجعية الدينية، حتى أن الناس بدأوا يلجؤون في تلك الفترة إلى المشعوذين والمنجمين حتى يسدوا الفراغ الروحي لديهم [2].

2- الأثار السلبية المترتبة على الحياة العلمية والثقافية للأندلس والمغرب:

قبل بيان تلك الاثار وجب تبيان موقف الفقهاء من ذلك، فقد ورد في السنة النبوية عن الرسول (ﷺ) قوله:((عذاب يبعثه الله على من يشاء، وان الله جعله رحمة للمومنين، ليس من أحد يقع

([1])الصلابي، علي محمد: سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شخصيته وعصره، مؤسسة اقرأ، (القاهرة، 2005)، ص 232.

([2]) الطراونة، محمد مبارك: الأوبئة وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الشراكسة، 2010، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار(عمان، 2010)، ص45-46.

الطاعون فيمكث في بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لايصيبه،الاماكتب الله له لا كان له مثل أجر الشهيد)) [1]، وعلى الرغم من اختلاف الفقهاء في مسالة ألفرار من الأرض الموبؤة على اعتبار ان الذي يصبر عليه ولايفر يكون أجره كالشهيد، والفار منه كالفار من الزحف لملاقاة الأعداء ،كما ورد في مصنفات الحديث النبوي الشريف[2].

فقد أدى وباء سنة(850-856هـ/1449- 1452م)،الى انقطاع السبل أمام أهل الأندلس الذين كان النصارى الاسبان قد احكموا الخناق على مملكة غرناطة آخر معقل للمسلمين وأخذوا بالتضييق عليهم ، فلم يبق لهم من سبيل مع المغرب سوى المجاز (جبل الفتح، او جبل طارق) للمتاجرة والحج وطلب العلم عبرها، فأدى الى تراجع حركة انتقال الحجاج وطلبة العلم والرحالة نحو المشرق وبالعكس، فعندما كان الوباء يضرب أحد المدن على طريق الرحلة كان الحجاج والمرتحلون يضطرون الى استبدال الطريق بطرق أخرى بعيدا عن المناطق الموبوءة ، أو سلوك طرق نائية صحراوية يندر فيها الماء ويكثر فيها قطاع الطرق من الأعراب ،كما كان له الاثر في موت الكثير منهم بسبب الوباء، او بسبب انقطاع السبل بهم بعيدا عن الأندلس، فقد انقطع في تلك الطرق الحاج وطالب العلم عن بلده وأهله لفترة طويلة من الزمن بعد أن ينفذ منه المال ومؤنة الرحلة على أمل أن ينتهي الوباء.

فعلى سبيل المثال يذكر العبدري في رحلته الشهيرة ماحصل له خلال رحلته ومروره بمدينة تلمسان سنة(688هـ/1289م) في ركب من الحجاج الأندلسيين والمغاربة، كان قد وجد المدينة في طريق العودة في حالة يرثى لها من كثرة الموتى في الطرقات وضعف حال الأهالي بسبب القحط والوباء الذي أصابها فلم يستطع القائم بأمر المدينة والأهالي من استقبال وضيافة الحجيج، فكان سببا لتغير القوافل طرق المرور بها [3]، ومن

([1]) ابوعبدالله محمد بن اسماعيل البخاري: الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: مصطفى ديب، دار ابن كثير، ط3 (بيروت ،1987) 1041/3 الحديث2675.

([2]) ابن حنبل: المسند:255/6 ، الحديث 26226.

([3]) محمد بن محمد بن علي بن احمد بن مسعود : ما سما اليه الناظر المطرق في خير الرحلة الى بلاد المشرق، نشر بعنوان الرحلة المغربية، تحقيق: محمد بن جدو، ، منشورات كلية الآداب ، (الجزائر ،د.ت)،ص9.

ناحية أخرى كان ظهور وباء الطاعون وانتشاره مع قلة المعرفة بطرق الوقاية منه، أشد فتكا بفئة الأطفال والشيوخ الذين يمثلون اكثر الفئات عرضة للوباء، إذ كان ذلك سببا في اغلاق الكثير من الكتاتيب والمساجد حلقاتها، أما بسبب اصابة الصبيان بالوباء وعدم ارتيادهم الكتاتيب والحلقات، أوبسبب موت الشيخ وعدم وجود من يحل مكانه الامر الذي أدى الى خسارة كبيرة لأهل البلد وللحركة العلمية فيها، خوفا من العدوى وخلوها من روادها. كما كان هناك من يسعى الى الفرار من الوباء بنفسه وأهله خوفا من الوباء، كما هو الحال مع ابن خلدون الذي اضطر الى الترحال عن مدينته بعد أن هلك أغلب شيوخه في الوباء[1].

ويعد موت الشيوخ سببا آخر في انقطاع ارتياد المرتحلين للعلم الى المدن الاخرى وتأخر الأجازات العلمية أو انقطاعها مثلما حدث مع القلصادي الذي أكمل علومه في مصر لكن وفاة شيخه ابن حجر العسقلاني(ت852هـ / 1448م) حال دون أن يجيزه، وان كان موت شيخه موتا طبيعيا ولم يكن هناك وباء في مصر كما يذكر القلصادي، فما بال البلاد الموبوءة وطلبتها[2]، ومن مجموع الشيوخ الذين اخذ عنهم القلصادي نجد منهم من توفي بالوباء كما يذكر منهم الفقيه ابو الحسن علي بن عبدالعزيز البسطي توفي في وباء سنة (844هـ/1440م)،الفقيه ابو عبدالله القسطرلي توفي في وباء سنة(844هـ/1440م)،الفقيه أبو الحسن علي بن موسى بن عبيدالله اللخمي الشهير بالقرباقي،توفي في الوباء سنة(844هـ/1440م)،والفقيه ابو الحجاج يوسف بن اسماعيل الشهير بالزيدوري توفي في وباء سنة(845هـ/1441م)،الفقيه ابو العباس احمد بن محمد بن عبدالرحمن المغراوي الخزري الشهير بابن زاغو، توفي في وباء سنة(845هـ/1441م) دفن بخارج المدينة بطريق العباد، بعد أن صلى عليه بعد صلاة الجمعة في الجامع الاعظم، وبسبب مكانة العلمية، وعلى الرغم من الخوف من انتشار الوباء ، الا ان كانت له جنازة عظيمة حضرها الخاص والعام، واسف

(1) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص64-65.

(2) رحلة القلصادي، ص153.

الناس لفقده، والفقيه ابو الفضل قاسم العقباني، توفي سنة(854هـ/1451م) وصلي عليه بالجامع الأعظم قبل أن يدفن ،وكانت هو الاخر له جنازة عظيمة حضرها السلطان مما دونه[1]. وعلى الرغم من موت هولاء الفقهاء وخسارة علومهم بسبب الوباء يلاحظ بأنه كانت جنازاتهم يحضرها حشد كبير من الناس من العامة والخاصة تقديرا لمنزلتهم الكبيرة.

الخاتمة:

__ لقد حاولنا في الصفحات السابقة الاقتصار على بيان اثر الاوبئة على الحياة العلمية والثقافية قدر الامكان في الاندلس والمغرب، لكن في الحقيقة ان دراسة الاوبئة في الغرب الاسلامي كان له ايضاً اثار اقتصادية واجتماعية على السكان في الاندلس والمغرب, التفت البحث الى بيان والتعريف عدد من المصادر الاندلسية والمغربية التي تطرقت الى وباء الطاعون سواء ما كتبه الاطباء او المؤرخين او كفتاوي اجاب عنها الفقهاء كأسئلة طرحها الناس لبيان الاحكام منها, ومن ثم تعريف هذا الوباء في المصادر الاسلامية لغة واصطلاحا وبيان اسباب حدوثها ومن ثم التعريف بأهم وبائيين ضربا الاندلس والمغرب في القرون الوسطى, وبيان اثاره على الحياة العلمية والثقافية.

__ لقد فرَّق العلماء المسلمين بين الوباء والطاعون، فعدوا الطاعون وباءً وليس العكس، حيث إن الطواعين في الغالب غير معلومة المصدر بينما يكون مصدر الوباء بشكل عام معروفاً.

__ يبدو ان الصين كانت ولاتزال المصدر الرئيس للأوبئة منذ القدم فلو تصفحنا صفحات التاريخ لنجد بان اغلب الاوبئة مصدرها المشرق ولاسيما الصين ، وانتقلت هذه الاوبئة الى انحاء العالم عن طريق التجارة ، وذلك عبر طريق الحرير العظيم .

__ كان وباء منتصف القرن الثامن الهجري/منتصف القرن السادس عشر الميلادي ذات تأثير كبير جداً على صحة الناس، فعلى الرغم من انه كان مجرد "مرض وافد" على الأندلس وعلى شبه جزيرة إيبيريا. ورغم ذلك فتك بالآلاف من سكان المدن التي وجد فيها استعدادا للإبادة

([1])الرحلة،ص 83،84،87،90،100،101،102،106،107.

الأوبئة في المشرق الإسلامي (من القرن 4هـ/10م الى القرن 6هـ/12م) دراسة تاريخية وإحصائية من خلال المصادر

الدكتورعبد القادرسليماني

الملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع الأوبئة في المشرق الإسلامي في الفترة الممتدة من القرن 4هـ/10م الى غاية القرن 6هـ/12م، من خلال مجموعة من المصادر المشرقية المعروفة، بلغت حدود العشرين مصدرا ، على غرار تاريخ ابن الجوزي ، وتاريخ ابن الأثير وتاريخ الذهبي و النجوم الزاهرة وغيرها ، وقد حرصنا على أن تكون هذه المصادر شاملة لكل أقاليم المشرق الإسلامي المعروفة تاريخيا .

وقد تمحورت إشكالية هذه الدراسة حول مدى انتشار الأوبئة والآفات المرضية العامة، في بلاد المشرق الإسلامي خلال الفترة المذكورة، وعن أسبابها المباشرة وغير المباشرة ، إضافة الى آثارها الاجتماعية والاقتصادية خاصة ، من خلال المقاربة التاريخية والاحصائية التي جعلناها معتمدا ومنهجا لدراستنا .

حيث عملنا على إجراء رصدٍ إحصائيٍ لعدد الأوبئة خلال القرون الثلاثة المذكورة ، من خلال عشرات المصادر التاريخية الكبرى ، التي عُني أصحابها بتقصي أخبار الوباءات ، وأماكن تموقعها ، وتتبع ذلك بصفة كرونولوجية دقيقة ،بل ومحاولة تفسير أسبابها وامتداداتها ، بصفة علمية صرفة ، وفي بعض الأحيان بطريقة دينية غيبية ، وقد مكّننا ذلك من جمع كمٍ هائل من المعطيات عن أماكن انتشار الأوبئة وسنواتها ، و مدى شموليتها واستمرارها زمنيا ، وهو الأمر الذي سهّل علينا ربط الأسباب بين أماكن انتشار الأوبئة و محاولة تفسير ذلك ، قدر ما أتاحته لنا المعطيات التاريخية .

وقد خلصنا في النهاية الى مجموعة من النتائج ، التي توصلنا اليها من خلال تتبع المعطيات التاريخية و مناقشتها ونقدها ظاهريا وباطنيا ، فضلا عن دراسة وتحليل المعطيات الكمية التي جمعناها ، والتي سمحت لنا بدراسة الظاهرة إحصائيا ، و مقاربتها اقتصاديا واجتماعيا ، لمعرفة تداعياتها على مجتمع المشرق الإسلامي إجمالا .

Abstract :

This study deals with the issue of epidemics in the Islamic East from the period between the 4th H century and 6th century, through a group of well-known eastern sources, reaching the limits of

twenty sources,, and we have made sure that these sources are comprehensive for all the regions of the Islamic East known historically

The problem of this study revolved around the prevalence of general epidemics and pathological lesions in the Islamic East regions during the aforementioned period, and their direct and indirect causes, in addition to their socio-economic effects in particular, through the historical and statistical approach of our study.

Where we worked to conduct a statistical monitoring of the number of epidemics during the aforementioned three centuries, through dozens of major historical sources, whose owners were concerned with investigating the news of the epidemics and their location, and followed that in an accurate chronological manner, and even trying to explain their causes and extensions, in a pure scientific manner, and sometimes in a way Religious metaphysics, and this enabled us to collect a tremendous amount of data on the locations of epidemics and their years, and we try to explain this, as much as historical data provided us.

We finally reached a set of results, which we reached by tracking historical data and discussing outwardly and internally, as well as studying and analyzing the quantitative data that we collected, which allowed us to study the phenomenon with statistically, economically and social approach, to know its implications for the Islamic East Society Altogether.

Keywords : Islmic East- Epidemics - the plague- Infection- natural disasters- Drought- Rising prices

مقدمة:

لم تهتم المصادر التاريخية الإسلامية بالأحداث السياسية والعسكرية و الاقتصادية فقط ، كما لم تكتف بتراجم الرجال وسيرهم ، بل إنّ كثيرا منها قد حرص على رصد الظواهر الاجتماعية عامةً وخاصة ، ومنها الأوبئة والأمراض والطواعين ، وهذه الأخيرة وإن كانت ذات طبيعةٍ صحيةٍ ، الاّ أنّها ظواهر إجتماعيةٌ محضةٌ بأسبابها و تفاصيلها و تداعياتها ، مما

جعل لها آثارًا كبيرةً و نتائج مؤثرةً على الدول والمجتمعات .

و قد حفظت لنا المصادر التاريخية -خصوصًا ما تعلّق منها بالمشرق الإسلامي – كثيرًا من الأخبار والروايات والنصوص التاريخية المتعلقة بأخبار الأوبئة ، و بعضها كان يتتبع أخبار الأوبئة سنويا ، و يُبيّن مراحل تنقلها و انتشارها في أقاليم المشرق الإسلامي المختلفة .

ومن خلال تتبعي لأخبار الأوبئة في مصادر تاريخ المشرق الإسلامي مثل : تاريخ الطبري ، و المنتظم لابن الجوزي ، و مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ، و الكامل لإبن الأثير ، و تاريخ الإسلام للذهبي ، و البداية والنهاية لابن كثير ، و النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، و السلوك للمقريزي ، وعشرات غيرها ، قلتُ من خلال رصدي للأوبئة في هذه المصادر وغيرها ، لاحظت أنّه ومنذ القرن الأول للهجرة ، السابع ميلادي ، الى حدود القرن التاسع للهجرة ، الخامس عشر للميلاد ، لم يخل إقليم من الأقاليم المشرقية من وباءٍ عامٍ أو خاصٍ ، وبعض الأوبئة كان يستمر لعاملٍ أو أكثر ، غير أنني عند المقارنة بين القرون المختلفة ، لاحظت أنّ القرون الرابع و الخامس والسادس للهجرة (4و5و6هـ) ، العاشر والحادي عشر والثاني عشر للميلاد (10و11و12م) ، قد شهدت خصوصيةَ ميّزتها عن غيرها من القرون ، تمثّلت في كثرة الوباءات ، وانتشارها في عموم المشرق الإسلامي من مصر الى الشام الى العراق ، الى فارس و بلاد الجبل و خراسان و حتى ماوراء النهر ، وامتدادا الى الحجازواليمن .

وعلى هذا الأساس اخترت هذه القرون الثلاثة لتكون إطارا زمانيا محددا للدراسة ، التي طرحنا من خلالها الإشكالية التالية :

الى أي مدى كانت هذه القرون الثلاثة حافلةَ بالأوبئة و الأمراض في المشرق الإسلامي ؟ و كيف كانت أعدادها وامتداداتها بحسب المصادر المشرقية ؟ و ما الأسباب و العوامل المؤثرة في حدوثها و انتشارها ؟

و بخصوص المنهج المعتمد في هذه الدراسة فهو المنهج التاريخي القائم على رصد الأخبار والروايات و تجميعها ، وإعادة بناء الحوادث التاريخية بصورة أقرب ما تكون الى الشّكل الذي حدثت به ، و قد كان لزامًا عليّ للضرورة العلمية التي فرضتها طبيعة الدراسة ، أن نعتمد على المقاربة الإحصائية ، التي من خلالها أمكننا رصد أعداد الأوبئة وأماكن انتشارها ، ومدى شموليتها للمشرق الإسلامي عموما .

المبحث الأول : تعريف الأوبئة و أنواعها حسب المصادر التاريخية :

أولا/ تعريف الأوبئة :

الوباءُ لغة : من الفعل وَبَأَ و الوَبَأُ : الطَّاعُونُ بالقصر والمدّ والهمز، و قيل هو كلّ مرضٍ عامٍّ ، و جمعُ الممدود أَوْبِيةٌ و جمع المقصُور أَوباءٌ ، و قد وَبِئَتِ الأَرضُ تَوبَأُ وَبَأً ، و وَبُؤَتْ وِباءً و وباءَةً و إِباءَةً على البدل، و أَوبَأَتْ إِيبَاءً و وُبِئَتْ تِيبَأُ وَبَاءً ، و أَرضٌ وَبِيئةٌ على فَعيلةٍ ، و وَبِئةٌ على فعلةٍ ، و مَوبُوءَةٌ و مُوبِئةٌ : كثيرةُ الوَباء ، و استَوبَأتُ البلد والماء ، و استَوبَأ الأرض : استَوخَمها و وجدها وَبِئةً ، والباطل وبيءٌ لا تُحمدُ عاقبته[1].

أما اصطلاحا : فقد تناولت بعض المصادر الإسلامية غير المتخصّصة ، تعاريف الأوبئة والطواعين ، مثل مصادر الحديث الشريف و شروحها ، وذلك بسبب ورود أحاديث نبويةٍ تتعلق بالموضوع ، و ساقوا آراءً جديرة بالاعتبار ، رغم أنّهم لم يكونوا أطباء ، و عليه فسنحاول التعرف على تلك الآراء والشروح ابتداءً ، ثم نُعرّج على ما ذكره الأطباء بخصوص ذلك أيضا ، وقبل الولوج الى التفصيل ينبغي الإشارة الى أنّ أغلب المصادر الإسلامية التي تناولت الموضوع ، كانت تحاول ضبط تعريف الوباء بدقة لتفادي الخلط بين المصطلحات المتشابهة ، كالطاعون مثلا ، بسبب ما بينهما من تشابه أعراضٍ و صفات .

يقول أبو السعادات بن الأَثِيرِ (ت606هـ/1210م) فِي كتابه (النّهاية في غريب الحديث) : ((...الطَّاعونُ المرض العامُّ ، و الوباءُ الذي يفسدُ له الهواء فَتفسدُ به الأمزجَةُ والأبدان...))[2].

أما الحافظ النووي (ت676هـ/1277م) فيذكر في (شرح صحيح مسلم) تعريفا للطاعون ، وآخر للوباء فيقول : ((...و أما الطَّاعونُ فهو قُروحٌ تخرجُ فِي الجسد ، فتكونُ فِي المْرافق أو الآباط أو الأيدي أو الأصابع و سائر البدن ، ويكُونُ مَعهُ ورمٌ و ألمٌ شديدٌ ،و تخرج تلك القروح مع لهيب ويسود ما حواليه ، أو يَخضرُّ أو يَحمرُّ حُمرةً بنفسجيَّةً كَدرةً و يحصُل معه خفَقانُ القلب والقيء....))[3] .

أما الوباء فهو في رأيه ((... مَرضُ الكثيرينَ من النَّاس في جهةٍ من الأرض دُون سائر الجهات ، و يكونُ مُخالفًا للمعتاد من أمراضٍ في الكثرة

---

[1]- جمال الدين بن منظور، *لسان العرب* (بيروت: دار صادر ، 1414هـ)، ج1 ، 189-190.

[2]- أبو السعادات بن الأثير، *النهاية في غريب الحديث والأثر*(بيروت: المكتبة العلمية ، 1399هـ/1979م)، ج3 ، 127.

[3]- شرف الدين النووي، *المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج* (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1392هـ)، ج14 ، 204.

وغيرهَا ، و يكُونُ مَرضُهم نوعًا واحدًا ، بخلاف سائر الأوقات فإنَّ أمراضهم فيها مختلفةٌ ...))[1] .

وكذلك فعل الحافظ ابن حجر(ت852هـ/1448م) في (فتح الباري) عند تناوله حديث الطاعون ، حيث ذكر عدة أقوال لسابقيه ، وهي في أغلبها تعاريف عامة غير مفصّلة ، ثم قال : ((...و ٙقد أطلقَ بعضُهمْ على الطَّاعُون أنّهُ وَباءٌ لأنَّهُ منْ أفراده ، لكن ليسَ كُلُّ وباءٍ طَاعونًا.....ويُفارقُ الطَّاعونُ الوباء بخُصوص سببه الذي ليس هو فِي شيءٍ من الأوباء ، و هو كَونهُ منْ طَعن الجنّ))[2] .

و للحافظ ابن حجر كتاب مهم جدا في الموضوع هو كتاب (بذل الماعون في فضل الطاعون) ، يفصّل فيه أكثر في الفرق بين الوباء و الطاعون في كتابه ، حيث يتناول الأحاديث التي تنفي إصابة المدينة المنورة بالطاعون ، و يحاول الجمع بين معناها وبين ما ذكرته مصادر التاريخ ، من كون المدينة المنورة لم تسلم من بعض الأوبئة التي مستها ، فيخلص الى نتيجة مفادها ((...أن الطاعون أخص من الوباء ، و أنّ الأخبار الواردة في تسمية الطاعون وباء ، لا يلزم منه أن كل وباء طاعون بل يدل على عكسه ...))[3] .

ورغم أن العبارات الواردة في كتابه مضطربة ، الا أنّ الفكرة واضحة ، حيث يُفهم منها أنّ الطاعون نوع من الوباء و أنّ الوباء أشمل منه ، وهو -أي الطاعون- الذي وردت الأحاديث بحماية المدينة منه ،

و يقول زين الدين المناوي في معجمه المسمى (التوقيف على مهمات التعاريف) : ((...الوباء فسادٌ يعرض لجوهر الهواء لأسبابٍ سماوية وأرضية...))[4] .

و بالعودة الى آراء الأطباء المسلمين و تعاريفهم للأوبئة ومميزاتها ، فقد جاءت في كثيرٍ منها مفصّلةً و شارحةً لخصائص الأوبئة ومظاهرها ، مما يدل على المستوى العلمي الكبير الذي بلغه المسلمون في التعرف على الأمراض الوبائية ، و القدرة على تشخيصها و تبيين مميزاتها و تمظهراتها المختلفة ، بل إنّ الكثير من الممارسات الطبية الحديثة ، هي في الحقيقة تطويرٌ لما جاد به العقل الطبي العربي والمسلم .

---

[1]- المصدر السابق.

[2]- ابن حجر العسقلاني، *فتح الباري شرح صحيح البخاري* (بيروت: دار المعرفة، 1379هـ)، ج10 ، 133.

[3]- ابن حجرالعسقلاني، *بذل الماعون في فضل الطاعون* (الرياض: دار العاصمة ، ب ت)، 104.

[4]- زين الدين المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف (القاهرة: عالم الكتب ، 1410هـ/1990م)، 334.

ومن بين تلك التعريفات :

ما نجده عند الطبيب أبي بكر الرازي (ت313هـ/925م) ، الذي لم يتحدث في الحقيقة عن تعريفٍ للوباء بشكل دقيق ، و إنما عن مسبباته ، حيث يقول : ((... إذا هبت الصِّبا فِي كانون أيّامًا كَثِيرَة وتكدر الهواء وَكلما ظَنَنت أَنه يكون مطر يَتَنَاثر من السَّمَاء كالغبار فقد فسد مزاج الهَوَاء في الشتَاء وَإِن كان الرّبيع قَلِيل المطر شدِيد البرد وهبت جنوب أيامًا ثمَّ صفا بعد ذلك الهواء نَحو عشرة أيَّام وكان باللَّيل برد شَدِيد وبالنهار حر وفِي الهَوَاء غمَّة وحرارة فقد بَدَت العفونات والجدري وإذا كثر فِي الصَّيف المطر وكدر الجو واغبرت الأشجار ولا يكون حاراً كما يَنبغي وترى فِي نصف الخريف نيران في السَّماء من المغرب فإِنَّها علامات وباء عظيم...))[1]

و يقول أيضا في ذات السياق ((...فإذا تغير الهواء في اليوم مرَّات إِلى الحر والبرد وطلعت الشَّمس صافيَة يومًا بشمال وبرد وكدرة و يوما بجنوب وحر فإِنَّها علامات الوباء...)) .[2]

أما الطبيب ابن سَيْنَا (ت427هـ/1035م) فينقل عند ابن حجر قوله : ((...الطَّاعُونُ مادَّةٌ سُمِّيَّةٌ تُحدِثُ وَرَمًا قَتَّالًا يحدُثُ فِي المَوَاضِعِ الرَّخوَةِ وَالمغَابِنِ مِنَ الْبدَنِ وأغلبُ ما تكُونُ تحتَ الإِبط أو خَلف الأُذُن أو عندَ الأرنَبَة قال وسببُهُ دمٌ رديءٌ مَائلٌ إِلى العُفُونة والفَساد يستَحيلُ إِلى جَوهَرٍ سُمِّيٍّ يُفسِدُ العُضوَ ويُغَيِّرُ مَا يَليه ويُؤدّي إِلى القلبِ كيفيَّةً رديئةً فَيُحدِثُ القيءَ والغَثيَانَ والغَشي والخَفَقَانَ وهو لِرداءَتِهِ لا يَقبَل منَ الأعضاء إِلَّا ما كان أضعف بالطَّبع وأردَؤُهُ ما يقعُ فِي الأَعضاء الرَّئيسيَّة والأسوَدُ منْه قَلَّ من يَسلمُ منهُ وَأَسلَمهُ الأحمر ثُمَّ الأَصفرُ والطَّواعينُ تكثرُ عندَ الوباءِ فِي البلادِ الوَبئَة وَمنْ ثمَّ أُطلِقَ على الطَّاعُون وَباءً وبالعكس وأمَّا الوباءُ فهو فسادُ جوْهر الهواء الذي هُو مادَّة الرُّوح ومَددُه...))[3].

و يسمِّي الطبيب ابن رضوان (ت453هـ/1061م) الأوبئة بالأمراض الو افدة، وهو وإن كان يتحدث عن مصر خصوصا ، الا أنّ تعريفه شامل ، حيث يقول : ((...و معنى المرض الو افد أن يعمّ خلقا كثيرا في بلد واحد و زمانٍ واحدٍ ، ومنه نوعٌ يقال له الموتان ، وهو الذي يكثر معه الموت...))[4] ، ثم يذهب الى التفصيل في مجموع الأسباب التي تحدث الأوبئة في مصر ، ولعلنا نعود اليها في قادم الصفحات .

- [1] أبو بكر الرازي، الحاوي في الطب (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1422هـ/2002م)، ج4 ، 434.

- [2] المصدر السابق، ج4 ، 434و435.

- [3] ابن حجر، فتح الباري، ج10 ، 180.

- [4] أبو الحسن بن رضوان، *دفع مضار الأبدان بأرض مصر*(بغداد: جامعة بغداد، 1988م)، 46.

و الحاصل أن مجموع تعريفات الأطباء المسلمين ركّزت على التفريق بين الوباء والطاعون ، وتبيين أسباب كل واحد منهما ، مع الحرص على التشخيص الدقيق في كل ذلك .

ثانيا/أنواع الأوبئة بحسب المصادر التاريخية :

من خلال الدراسة الاستقرائية الإحصائية لظاهرة الأوبئة في المشرق الإسلامي ، في القرون 4و5و6هـ/10و11و12م ، و التي شملت قرابة عشرين مصدرًا تاريخيًا للمشرق الإسلام ، وصلتنا الى إحصاء ثمانية وتسعين (98) وباءً تقريبا ، في عموم مدن المشرق الإسلامي و أقاليمه ، وقد أمكننا تصنيف تلك الأوبئة بحسب انتشارها و توسعها جغرافيا الى ثلاثة أنواع كبرى هي :

1/ الأوبئة الخاصة بالمدن :

وهذا النوع غالبا ما ينتشر في مدينة أو مدينتين على الأكثر ، ولا يستمر في الغالب لمدة طويلة ، كما أنّ تأثيراته المباشرة مثل الوفيات تكون محدودةً جدًا ، ومع ذلك فبعض الوباءات التي تنتمي الى هذه النوع تكون مقترنة في العادة بأثر اقتصادي بالغ ، فيزيد الغلاء وتنقص السلع ، وهو ما يؤثر في استقرار المجتمع ، نتيجة الفوضى التي تنتشر بسبب بعض فئات المجتمع من العيارين واللصوص ، اللذين يحاولون استغلال فرص انفلات الأمن المجتمعي والغذائي ، لفرض منطقهم من خلال كثرة السطو وقطع الطرق .

ومن الأمثلة على ذلك الوباء الذي أصاب مصر سنة 365هـ/975م ، ومات فيه عددٌ معتبرٌ[1] ، ومنها وباء سنة 461هـ/1068م ، و الذي صاحبته اضطراباتٌ كبيرةٌ كارتفاع الأسعار وقلة الغذاء ، وانتشار قطاع الطرق ليس بغرض السرقة وحسب ، بل حتى بغرض خطف البشر وأكل لحومهم[2] .

ومنها الوباء الذي أصاب بغداد سنة 301هـ/913م ، وأدّى الى إغلاق بعض إحياءها[3] ، و وباء سنة 498هـ/1104م ، الذي أعقب انتشار مرض الجدري ، وقد نتج عن ذلك موت الكثيرين خصوصا من الصبيان[4] .

وفي إقليم العراق العجمي أو بلاد الجبل ، تعرّضت أصبهان للوباء سنة 324هـ/935م ، وصاحب ذلك غلاءٌ رهيبٌ[5] ، وكذلك مدينة

- [1] تقي الدين المقريزي، إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء (بيروت: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية)، ج1 ، 246.

- [2] المصدر السابق، ج2 ، 297.

- [3] جمال الدين بن الجوزي، *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم* (بيروت: دار الكتب العلمية ،1412هـ/1992م)، ج13 ، 144.

- [4] شمس الدين الذهبي، *تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير والأعلام* (بيروت: دار الكتاب العربي ، 1413هـ/1993م)، ج34 ، 69.

- [5] المصدر السابق، ج24 ، 39.

الري في سنة 344هـ/955م ، و قد كان وباءً عظيمًا عُدم فيه أمير خراسان أبو علي بن محتاج، وكان محاصرًا لها[1].

و تذكر المصادر أيضا أنّ إقليم خراسان قد تعرّض للعديد من الوباءات في الفترة المذكورة ، ومنها الوباء الذي ضرب مدينة بلخ سنة 383هـ/993م ، و قد انفرد به العماد الأصفهاني في كتابه (البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان) ، وذكر أنّه أفني كل أهلها[2] ، -وفي ذلك مبالغةٌ ولاشك- ، ولكنّها معبّرة عن حجم الوباء و فتكه بالناس .

و في سنة 401هـ/1010م ألمّ بنيسابور وباءٌ عظيمٌ ، وكثر الموتى حتى قيل أنهم بلغوا مائة ألف او يزيدون[3].

و قد امتدّت خريطة الوباء الى أقاليم بعيدة جدا ، ففي سنة 449هـ/1057م ، ضرب الوباء بعض مدن ما وراء النهر مثل بخارى و سمرقند ، فبلغ جملة الجنائز في بخارى في يوم واحد ثماني عشرة ألف جنازة ، وخلت الأسواق ، و لزم الناس بيوتهم خائفين[4] .

هذه بعض أمثلة عن النوع الأول من أنواع الوباء ، وهو الذي يقتصر على مدينة أو اثنتين ، ولا يحمل الشكل الإقليمي الواسع ، ومع ذلك فإنّ آثاره وتداعياته قد تكون أحيانا خطيرة جدا .

2/الأوبئة الخاصة بأقاليم محدودة :

و نقصد بها الوباءات التي تعمّ إقليما كاملا أو أكثر ، وتتميز بنوع من الشمولية المحدودة ، وعادة ما تكون متعلقة بالأقاليم المتجاورة جغرافيا ، ولذلك أسبابٌ طبيعيةٌ من قبيل تنقل الوباء بفعل الرياح ، أو بشرية بسبب خروج الناس فرارا من الأقاليم الموبوءة ، فيتسببون في نشره في الأقاليم الأخرى القريبة ومن الأمثلة على ذلك :

وباء سنة 344هـ/955م ، والذي بدأ في أصبهان ، وامتدّ الى إقليم الأهواز ، ثم شمل بغداد و أجزاءً من جنوب العراق الى واسط و البصرة[5] ، و يذكر ابن الجوزي في المنتظم ، أنّ سبب ذلك علةٌ كانت تصيب أهل البيت الواحد

- [1] أبو الحسن بن الأثير، *الكامل في التاريخ* (بيروت : دار الكتاب العربي ، 1417هـ/1997م)، ج7 ، 212.

- [2] عماد الدين الأصفهاني، *البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان* (بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، 1423هـ/2002م)، 271.

- [3] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج28 ، 10.

- [4] سبط بن الجوزي، *مرآة الزمان في تواريخ الأعيان* (دمشق: دار الرسالة العالمية ، 1434هـ/2003م)، ج19 ، 12. و الذهبي، *تاريخ الإسلام*، ج30 ، 28.

- [5] ابن الجوزي، *المنتظم*، ج14 ، 98.

جميعا ، فكان يموت في اليوم الواحد ألف شخص أو يزيد[1] .

ومن الأمثلة أيضا الوباء الذي ضرب الموصل وبلاد الجزيرة والعراق في سنة 439هـ/1047م ، و كان سببه الغلاء الشديد ، فقد ارتفعت الأسعار وندُرت السلع ، حتى أكل الناس الميتة[2] ، وزاد انتشار الوباء من تفاقم الواضع الذي عمّ أغلب البلاد العر اقية والجزرية .

و منها أيضا وباءٌ ضرب الأهواز و أعمالها سنة 449هـ/1057م ، ثمّ امتدّ منها الى واسط و الكوفة و أكثر جنوب العراق ، ويُذكر أنّه صاحب ذلك مجاعةٌ كبيرةٌ ألجأت الناس الى أكل الكلاب ، وكثر الموت في الناس ، فكان يدفن العشرون والثلاثون في القبر الواحد[3] .

ومنها وباء سنة 467هـ/1074م الذي بدأ من الرحبة بالقرب من الكوفة ، ثم وصل الى واسط والبصرة ، ومنها امتدّ الى خوزستان أو الأهواز ، و وصل الى حدود خراسان ، فمات في الوباء خلق كثير[4] .

وهنا ينبغي الإشارة الى ملاحظة مهمة ، وهي أنّ هذا النوع الثاني من الأوبئة ، والذي يشمل إقليمًا او إقليمين متحاورين ، كان في بعض الأحيان يتزامن منه حدوث أوبئة في مناطق أبعد ، لا رابط جغرافي بينها وبين الأقاليم الموبوءة أولا ، فيأخذ الوباء طابعًا أكبر من الإقليمية ، الى حدود شمولية أغلب المشرق الإسلامي ، ومثل ذلك حدث في وباء سنة 449هـ/1057م ، الذي شمل الأهواز وبعض مناطق جنوب العراق ، فقد تزامن معه وباءٌ مماثل في أذربيجان و أعمالها ، و وصل الخبر بحدوث مثل ذلك في بعض أقاليم ما وراء النهر[5] .

3/ الأوبئة الشاملة لعموم المشرق الإسلامي :

وهي تلك الأوبئة التي شملت عموم أقاليم المشرق الإسلامي و انتشرت فيه ، و قد تميّز هذا النوع زيادة الى الشمولية الجغرافية ، بالبقاء مدة طويلة تزيد على السنة ، وتمتد أحيانا الى سنوات عديدة ، ، و تكون أعداد ضحايا هذا النوع في الغالب كثيرةً جدًا ، ويرتبط بذلك في العادة قحطٌ و جدبٌ عامٌ ، ومن أمثلة هذا النوع : وباء سنة 423هـ/1031م الذي عمّ العراق ، والموصل والشام ، وامتدّ شرقًا الى بلاد الجبل فشمل أصبهان و أعمالها ، و خراسان و جرجان ، و

- [1] المصدر السابق.
- [2] ابن الأثير، *الكامل*، ج8 ، 64.
- [3] عماد الدين بن كثير، *البداية والنهاية* (دمشق: دار الفكر ، 1407هـ/1986م)، ج12 ، 71.
- [4] المصدر السابق، ج12 ، 109.
- [5] ابن العماد الحنبلي، *شذرات الذهب في أخبار من ذهب* (دمشق: دار ابن كثير ، 1406هـ/1986م)، ج5 ، 208.

غزنة و وصل الى الهند ، وقد صاحب هذا الوباء انتشار مرض الجدري في الموصل ، فهلك منه قرابة أربعة آلاف صبي ، وذكروا أنّه خرج بأصبهان في فترة وجيزة أربعون ألف جنازة ، وكثر الموت في عموم هذه الأقاليم[1] .

ومنها وباء سنة 448هـ/1056م الذي بدأ في مصر، و قد صاحبه قحطٌ شديدٌ فكان الناس يأكلون الميتة ، وبلغت أسعار السلع مبلغا عظيما ، فبيعت الرّمانة والسفرجلة بدينار[2] ، وكثر الموت فَكَانَ يَمُوتُ فِي الْيَوْمِ أَلْفُ نَفْسٍ، وذكرت المصادر أنّ السلطان كفّن من حرماله ثمانية عشر ألف إنسان[3] .

ثم انتقل الوباء الى بلاد الشام ، ثم الجزيرة و الموصل ، و انحدر الى العراق ، فَغَلَتِ الْأَسْعَارُ، وَتَعَذَّرَتِ الْأَقْوَاتُ ، وَأَكَلَ النَّاسُ الْمَيْتَةَ، ، و كَثُرَ الْمَوْتُ حَتَّى دُفِنَ الْمَوْتَى بِغَيْرِ غُسْلٍ وَلَا تَكْفِينٍ، كما انتشر هذا الوباء أيضا ببلاد الجبل و الحجاز واليمن[4].

وقد ذكرنا في النوع السابق من الأوبئة الوباء الذي ضرب بخارى و سمرقند وبلاد ما وراء النهر ، و رغم عدم وجود رابط بين هذا الوباء وبين ذلك الذي حصل في مصر والشام في المصادر التي اعتمدناها ، الا أنّه لا يُستبعد أن يكون كل ذلك جزءًا من الوباء العام الذي ضرب المشرق بأسره .

و من الأمثلة أيضا وباء سنة 469هـ/1076 الذي اجتاح العراق و الجزيرة الفراتية و الشام ، و رافقه موتٌ كثيرٌ، حتى بقيت الغلال و الزروع كما هي لعدم من يعمل فيها[5] ، وقد تباينت مظاهر هذا الوباء في مختلف الأقاليم التي مسّها ، فالمصادر التي تتكلم عن بلاد الشام تصفه بالطاعون العظيم[6] ، وفي العراق العراق ميّزه انتشار الأمراض والعلل الخبيثة[7] .

.

و منها أيضا الوباء الذي حدث بين سنتي 574هـ/1178م و 576هـ/1179م ، وَ قد عم أَكثر الْبِلَاد حيث شمل الْعرَاق ومصر وديار بكر وديار الجزيرة وَالشَّام وَغير ذَلِك من الْبِلَاد[8] ، و قد سبقه جدبٌ وقحطٌ فلم يُمطر الناس طوال سنة 574هـ/1178م ، وصُليت صلاة الاستسقاء في سائر البلاد ولم يحصل شيء و

- [1] السبط، *مرآة الزمان*، ج18 ، 387و388.
- [2] جمال الدين بن تغري بردي، *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة* (مصر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ب ت)، ج5 ، 59.
- [3] ابن الجوزي، *المنتظم* ، ج16 ، 5.
- [4] ابن الأثير، *الكامل* ، ج8 ، 144و145.
- [5] ابن الأثير، *الكامل*، ج8 ، 262.
- [6] ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة*، ج5 ، 105.
- [7] ابن الجوزي، *المنتظم*، ج16 ، 183.
- [8] ابن كثير، *البداية والنهاية*، ج12 ، 300.

كان مع ذلك غلاءٌ شديد ، حتى بيع وكر القمح بمائة وعشرين دينارا[1] .

وفي بلاد الشام بِيعَتْ غِرَارَةُ الْحِنْطَةِ بِدِمَشْقَ وَ هِيَ اثْنَا عَشَرَ مَكُّوكًا بِالْمَوْصِلِيّ ، بِعِشْرِينَ دِينَارًا صُورِيَّةً عِتْقًا ، وَكَانَ الشَّعِيرُ بِالْمَوْصِلِ كُلُّ ثَلَاثَةِ مَكَاكِيّ بِدِينَارٍ أَمِيرِيّ ، وَ فِي سَائِرِ الْبِلَادِ مَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ[2] ، ثم حصل الوباء إثر ذلك ، أي طوال سنة 575هـ/1179م ، وقد ذكر ابن الأثير أن المرض الذي أصاب الناس هو السرسام[3] ، ، وقد مَاتَ به من كل بلد أُمَم لَا يُحصونَ كَثْرَة وَلَقي النَّاس مِنْهُ مَا أعجزهم حمله ، وَكَانَ النَّاسُ لَا يَلْحَقُونَ يَدْفِنُونَ الْمَوْتَى، إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْبِلَادِ كَانَ أَشَدُّ مِنَ الْبَعْضِ ، ثمَّ إِن الله تَعَالَى رَفعه فِي سنة سِتّ وَسبعين وَخمْس مئة وَقد ضعضع الْعَالم[4] .

المبحث الثاني : التصنيف الإحصائي للأوبئة بحسب المصادر:

سنحاول في هذا المبحث الثاني من الدراسة ، عرض التصنيف الإحصائي للأوبئة في المشرق الإسلامي في الفترة المذكورة ، من خلال عرضها في جداول إحصائية و رسومات بيانية مناسبة ، وقد تناولنا هذا الأمر من خلال تصنيف أعداد الأوبئة بحسب المدن و الأقاليم ، ثم بحسب القرون الثلاثة ، مع مصاحبة العرض الإحصائي بالتحليل و الشرح للأسباب و المؤثرات :

ترتيب الأقاليم بحسب عدد الأوبئة في القرون الثلاثة (4و5و6هـ/10و11و12م)

الترتيب	الإقليم	عدد الأوبئة	النسبة المئوية
1	مصر و مدنها	26	%26.53
2	بغداد	19	%19.38
3	بلاد الجبل وفارس و أعمالهما	13	%13.26
4	بقية مدن العراق	12	%12.24
5	خراسان و	08	%8.16

- [1] الذهبي، *تاريخ الإسلام*، ج40 ، 38.
- [2] ابن الأثير، *الكامل*، ج9 ، 436.
- [3] السرسام : يعرّفه ابن سينا بقوله : هو اسْم مَخْصُوص بورم بورم حجاب الدِّمَاغ إِذا كَانَ حاراً ، وَإِن كَانَ فِي بعض المواضع قد أُطلق أَيْضا على ورم جَوْهَر الدِّمَاغ ، وَهُوَ الِاسْتِعْمَال الْخَاص لهَذَا الِاسْم ، إِلَّا أَنه مَنْقُول من اسْم الْعرض الَّذِي يلْزمه ، وَهُوَ الهذيان واختلاط الْعقل مَعَ حرارة محرقة. أبو علي بن سينا، *القانون في الطب*(بيروت: دار الكتب العلمية ، 1420هـ/1999م)، ج2 ، 76. و يُعتقد أنّ السرسام هو مرض التهاب السحايا . الرازي، *الحاوي* ، 144.
- [4] أبو شامة المقدسي، *الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية*(بيروت: مؤسسة الرسالة ، 1418هـ/1997م)، ج3 ، 18و19.

	أعمالها		
6	بلاد الشام	06	%6.12
7	الجزيرة الفراتية والموصل وأعمالهما	05	%5.10
8	ما وراء النهر	03	%3.06
9	الأهواز	03	%3.06
10	جرجان و أعمالها	02	%2.04
11	الحجاز	01	%1.02
	المجموع	98	%100

الجدول رقم 01

من خلال الجدول رقم 01 ، نرى أنّ مصر قد جاءت في المرتبة الأولى من حيث عدد الأوبئة التي عرفتها خلال القرون الثلاثة (4و5و6هـ/10و11و12م) ، بمجموع ستة وعشرين وباءً (26) ، وهو ما يعادل نسبة 26.53% ، ويمكننا تفسير ذلك من خلال ثلاثة مستويات مختلفة : أولها جغرافي ، وثانيها إقتصادي ، وثالثها بشري :

فبالنسبة الى العامل الجغرافي فيتمثل في وجود نهر النيل ، الذي يعتبر المورد الأساسي للمياه والزراعة في مصر ، و التي كانت -أي الزراعة- المصدر الأول للإقتصاد المصري ، فزيادة مستوى المنسوب المائي في نهر النيل أو نقصانه ، كان يؤثر في حدوث الأوبئة في مصر ، و لعلنا سنتكلم عن ذلك بتفصيل أكثر في المبحث القادم من هذه الدراسة ، وهو الخاص بأسباب الأوبئة وتداعياتها .

و العامل الاقتصادي أيضا مرتبط بالعامل الأول الجغرافي ، إذ أنّ حدوث الجفاف و القحط ، كان يؤدي بالضرورة الى التخوف من جهة ، والرغبة في الإحتكار من جهة أخرى لزيادة الربح ، و مع قلة البضائع والسلع ، كانت الأسعار ترتفع ، و يؤدي ذلك في المحصلة الى حدوث الوباءات المرتبطة بسوء التغذية و انعدامها ، و ربما اللجوء الى أنماط غذائية غير معتادة ، مثل أكل لحم البشر أو الحيوانات .

و بخصوص العامل البشري ، فهو متعلق بانتشار العدوى ، وهذا يخص الأوبئة الناشئة في غير البيئة المصرية ، والتي تنتقل بواسطة البشر ، و بحكم الموقع الخاص لمصر و الذي يربط بين المشرق و المغرب ، فقد كانت الهجرات الفردية والجماعية تمر عبرها ، كما كانت الطرق التجارية تمر عبرها من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب .

و في المرتبة الثانية جاءت بغداد وحدها ، بمعزل عن بقية مدن العراق ، إذ بلغ عدد الأوبئة فيها في القرون الثلاثة المتتالية تسعة

عشر وباءً (19) ، وبنسبة تعادل 19.38% ، و قد أشارت أغلب المصادر التاريخية التي اعتمدنا عليها ، الى بعض الاقوال التي يمكن أن تصلح تفسيرا لكثرة عدد الأوبئة بها ، ومنها طغيان نهري دجلة والفرات ، وما يترتب عن ذلك من هدم وموت ، و بالتالي تعكر الجو وتلوثه ، خصوصا في أيام الحر ، وكذلك لأنّ إقليم العراق عموما مجاور لبعض الأقاليم التي تُعتبر مصادر للأمراض والأوبئة بحسب وصف الجغرافيين والبلدانيين لها ، ومنها إقليم الأهواز و الجبل و فارس وغيرها .

و هذه الأقاليم الأخيرة -أي فارس والجبل- جاءت هي بدورها في الرتبة الثالثة في عدد الأوبئة التي تعرّضت لها ، حيث بلغ مجموعها ثلاثة عشر وباءً (13) ، ويبدو أنّ تقارب هذه الأقاليم مع أقاليم خراسان و ما وراء النهر من جهة الشرق ، ومع العراق و اعماله من جهة الغرب ، كان يجعل فارس وبلاد الجبل عرضة لانتقال العدوى اليها بسهولة ، سواء عن طريق الهواء ، أو بسبب حركات النزوح التي تتزامن في العادة مع حدوث الأوبئة ، وربما هو ما يفسّر لنا هذا العدد والترتيب .

أما بقية مدن العراق الأخرى مثل البصرة و واسط الكوفة وغيرها ، فقد جاءت رابعة بمجموع اثني عشر وباءً ، وهو ما يُمثّل نسبة 12.24% ، و يبدو لي أنّ قرب هذه المدن بالعاصمة بغداد ، وتأثرها بمؤثراتها السابقة ، يفسّر لنا جانبا من كثرة عدد الأوبئة بها نسبيا .

و يمكننا اعتبار ترتيب الأقاليم التالية : خراسان وأعمالها بـ 08 وباءات ونسبة 8.16% ، و بلاد الشام بـ 06 وباءات ونسبة 6.12% ، و الجزيرة الفراتية وأعمالها بـ05 وباءات و نسبة 5.10% ، ضمن النسب المتوسطة من مجموع كل الأقاليم ، وموقعها الوسطى - خصوصا الشام والجزيرة – يجعلها تابعة للمؤثرات العامة في الأقاليم الكبرى في مصر و العراق .

أم ترتيب بقية الأقاليم الأخرى فجاء كما يلي : ما وراء النهر بـ03 أوبئة ونسبة 3.06% ، وكذلك الأهواز بـ 03 أوبئة و نسبة 3.06% ، ثمّ جرجان و أعمالها بوبائين و نسبة 2.04% ، و أخيرا الحجاز بوباء واحد ضرب مكة المكرمة ، و هذه الأقاليم كلها تتميزّ ببعدها نسبيا عن المراكز الكبرى للمشرق الإسلامي ، ولعلّ ذلك هو الذي جعل أعداد الأوبئة ونسبها فيها قليلة جدا ، لبعدها عن مراكز الأوبئة ، و نقص احتمالات انتشار العدوى فيها .

وقد مثّلنا الجدول السابق برسم بياني ، يوضّح أعداد الأوبئة في مختلف أقاليم المشرق الإسلامي:

الرسم البياني رقم 01

و في الجدول رقم 02 ، صنّفنا أعداد الأوبئة بحسب القرون التي حدثت فيها ، وذلك من أجل الوقوف على مقاربة إحصائية أخرى ، تشرح تموضع الأوبئة تاريخيا ، فحصلنا عل مايلي :

تصنيف أعداد الأوبئة إقليميا بحسب القرون الثلاثة(4و5و6هـ/10و11و12م)

الإقليم	القرن 4هـ/10م	القرن 5هـ/11م	القرن 6هـ/12م
مصر	03	10	10

ومدنها			
بغداد	08	09	02
باقي مدن العراق	03	08	01
بلاد الجبل وفارس و أعمالهما	04	06	03
خراسان وأعمالها	02	06	00
بلاد الشام	00	06	02
الجزيرة الفراتية والموصل و أعمالهما	00	04	01
ما وراء النهر	00	03	00
الأهواز	01	02	00
جرجان و أعمالها	01	01	00
الحجاز	00	01	00
المجموع	22	57	19
النسبة	%22.44	%58.16	%19.38

المئوية			
المجموع العام	98	النسبة المئوية العامة	%100

الجدول رقم02

من خلال الجدول رقم 02 ، وجدنا أنّ القرن الخامس للهجرة ، الحادي عشر للميلاد (5هـ/11م) ، قد شهد أكبر عدد من الأوبئة في المشرق الإسلامي وهو سبعةٌ و خمسون وباءً (57) ، و هو ما يمثل نسبة 58.16% ، ثم يأتي بعده القرن الرابع للهجرة ، العاشر للميلاد (6هـ/12م) ، بإثنين وعشرين وباءً (22) ، و هو ما يعادل نسبة 22.44% ، و أخيرا القرن السادس هجري ، الثاني عشر ميلادي (6هـ/12م) ، و قد بلغ فيه عدد الأوبئة تسعة عشر وباءً (19) وباءً ، ونسبة 19.38% .

و لا يمكننا أن نجزم بوجود أسباب دقيقة ، نفسر بها كثرة عدد الأوبئة في المشرق الإسلامي في القرن 5هـ/11م ، غير أننا توصلنا الى جملة من الفرضيات ، التي تصلح لأن تكون أساسا نرتكز عليه في فهم هذا الرقم الكبير نسبيا في عدد أوبئة القرن 5هـ/11م ومنها :

أولا/ أنّ القرن الخامس للهجرة ، الحادي عشر للميلاد (5هـ/11م) ، قد شهد عددًا معتبرًا من أزمات الجفاف و الغلاء ، والتي كانت سببا مباشرًا في حدوث مجاعاتٍ عامة ، و لطالما كانت تلك المجاعات سببًا مباشرًا أحياناً ، وغير مباشرٍ أحيانا أخرى ، في حدوث الأوبئة و زيادتها ، أو في توسيع رقعتها و امتدادها ، لأنّ المجاعات ترتبط بها كثرة الوفيات ، وتغير الأنماط الغذائية ، وهو ما يشكّل مناخاً مناسباً لتفشي العدوى و انتقالها عبر الأفراد والجماعات ، ومن الأمثلة على ذلك :

المجاعة التي ضربت العراق سنة 411هـ/1020م[1] ، و كانت سببًا في وباءٍ جارفٍ ، وأخرى خصّت بغداد سنة 450هـ/1058م[2] ، وأعقبها وباءٌ كبيرٌ .

ومنها الغلاء الذي عرفته مكة المكرمة في سنة 447هـ/1055م ، و قد ذُكر من أسبابه ، قلة الطعام في مصر والتي كانت المصدر الأساسي لغذاء أهل مكة[3] ، و أيضا الغلاء العام الذي ضرب الجزيرة الفراتية والموصل والشام والحجاز واليمن في سنة 448هـ/1056م[4] ، و كان السبب الأساسي للوباء الذي انتشر عقب ذلك وعمّ سائر مناطق المشرق الإسلامي .

1- الذهبي، *تاريخ الإسلام*، ج28 ، 243.

2- ابن كثير، *البداية و النهاية*، ج12 ، 77.

3- تقي الدين الفاسي، *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام* (بيروت: درا الكتب العلمية ، 1421هـ/2000م)، ج2 ، 325.

4- ابن الأثير، *الكامل*، ج8 ، 144و145.

ومنها الشدة المستنصرية التي ضربت مصر بين سنتي 457هـ/1064م الى سنة 464هـ/1071م[1] ، فقد كان لها أكبر الأثر في انتشار العديد من الوباءات المتقطّعة في الإقليم المصري .

و يرتبط بنفس السّبب السابق ، أنّ القرن الخامس هجري ، الحادي عشر ميلادي (5هـ/11م) ، عرف العديد من الفترات المتقطعة من الجفاف والجدب والقحط ، و هذا العامل كان مؤثرًا بشكلٍ كبيرٍ على ارتفاع أسعار المواد الأساسية ، وبالتالي انتشار المجاعات ، خصوصًا و أنّ الزراعة كانت هي عماد إقتصاديات الدول القائمة في عموم المشرق الإسلامي من العراق الى الشام الى مصر.

ومن أهم الأمثلة على ذلك : القحط الذي أصاب إقليم خراسان عموما ، ونيسابور خصوصا في سنة 401هـ/1010م[2] ، وكان هو السبب الأساسي في وباء ذلك العام ، و أيضا القحط الذي ضرب الموصل سنة 439هـ/1047م ، والذي كان شديدًا لدرجة أنّ الناس قد أكلوا الموتى[3] ، و أعقبه وباءٌ كبيرٌ ، والأمثلة متعددةٌ و متنوعةٌ .

و يضاف الى الأسباب الخاصة بالقرن الخامس هجري ، الحادي عشر ميلادي (5هـ/11م) ، أسبابٌ أخرى تشترك فيها القرون الثلاثة معا ، وسنعود اليها في المبحث القادم من هذه الدراسة ، و هو الخاص بأسباب و عوامل حدوث الأوبئة في المشرق الإسلامي و بعض تداعياتها .

و قد حوّلنا الجدول السابق و هو رقم 02 ، الى رسمٌ بيانيٌ هو عبارةٌ عن دائرةٍ نسبيةٍ ، مثّلنا فيها معطيات الجدول بشكل أكثر توضيحًا و إجلاءً لظاهرة الأوبئة في المشرق الإسلامي في الفترة الزمنية المختارة للدراسة :

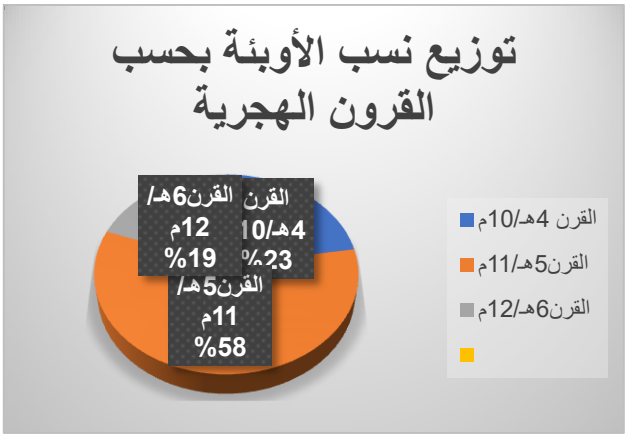

الرسم البياني رقم 02

[1]- ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة*، ج5 ، 3.

[2]- ظهير الدين بن فندق، *تاريخ بيهق* (دمشق: دار إقرأ ، 1425هـ)، 333.

[3]- الذهبي، *تاريخ الإسلام*، ج29 ، 334.

المبحث الثالث : أسباب الأوبئة في المشرق الإسلامي :

رغم عناية المصادر الإسلامية المشرقية ، برصد أخبار الأوبئة والطواعين والأمراض ، و تدوين أخبارها و تأثيراتها ، الا أنّ كثيرا منها لم يخرج عن دائرة السرد التاريخي دون تفصيل أو تأصيل ، بل إنّ بعضها كان ينقل عن سابقيه نقلا حرفيا لا إضافة فيه و لا تعليق ، طبعا مع وجود استثناءات قليلة ، حاول أصحابها الخوض في أسباب الأوبئة وعواملها ، و تشريح أهم مظاهرها المتكررة أحيانا .

وقد حاولنا من خلال المصادر التي اعتمدنا عليها ، تجميع أهم الأسباب التي كانت مؤثرة في حدوث عشرات الأوبئة في فترة القرون الثلاثة محل الدراسة ، و جهَدنا قدر الإمكان في التركيز على ما كان منها عامًا مشتركًا بين عديدها ، و لذلك فيمكننا القول أنّه ومن خلال الإستقراء الشامل لمجموع أوبئة القرون الثلاثة المذكورة ، بحسب المصادر المعتمدة في الدراسة ، قد لاحظنا أنّ الأسباب الاقتصادية المتمثلة في ارتفاع الأسعار و الغلاء وقلة السلع أو عدم توفرها ، كانت في الأغلب الأعم الأكثر تأثيرًا في انتشار الأوبئة و توسعها ، و مع ذلك فلا يمكن فصل هذا الأسباب الاقتصادية عن عديد الأسباب والعوامل المباشرة وغير المباشرة المرتبطة بها ، مثل العوامل المناخية المؤثرة في الإنتاج الزراعي ، و ارتفاع أو انخفاض منسوب مياه الأنهار ، والتي كانت هي المصادر الأساسية للنشاط الزراعي ، وكذلك تأثر النشاط التجاري بفعل انقطاع الطرق لأسباب سياسية أو عسكرية أو صحية .

ومع ذلك فإنّه بإمكاننا القول أنّ الأسباب الأساسية التي كانت وراء الأوبئة في المشرق الإسلامي في القرون (4و5و6هـ/10و11و12م) ، تندرج تحت أربعة مجموعات أساسية هي :

1/ الأسباب الجغرافية و المناخية ، 2/ الأسباب السياسية و العسكرية ، 3/الأسباب الاقتصادية ، 4/الأسباب الصحية .

1/ الأسباب الطبيعية الجغرافية و المناخية :

وهي الأسباب التي ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالمقومات الجغرافية و الطبيعية و المناخية ، التي تميّز كل إقليم عن غيره ، و هي ذاتها التي تكون من أسباب انتشار الأوبئة في ذلك الإقليم ، وقد تكون في بعض الأحيان عاملاً مساعدًا لا سببًا مباشرًا ، ومنها الموقع الجغرافي و الفلكي ، أو وجود الأنهار و المصادر المائية ، وكذا طبيعة المناخ ، و التي هي في الأساس فرعٌ عن الموقع الجغرافي ، و منها أيضا بعض الكوارث الطبيعية كالفيضانات و انجراف التربة مثلا ، ومن الأمثلة على هذا النوع الأول ، الأوبئة التي

كانت تضرب الإقليم المصري و التي كانت كثيرةً جدًا طوال القرون الثلاثة ، فقد ورد في كثير من المصادر ربط ذلك بارتفاع أو انخفاض منسوب نهر النيل ، حيث يُذكر ذلك في وباء سنة 446هـ/1054م ، و بأنّ قصر مدّ النيل كان سبب ذلك[1] ، بل إنّ بعض المصادر قد ربطت بشكل دائمٍ و متوقعٍ بين الوباء ونهر النيل ، حيث يذكرون أنّه إذا بلغ مستوى ثمانيةَ عشر ذراعًا يحدث بمصر وباءٌ عظيمٌ[2] ، وحدث العكس أيضا في سنة 596هـ/1199م ، حيث انخفض نهر النيل الى ثلاثة أصابع[3] ، وليس الأمر مقتصرًا على مصر فحسب ، حيث تذكر المصادر أنّ وباء الرحبة بالعراق في سنة 467هـ/1074م ، والذي توسّع الى صريفين وعكبرا و واسط والبصرة و خوزستان ، قد حدث بسبب سيولٍ كبيرةٍ ضربت المنطقة ، وارتفع بسببها منسوب نهر تامرّا[4] أكثر من المعتاد[5] .

ومن الأسباب والعوامل الطبيعية أيضا ، ما يتعلّق بالموقع الجغرافي لبعض الأقاليم ، حيث أن بعض الأقاليم المشرقية وبسبب وجودها في مو اقع جغر افية ذات خصوصية ، يمكن أن تساعد على نشر بعض الأوبئة ، بسبب ربطها بين أقاليم متباعدة مثلا موقع مصر بين بلاد المغرب و الشام ، أو موقع فارس بين العراق خراسان ، أو موقع الشام بين العراق ومصر ، وهكذا ، ويمكن لقائلٍ أن يقول أنّ هذا السبب متعلقٌ بالعامل البشري أكثر من أي عاملٍ آخر ، إذ أنّ العنصر البشري هو الأكثر تأثيرا في نقل العدوى بين الأقاليم بفعل الهجرات أو النزوح ، وهو قولٌ صائبٌ ولكنّنا من خلال الأمثلة التاريخية وجدنا أنّ العامل المناخي كان له أيضا هنا تأثيرٌ بارزٌ، إذ أنّ قُرب بعض الأقاليم من بعضها البعض أو توسطها بين عدّة أقاليم متباعدة ، كان يساهم في انتقال العدوى بفعل الرياح و العواصف مثلا ، ومن الأمثلة على هذا العامل : الوباء الذي حدث سنة 423هـ/1031م ، و قد بدأ في خراسان و جرجان و أصبهان و بلاد الجبل ، ثم امتدّ الى العراق و الموصل غيرها[6] ، وهذه

- [1] المقريزي، *اتعاظ الحنفاء*، ج2 ، 226.

- [2] ابن أيبك الدواداري، *كنز الدرر و جامع الغرر* (القاهرة: عيسى بابي الحلبي ، 1402هـ/1982م)، ج1 ، 191و192. نقل ابن أيبك هذا الرأي عن ابن الجوزي و فنّده ، و ربط بين الوباء بمصر و الغلاء الشديد دون سواه .

- 3الذهبي، *تاريخ الإسلام* ، ج42 ، 30.

- 4نهر تامرّا : بفتح الميم وتشديد الراء والقصر، نهرٌ كبيرٌ تحت بغداد شرقيها ، مخرجه من جبان شهرزور ممّا يجاورها...وعلى شاطىء تامرّا باجسرا وبعقوبا .ابن شمائل البغدادي، *مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع*(بيروت: دار الجيل ، 1412هـ)، ج1 ، 250.

- 5ابن الجوزي، *المنتظم* ، ج16 ، 161.

- 6السبط، *مرآة الزمان* ، ج18 ، 387.

الأقاليم كما هو واضح كلها مرتبطة بحدودٍ مباشرةٍ مع بعضها البعض ، ومنها أيضا وباء سنة 467هـ/ 1074م ، و الذي بدأ في الرحبة بالعراق ثم امتدّ الى واسط ، ومنها الى الجنوب حيث الكوفه ، ثم الأهواز و منها الى خراسان[1].

ومن الأسباب أيضا ما هو متعلقٌ بالمناخ وتأثيراته المختلفة ، وهذه كان لها أيضا بعض التأثير أحيانا ، حيث تذكر بعض المصادر إشارات الى ذلك في بعض الأوبئة التي حدثت في الفترة المدروسة ، ومنها : وباءٌ ضرب مدينة البصرة و البطائح في سنة 378هـ/988م ، حيث يذكر ابن الأثير في الكامل أنّ سببه هو اشتداد الحر ،حتى امتلأت الشوارع بجثث الموتى جراء ذلك[2] ، و منها أيضا وباء سنة 456هـ/1063م ، و الذي حدث بنهر ملك بالقرب من بغداد ، ثم امتدّ اليها ، بسبب ارتفاع في درجات الحرارة و فساد الهواء ، وزيادة الإنداء[3] -أي الرطوبة- ، والغريب في الأمر أنّ هذا الوباء حدث في شهري تشرين الأول و تشرين الثاني (أي أكتوبر ونوفمبر) ، وهو ما يعني أنّ تلك المظاهر المناخية كانت استثنائيةً وغير معتادة ، ومنها الوباء الذي ضرب بغداد سنة 466هـ/1073م بسبب فساد الهواء ، نتيجة كثرة الموتي التي نتجت عن الغرق الكبير في بغداد ، حيث فاض نهر دجلة فغرق معظم الجانب الشرقي من بغداد بعض الغربي ، وهُدمت الدور فمات بسبب ذلك خلقٌ كثيرٌ[4] .

ومن العوامل المناخية أيضا الجفاف و القحط ، وهي في الحقيقة عوامل غير مباشرة ، حيث أنّ نقص تساقط الامطار أو انعدامها ، يؤثر بشكلٍ مباشرٍ في نقص المحاصيل الزراعية ، وبالتالي حدوث الأوبئة المرتبطة بقلة السلع وارتفاع الأسعار ، ومن ذلك مثلا : وباء سنة 401هـ/1010م ، الذي ضرب خراسان عامة ، وخصوصا مدينة نيسابور ، والذي كان سببه قحطٌ شديدٌ أصاب الإقليم[5] ، و كذلك وباء الموصل في سنة 439هـ/1047م الذي ارتبط حدوثه بقحطٍ شديد ألجأ الناس الى أكل الموتى من الجوع[6] ، ومن الأمثلة الأخرى أيضا القحط الشديد الذي أصاب مصر سنة448هـ/1056م[7] ، وقد كان سببًا مباشرًا في الوباء الذي ضربها في سنتي 448هـ/1056م و449هـ/1057م[8] ، وهو الوباء الذي ذكرناه سابقا و قد شمل عدة أقاليم أخرى غير مصر.

- [1] ابن كثير، *البداية والنهاية*، ج12 ، 109.
- [2] ابن الأثير، *الكامل*، ج7 ، 424.
- [3] ابن الجوزي، *المنتظم*، ج16 ، 88.
- [4] الذهبي، *تاريخ الإسلام*، ج31 ، 24و25.
- [5] ابن فندق، *تاريخ بيهق*، 333.
- [6] الذهبي، *تاريخ الإسلام*، ج29 ،334.
- [7] المصدر السابق، ج30 ، 25.
- [8] ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة*، ج5 ، 59و60.

هذا فيما يخص المجموعة الأولى من أسباب الأوبئة ، وهي الأسباب الطبيعية التي تشمل كل ما له علاقة بالملامح الجغرافية والمناخية ، والحقيقة أنّها لا تعدّ أسبابًا مستقلةً بذاتها ، وإنما في كثير من الأحيان ترتبط بأسبابٍ أخرى فتشكل عوامل مساعدة لها ، وقد ضربنا الأمثلة الموضحة لذلك .

2/ الأسباب السياسية والعسكرية :

وهي في الحقيقة عوامل مساعدة على انتشار الأوبئة والتمهيد لها أحيانا ، أكثر من كونها أسبابًا مباشرةً ، و ذلك لأنّ النزاعات العسكرية والحروب بما تحتويه من أعمال قتالية وحصارٍ للمواقع والحصون والقلاع ، و ما ينتج عن ذلك من نتائج مثل كثرة أعداد القتلى في ميادين القتال المفتوحة ، أو التضييق الاقتصادي في عمليات الحصار، كل هذه الجزئيات تساهم بشكلٍ فعّال في تكوين الأوبئة و تسهيل نموها وانتشارها ، وليس بالضرورة أن يكون انتشار الأوبئة في الطرف المنهزم دائما ، بل قد يفتك الوباء أحيانا بالأطراف المنتصرة أو المحاصِرة (بكسر الصاد) لغيرها ،و قد حشدت لنا المصادر التاريخية الكثير من الأمثلة عن ذلك ومنها : وباءٌ أصاب جيش القائم بأمر الله العبيدي سنة 334هـ/945م ، إثر حملته لضم مصر ، والتي أوقفها العباسيون ، وحدث نتيجة ذلك حروب ومعارك عديدة ، ثم حدث الوباء المذكور ، والذي عجّل بانسحاب القائم الى افريقية[1] ، ومنها وباء سنة 344هـ/955م والذي أصاب مدينة الري نتيجة حصارها من طرف الأمير أبي علي بن محتاج صاحب خراسان ، ولسوء حظ الرجل فقد أصابته العدوى من ذلك الوباء ومات فيه[2] ، و كذلك حدث في الوباء الذي فشا في جيش السلطان مسعود بن محمد السلجوقي (ت547هـ/1152م) ، أثناء حصاره مدينة بغداد سنة 531هـ/ 1136م في خضم صراعه مع الخليفة الراشد العباسي (ت532هـ/1137م)[3] ، ومن الأمثلة الأخرى أيضا الوباء الذي حصل سنة 575هـ/1179م في العديد من مدن بلاد الشام ، فقد ربطت بعض المصادر بينه وبين الغارات التي شنّها الناصر صلاح الدين الأيوبي (ت589هـ/1193م) على أقاليم طبرية و بيروت و غيرها ، فقد مات بعض أصحابه بسبب

---

[1] - الذهبي، *تاريخ الإسلام*، ج25 ، 115. و عفيف الدين اليافعي، *مرآة الجنان و عبرة اليقظان* (بيروت: دار الكتب العلمية ، 1417هـ/1997م)، ج2 ، 238.

[2] - المصدر السابق، ج25 ، 219.

[3] - ابن العديم، *بغية الطلب في تاريخ حلب* (بيروت : دار الفكر العربي للطباعة والنشر و التوزيع ، 1408هـ/1988م)، ج8 ، 3848.

انتشار الجيف و زيادة الحرارة[1] ، مما ساهم في توسع رقعة الوباء .

من خلال هذه الأمثلة يتضح لنا المقصود بتأثير الأحداث السياسية و العسكرية خصوصًا ، في حدوث الأوبئة ، إن من خلال توفير البيئة المناسبة لنموها ، أو بالتسريع من انتشارها و فشوّها ، بسبب ما يترتب عن الحروب من عوامل مساعدة على ذلك كانتشار جثث القتلى ، و الحصار الاقتصادي و التجاري .

3/ الأسباب الاقتصادية :

تتمثل الأسباب الاقتصادية المؤثرة في حدوث الأوبئة ، في ارتفاع الأسعار أو الغلاء ، وقلة المواد الأساسية بسبب عوامل طبيعية مثل القحط والجفاف ، و بالتالي انعدام أو ندرة المحاصيل الزراعية ، بسبب حدوث الإحتكار و المضاربة ، وهذا ما يؤدي الى حدوث المجاعات الشاملة ، والتي تهيئ المناخ المناسب لنشوء الأوبئة و انتشارها ، وهنا نلحظ ملمحا مهما في أسباب وعوامل حدوث الأوبئة ، حيث أنّه قلما نجد سببا منفردا بذاته مستقلا بتأثيره ، بل أنّ أغلب الأسباب و العوامل متداخلة مترابطة ، في صورة تشبه السلسلة التي تحيل كل حلقة أخرى الى الخلقة الموالية حتي نصل الى حدوث الأوبئة ، وهو ما يصعب في كثير من الأحيان تفكيكها أو فصلها عن بعضها البعض ، ومع ذلك فسنضرب أمثلة على بعض مظاهر الغلاء الاقتصادي التي كانت مؤثرة في حدوث وباءاتٍ في المشرق الإسلامي في الفترة المدروسة ومنها :

مجموعة الوباءات التي حدثت في مصر في السنوات من 446هـ/1054م الى449هـ/1057م ، حيث قصر مد النيل ، في سنة 446هـ/1054م ونزع السعر-أي ارتفع- وهو ما سبّب حدوث الوباء[2] ، وكذلك في السنة التي تليها أي سنة 447هـ/1055م ، والتي تزايد فيها الغلاء وكثر الوباء ، وعمّ الموتان بديار مصر[3] .

و في سنة 448هـ/1056م حدث وباءٌ كبيرٌ عمّ أكثر أقاليم المشرق من مصر الى الشام الى العراق[4] ، ولكنّه بدأ بغلاءٍ رهيبٍ في مصر بسبب انقطاع ماء النيل ، ما لبث أن شمل أغلب الأقاليم الأخرى ، ويبدو أنّ هذه الظروف الاقتصادية قد كانت شديدةً جدًا ، مما حدا ببعض المؤرخين الى الربط بينها وبين الشدة المستنصرية التي حدثت بين سنتي457هـ/1064م الى سنة 464هـ/1071م ،

[1] - أبو شامة، *الروضتين*، ج3 ، 38.

[2] - المقريزي، *اتعاظ الحنفا*، ج2 ، 226.

[3] - المصدر السابق، ج2 ، 230.

[4] - ابن الأثير، *الكامل*، ج8 ، 144و145.

حيث اعتبروا هذا الغلاء و الوباء تمهيدًا لتلك الشدّة المشهورة[1] .

ومنها أيضا الوباء الذي حصل في سنة 574هـ/1178م ، فقد سبقه غلاءٌ في أسعار الغذاء[2] ، و كذلك وباء سنة 596هـ/1199م ، الذي حدث بسبب القحط الذي أصاب مصر ، فقد نزل مستوى نهر النيل في هذه السنة من ثلاثة عشر ذراعًا الى ثلاثة أصابع ، فتعذّرت الأقوات و زادت أسعار ما توفر منها ، وهو ما ألجأ الناس الى أكل الموتى و أكل بعضهم بعضا ، و بعدها حدث الوباء الرهيب الذي أفنى كثيرًا من أهلها[3] ، ومنها أيضا وباءٌ في السنة التي بعدها وهي سنة 597هـ/1200م[4] ، وقد كان بنفس السبب و التأثير.

ومن الأمثلة في الأقاليم الأخرى ، ما حدث في العراق سنة 330هـ/941م ، حيث اشتدّ الغلاء ، حتى بيع الخبز أربعة أرطال بقيراطين ، وأكل الناس الميتة اضطرارًا ، وبعدها عمّ الوباء والموت[5] ، وفي سنة 439هـ/1047م ، وقع الوباء بالموصل والجزيرة وبغداد كذلك ، بسبب الغلاء حيث وصل الخبر من الموصل بأنّ أهلها قد أكلوا الميتة من الجوع[6] ، و شملهم الوباء الشديد ، فمات منهم عدد كبير ، و وصل الأمر الى درجة أنّه لم يصلّ الجمعة بها الا نحو أربعمائة[7] ، وكذلك الأمر في سنة 449هـ/1057م 449هـ/1057م حيث زاد الْجَهدْ والجوع بأهل بغداد ، حتّى أكلوا الكلاب والجيَف ، وعظُم الوباء ، فكانوا يحفرون الحفائر ويُلقون فيها الموتى ويَطُمُّونهم[8] .

أما في القرن السادس للهجرة ، الثاني عشر للميلاد (6هـ/12م) ، فقد حدث وباء في سنة 574هـ/1178م ، عمّ البلاد الجزرية والعر اقية والشامية ، و امتدّ حتى بلاد الجبل ، بسبب القحط والجفاف الذي كان شاملاً[9] ، فاشتدّ بسبب ذلك الغلاء ، حيث بيعت الحنطة بدمشق بعشرين دينارًا ، و وصل الشعير بالموصل كل ثلاثة مكاكي بدينار ، فتعذّرت الأقوات و أكل الناس الموتى[10] ، ثم تبع ذلك وباءٌ شاملٌ مثلما كان القحط والغلاء شاملاً ، وقد استمرّ هذا الوضع -أي الغلاء و الوباء – الى سنة 575هـ/1179م[11] .

- [1] ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة*، ج5 ، 59.
- [2] ابن الأثير، *الكامل*، ج9 ، 436.
- [3] الذهبي، *تاريخ الإسلام*، ج42 ، 30.
- [4] ابن الأثير، *الكامل*، ج10 ، 181.
- [5] المصدر السابق، ج7 ، 111.
- [6] السبط، *مرآة الزمان*، ج18 ، 463.
- [7] ابن كثير، *البداية والنهاية*، ج12 ، 56.
- [8] الذهبي، *تاريخ الإسلام*، ج30 ، 28.
- [9] ابن الأثير، *الكامل*، ج9 ، 436.
- [10] ابن الأثير، *الكامل*، ج9 ، 436.
- [11] ابن كثير، *البداية والنهاية*، ج12 ، 300.

ومما يُروى في حجم المعاناة التي أصابت الناس أنّ رجلاً بواسط ذبح بنتا له و أكلها ، وآخر بقربطن صبيٍ وشوى كبده وأكلها[1] .

و في خراسان حدث وباءٌ سنة 401هـ/1010م ، كان سببه الغلاء الشديد و انعدام الأقوات ، حتى أكل الناس بعضهم بعضا ، و كان الواحد فيهم يصيح الخبز... الخبز ، ثم يسقط ميتا[2] ، وكذلك حصل في سنة 492هـ/1098م ، حيث هلكت الزروع بسبب البرَد فتعذّر الغذاء ، ولحق ذلك وباءٌ شديد ، مات منه خلق كثير عجز الناس عن دفنهم لكثرتهم[3] .

و في مكة المكرمة حدثت مجاعةٌ عامةٌ سنة 447هـ/1055م ، كانت سببًا في انتشار الوباء فيها ، وقد أشار بعض المصادر الى أنّ سبب تلك المجاعة مرتبطٌ بما حدث في مصر في نفس السنة ، حيث نقص منسوب نهر النيل فقل الطعام بها ، و هو ما أثّر على كميات الطعام التي كانت تُحمل منها الى مكة المكرمة[4] .

و بهذا يظهر لنا أنّ الأسباب الاقتصادية للأوبئة في المشرق الإسلامي في الفترة المدروسة ، كانت في حقيقة الأمر عوامل مساعدةً ومؤثرةً ، أكثر منها أسبابًا مباشرة ، ومع ذلك فلا يمكن الفصل بين تلك الأسباب وغيرها ، نتيجة التداخل الحاصل بينها .

4/الأسباب الصحية :

و نقصد بها المؤثرات المرضية التي كانت سببًا في انتشار الأوبئة ، حيث أنّ بعض الأوبئة التي رصدناها في بعض أقاليم المشرق الإسلامي في فترة القرون الثلاثة ، قد بدأت في شكل أمراضٍ معديةٍ ، ثم تحوّلت الى أوبئةٍ شاملةٍ ، و لعلّ مردّ ذلك الى تطور تلك الأمراض والجراثيم ، و انتقالها الى أطوارٍ متقدمةٍ من التأثير، وهو أمرٌ صار معروفًا في الطب الحديث ، و هناك عاملٌ آخر في تفشي تلك الأمراض و انتقالها الى أوبئةٍ واسعة المجال والتأثير، وهو انتقال العدوى ، سواء من البشر ، أو بعض الحشرات والحيوانات ، أو عبر الهواء والرياح ، وسنضرب أمثلة على ذلك ومنها :

وباءٌ وقع سنة 300هـ/912م ببغداد و البادية ، وقد وُصف بأنّه كان وباءً عظيمًا صاحبه موتٌ جارف[5] ، و قد أشارت بعض المصادر الى أنّ الذئاب والكلاب قد أصابها مرض الكلب ، و كانت تطلب الناس والدواب والبهائم، فإذا عضّت إنسانًا أهلكته[6] ، ولعلّ انتقال العدوى

- [1] أبو شامة، *الروضتين*، ج3 ، 53.
- [2] ابن الأثير، *الكامل*، ج7 ، 573.
- [3] المصدر السابق، ج8 ، 431.
- [4] الفاسي، *شفاء الغرام*، ج2 ، 325و326.
- [5] السبط، *مرآة الزمان*، ج16 ، 405.
- [6] ابن الجوزي، *المنتظم*، ج13 ، 133.

العدوى من هذه الحيوانات الى البشر، هو ما فاقم تأثير هذا الوباء.

ومنها ما حدث في سنة 301هـ/913م ، حيث انتشر الوباء في بغداد ، و قد كان السبب المباشر فيه مرضان أحدهما يُسمى الحنين[1] ، والثاني سموه المَاسَرَا[2] ، وقد كان المرض الثاني هو الأشد فتكًا ، حيث وصفته بعض المصادر بأنّه طاعونٌ قتّالٌ[3] .

ومن الأمثلة الأخرى أيضا الوباء الذي ضرب الأهواز و بغداد و واسط والبصرة وغيرها في سنة 344هـ/955م ، فقد اقترن بعلّةٍ مركّبةٍ من الدّم والصّفراء بدأت في أصبهان ، فكانت تُهلك أهل البيت الواحد كلهم، ثم زحف الوباء الى الأقاليم المذكورة فكاد يفنيها ، حيث كانت أعداد الموتى في اليوم الواحد تقارب الألف نفس[4] .

وكذلك الحال في سنة 346هـ/957م ، حيث انتشر ببغداد وباءٌ صاحبته أعراضٌ و أمراضٌ مختلفة ، مثل أورام الحَلْق والمَاشَرَا ،و كثُر الموت في البلاد[5] .

ومنها الوباء الذي ضرب العراق و بعض أقاليم الجزيرة الفراتية في سنة 498هـ/1104م ، وقد بدأ في شكل مرض الجدري الذي مات منه عددٌ كبيرٌ من الصبيان في بغداد و غيرها ، ولكنّه ما لبث أن صار وباءً فتاكًا انتشر فأهلك الكثير من الناس[6] .

و كذلك الحال بالنسبة الى وباء سنتي 574هـ/1178م و 575هـ/1179م ، و الذي عمّ العراق والجزيرة و الشام و مصر وغيرها ، فقد كان سببه الأولي الغلاء الشديد الذي ساد في تلك الأقاليم[7] ، ثم انتشر الوباء وقد كان مظهره الرئيسي هو مرض السّرسام ، الذي فتك بالناس شرقًا وغربًا ، ويبدو أنّ هذا المرض كان فتّاكًا ، الى الدرجة التي لم يستطع الناس معها دفن موتاهم ، لكثرتهم و سرعة التحاق الآخرين بهم[8] .

ومن الملامح المهمة في هذا العنصر أيضا ، ما يسببه تغير النمط الغذائي للناس من الشكل الطبيعي الى شكل جديد ، من تأثير في انتشار بعض الأوبئة و تفشيها ، وقد ذكرنا العديد من الأمثلة فيما سبق من صفحات هذه الدراسة ، عن لجوء الناس في ظروف اقتصادية صعبة ، الى أكل لحوم الحيوانات والبشر أحياءً و

- [1] الحنين : لم أعثر على تعريف له .
- [2] المَاسَرَا أو المَاشَرَا : هو ورم حاد ينتج عن دم صفراوي يعم الوجه و ربما غطى العينين . المناوي، *التوقيف*، 294.
- [3] ابن جرير الطبري، *تاريخ الرسل والملوك* (بيروت: دار التراث ، 1387هـ)، ج10 ، 147.
- [4] ابن الجوزي، *المنتظم*، ج14 ، 98.
- [5] السبط، *مرآة الزمان*، ج17 ، 307.
- [6] الذهبي، *تاريخ الاسلام*، ج34 ، 69.
- [7] ابن الأثير، *الكامل*، ج9 ، 436.
- [8] ابن الأثير، *الكامل*، ج9 ، 436.

أمواتًا ، وهذا أمرٌ غير طبيعي و غير معتاد ، و من شأنه أن يساهم في نشوء أمراضٍ جديدةٍ و أوبئةٍ مستحدثةٍ .

و في نهاية هذا العنصر ، رأينا أنّه من المفيد الإشارة الى ملحوظةٍ مهمةٍ جدًا في ذات السياق ، وهي تخص ما كانت تورده بعض كتب الجغرافيا والبلدان عن خصائص بعض البلدان والأقاليم ، سواءً من الناحية الطبيعية أو البشرية أو المناخية ، حيث أنّ بعضها كان يشير الى بعض الخصائص المَرَضية -إن صح التعبير- التي ترتبط ببعض المدن والأقاليم ، والتي كانت تجعلها بؤرًا لأنواع من الأمراض نتيجة مميزاتٍ طبيعيةٍ في الغالب ، من ذلك مثلا :

بعض أقاليم بلاد فارس التي تشتهر بمميزات معينة تجعلها عرضة للأوبئة ، مثل اصطخر التي تشتهر بفساد هوائها[1] ، و كذلك مدينتا دارابجد و تَوّج[2] .

ومنها أيضا إقليم الأهواز أو خوزستان حيث تنتشر به الكثير من السّبخات و المستنقعات ، التي تتأثر بارتفاع درجات الحرارة ، فينشأ عن ذلك فساد في الهواء[3] ، وهو ما يساهم في نشر الأوبئة وتفشّيها .

و مثل ذلك ما يذكره بعض البلدانيين عن مصر ، ومنهم اليعقوبي (ت بعد 292هـ/904م) الذي يرى ((...أنّ موقعها بين بحرٍ رطبٍ عفنٍ كثير البخارات الرديئة...و جبلٍ يابسٍ صلدٍ كثير الملوحة...))[4] ، يجعلها عرضةً لفساد الهواء و الغذاء ، مما يساعد في نشوء الأوبئة فيها بشكلٍ كبيرٍ.

و كذلك الأمر بالنسبة الى بعض الأقاليم التي اعتبرت منبعًا ومصدرًا أساسيًا للكثير من الأمراض و الأوبئة ، حيث يذكر صاحب (تاريخ بيهق) الكثير من المدن في المشرق الإسلامي التي ارتبطت بها أمراضٌ و عللٌ مختلفةٌ ، وصارت عنوانًا لها ، فيقول أنّه في طبرستان الوباء والأمراض المعدية .

و ماء طخارستان يصيب الفم بالورم ، وفي خوارزم الحر والبرد المفرطان ، والقولنج والجوع الكلبي ، أما في كرمان فتظهر علل الكبد[5] ، و منها أيضا بلاد تركستان التي تقع في في آخر الشرق بعد بلاد ما وراء النهر ، التي كانت

- [1] أبو عبد الله الحميري، *الروض المعطار في خبر الأقطار* (بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة ، 1980)، 43.

- [2] أبو إسحاق الاصطخري، *المسالك والممالك* (بيروت: دار صادر، 2004م)، 137.

- [3] ياقوت الحموي، *معجم البلدان* (بيروت: دار صادر ، 1995م)، ج1 ، 286.

- [4] أحمد بن إسحاق اليعقوبي، *البلدان* (بيروت: دار الكتب العلمية، 1422هـ)، 19.

- [5] ابن فندق، *تاريخ بيهق*، 128و129.

مصدرًا للكثير من الأوبئة الوافدة الى المشرق الإسلامي عبر التاريخ ، و منها وباء سنة 449هـ/1057م[1] .

و في نهاية هذا المبحث لابد من إعادة التذكير بأنّ المصادر التاريخية التي اعتمدنا عليها ، لم تنصّ في كثيرٍ منها على أسباب حدوث الأوبئة وعوامل انتشارها ، وإنما تشير في بعض الأحيان ال ذلك إشاراتٍ غير واضحةٍ ، ومع ذلك فقد حاولنا تحليل تلك المادة العلمية و الإستنتاج منها ، للوصول الى تحديدٍ أدقّ للأسباب والمؤثرات في أوبئة المشرق الإسلامي في فترة القرون الثلاثة ، مع التأكيد على التداخل والترابط الحاصل بين مجموع تلك الأسباب .

الخاتمة :

استطعنا من خلال هذه الدراسة المركّزة حول الأوبئة في المشرق الإسلامي في القرون (4و5و6هـ/10و11و12م) ، الوصول الى جملة من النتائج ومنها :

أولا/ أنّ القرون الثلاثة المذكورة ، شكّلت معيارًا مُهمًا لفهم ظاهرة الأوبئة في المشرق الإسلامي ،و أسبابها وتأثيراتها المختلفة ، حيث أنّ الأعداد التي أحصيناها كافيةٌ الى الحد الذي يمكن من خلالها ، تعميم النتائج المتوصل اليها .

و ثانيا/ تنوع الأوبئة في المشرق الإسلامي في الفترة المذكورة ، وتعدد أنماطها ، و قد توصلنا الى تصنيفها الى ثلاثة أنواع رئيسية ، حيث وُجد منها ما هو خاصٌ بالمدن ، و ما هو خاصٌ بالأقاليم ، وأخيرا ما كان شاملاً عامًا لأقاليم شتى أو المشرق الإسلامي برمته .

و ثالثا/ تميّز القرن الخامس للهجرة ، الحادي عشر للميلاد (5هـ/11م) ، بأنّه أكثر القرون من حيث أعداد الأوبئة ، وذلك لاعتباراتٍ عديدة ، منها ما هو طبيعيٌ جغرافيٌ ، ومنها ما هو بشريٌ ، ومنها ما هو اقتصاديٌ بحت ، يتعلق بالأسواق والسلع والأسعار.

و رابعا/ أثبتت الدراسة الإحصائية التي قمنا بها ، أنّ الإقليم المصري قد كان أكثر الأقاليم تضررًا من الأوبئة في الفترة المدروسة ، وقد حاولنا تفسير أسباب ذلك ، بما أتاحته لنا المصادر المعتمدة ، فوجدناها متعددةً متنوعةً ، تبدأ بطبيعة موقع البلاد و توسطها بين عدة أقاليم ، مما يجعلها معبرًا مُهمًا للبشر والسلع وكذلك الأمراض و العدوى ، ويُضاف الى ذلك أسبابٌ أخرى بشريةٌ و اقتصاديةٌ .

و خامسا/ تنوع أسباب الأوبئة في المشرق الإسلامي و تعدّدها ، وقد قسمناها بحسب المصادر المعتمدة ، الى أنواع أربعة : سياسيةٍ

[1] - السبط، *مرآة الزمان*، ج19 ، 14.

وعسكريةٍ ، و طبيعيةٍ جغرافيةٍ ، و اقتصاديةٍ اجتماعيةٍ ، وصحيةٍ مرضيةٍ ، وقد لاحظنا ملمحًا مهمًا في ذلك ، وهو الترابط و التداخل الشديد بين تلك الأسباب و العوامل ، وتأثيرها في بعضها البعض .

و سادسا/ وهو يخص تأثير الأوبئة على مجتمع المشرق الإسلامي ، وهذا العنصر وإن لم يكن في صميم عملنا ، الا أنّنا تلمسنا بعض مظاهره ، و التي تنوعت من كثرة أعداد الموتى ، الى التأثيرات الاقتصادية على السلع و الأسواق ، ومن ثمّ الأثر الاجتماعي التي بدا من خلال التّضامن الذي كان يظهر على المجتمعات التي تأثرت بالأوبئة و نتائجها .

و سابعا/ الاهتمام الشديد الذي أبدته المصادر التاريخية المشرقية بظاهرة الأوبئة ، وذلك من خلال تتبع أخبارها و التصنيف فيها ، و محاولة الولوج الى تفسير أسبابها و تبيين تداعياتها ، والاستفادة من التجارب الحاصلة في الماضي ، في فهم عوامل و مسببات الأوبئة وطرق معالجتها والتقليل من أخطارها .

و أخيرا فإننا نوصي بهذا النوع من الدراسات و الأبحاث ، بل و اعتماد تخصصات تركز على الجانب الصحي والاجتماعي في تاريخ المشرق والمغرب ، لأن هذا النوع من الدراسات أدعى لفهم بعض أحداث الحاضر ، ومحاولة أخذ العبر منها ، والتأسيس لمدرسة تاريخيةٍ إجتماعيةٍ عربيةٍ ذات خصوصيةٍ في المصادر والأهداف وطرق الدّرس والمعالجة.

الطاعون وباء من خلال بعض المصادر الإسلامية

د. زهرة الثابت

كلية الآداب والعلوم الإنسانية /القيروان/ تونس

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف عند ظاهرة الطاعون من خلال كتابي "ما رواه الواعون في أخبار الطاعون" لجلال الدين السيوطي و"ما يفعله الأطباء والداعون لدفع شر الطاعون" لمرعي الكرمي، وكُنه حد الطاعون وأسباب هذه الجائحة وطرائق تصدي المسلم قديما لها وتبين كيف استفاد الإنسان المعاصر وفي زمن الكورونا من تجارب المسلمين قديما في مواجهة الطاعون من أجل القدرة على تقصي أسباب جائحة كورونا ومواجهتها. وقد استضاءت الدراسة بالمنهجين الاستقرائي والتأويلي.

Absract :

This study aims to consider the plague phenomenon through two books “Ma ra-wahou alwa3oun fi akhabar atta3oun” for Jalel Eddine Assouyouti and “Ma yaf3alouhou al-atibaou wa adda3oun li daf3i charri atta3oun” for Mar3i Al-karmi, and understand the concept of the plague, its causes and the muslim’s ways to face it. This study aims also to distinguish how the modern man upon corona time benefited from the old Muslim’s experiences to face the plague in order to get to know the causes of corona pandemic and how to subdue it. And this study is made through the inductive and hermeneutical method.

مقدمة البحث:

شكلت الطواعين والأوبئة خطرا كبيرا هدد حياة الإنسان منذ أقدم العصور وقد كانت من أشد الجوائح الطبيعية وأكثرها فتكا بالبشرية إذ حصدت أرواح الناس حصدا ولعل أشدها وطأة تلك الطواعين التي ظهرت في آسيا الوسطى سنة 746هـ واكتسحت أوروبا ووصلت إلى شمال إفريقيا سنة 749هـ. ولكن الطواعين جائحة عرفتها الأمم الغابرة فعاشها بنو إسرائيل كما عاشها العرب المسلمون أيضا في عهد الرسول محمد (ص) وعهد عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة. وقد احتل الطاعون مكانة مرموقة في نصوص التراث العربي الإسلامي إذ حفلت بالحديث عنه كتب التاريخ والفقه والفلسفة فضلا عن كتب الطب. فالمتدبر في مدونة التراث العربي الإسلامي يلحظ أن الحديث عن الطاعون لم يكن بدعة بل هو المبحث الذي راجت به مصنفات الأدب والتاريخ إذ

أفرد "**كثير من الكتاب المسلمين مصنفات ورسائل خاصة بالطاعون وأخباره في الإسلام فقد أغلبها في حين لم يجد بعضها الآخر حظه من النشر فقبع مخطوطا في انتظار الكشف عنه**"[1].

ومن أشهر الفت التي ألفت في الغرض نذكر كتاب الطواعين لابن أبي الدنيا(ت.281ه)، ورسالة ابن الجزار (ت395ه) "نعت الأسباب المولدة للوباء" ورسالة أبي عيسى الجرجاني (ت.401ه) "رسالة في الوباء". ولم يزدد الاهتمام بهذا المبحث إلا عقب الطاعون الجارف الذي ضرب الشرق الأوسط وشمال إفريقيا ثم امتد إلى أوروبا بين عامي 748ه و753ه. حين صنف ابن أبي حجلة (ت.766ه) كتابه "دفع النقمة في الصلاة على نبي الرحمة" لما ظهر الطاعون بمصر سنة 762ه. ثم أعقب ذلك كتابه "الطب المسنون في دفع الطاعون". أما في الأندلس فقد ظهرت رسالة "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" لأحمد بن خاتمة الأنصاري (770ه) وهي رسالة تبحث في مسببات هذا المرض.

كما شغف ابن حجر العسقلاني (ت.773ه) بهذا المبحث فألف مصنفه الموسوم ب" بذل الماعون في فضل الطاعون" الذي اختصره جلال الدين السيوطي في تصنيفه "ما رواه الواعون في أخبار الطاعون". ولم تخل كتب المؤرخين من الاهتمام بهذه الظاهرة التي اجتاحت العصر الإسلامي وخصوصا منه الأموي كتاريخ دمشق لابن عساكر(ت.571ه) والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي(ت.597ه) والكامل في التاريخ لابن كثير (ت.774ه). ونلفي اهتماما أيضا بهذه الظاهرة الوبائية في الطبقات الكبرى لابن سعد والتاريخ الكبير للإمام البخاري المسمى التاريخ الأوسط ومعجم الطبراني وشرح النووي على صحيح مسلم والأذكار للإمام النووي (ت.676ه). وعرجت كتب الأدب أيضا على الطاعون فتطرق إليه الجاحظ في البيان والتبيين وفي الحيوان وتحدث عنه ابن عبد ربه الأندلسي(ت.328ه) في "العقد الفريد" وابن إسحاق القيرواني (ت.453ه) في "زهر الآداب وثمر الألباب والراغب الأصفهاني(ت.502ه) في "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء". وأولت كتب الطب أيضا ولعا كبيرا بهذه الجائحة حتى ظهر كتاب الحازي في الطب لأبي بكر الرازي(ت.313ه) وكتاب القانون لابن سينا (ت.428ه).

ونروم من خلال هذه الورقة العلمية نروم رصد ظاهرة الطاعون في بعض المصادر الإسلامية عدتنا في ذلك كتاب "ما رواه

[1] أحمد العدوي، الطاعون في العصر الأموي: صفحات مجهولة في تاريخ الخلافة الأموية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، د.ت،

الواعون في أخبار الطاعون" لجلال الدين السيوطي وكتاب "ما يفعله الأطباء والداعون بدفع شر الطاعون" لمرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي. ونهفو من خلال هذه المدونة إلى التمييز بين مصطلحي الطاعون والوباء والتعرف إلى أسباب الطاعون وطرائق معالجته. متخذين من الاستقراء والتأويل منهجا به نهتدي في قراءة هذه النصوص. فما حد الطاعون؟ ما أسبابه؟ وماهي طرائق درءه؟

❶- مدخل اصطلاحي: في مفهومي الطاعون / الوباء

جاء في لسان العرب أن الطاعون اسم مشتق من طعن يطعُن ويطعَن وهو يدل على معنى الضرب بالرمح أو الافتراء باللسان[1]. وهو طمع طواعين ومعناه " المرض العام والوباء الذي يفسد له الهواء فتفسد به الأمزجة والأبدان"[2]. ومعنى هذا أن الأواصر بين هذين المفهومين قريبة ودقيقة إذ الوباء هو "كل مرض عام"[3] ويطلق على الطاعون فكل طاعون هو وباء وليس كل وباء طاعونا. والوباء يشير في الأصل إلى مرض البشر إذ هو يعود إلى الجذر اليوناني (épidimic) الذي يتكون من لفظ (Epi) أي "على أو فوق" و(démos) أي الشعب.

وعرف الأطباء الطاعون فيما يذكر النووي في "تهذيب الأسماء واللغات" أنه "بثر وورم مؤلف جدا يخرج مع لهب ويسود ما حواليه أو يخضر أو يحمر حمرة بنفسجية كدرة ويحصل معه خفقان القلب والقيء ويخرج في المراق والآباط غالبا والأيدي والأصابع وسائر الجسد"[4]. ويعرف ابن سينا الطاعون بأنه "مادة سمية تحدث ورما قتالا يحدث في المواضع الرخوة والتغابن من البدن، وأغلب ما يكون تحت الإبط، وخلف الأذن"[5]. أما الطب الحديث فيعرف الطاعون بأنه " مرض معد يتسبب عن بكتيريا يسمى ب "برسينيا بستس" (yersinia pestis) والذي يصيبه أصلا هي الحيوانات القارضة أهمها الفئران وتنتقل منها بواسطة البراغيث إلى الإنسان".

ويقسم الطب الحديث الطاعون إلى ثلاثة أنواع[6]:

-الطاعون الدملي أو الغددي (bubonic plague) وفي هذا النوع من الطاعون ينتقل ميكروب الطاعون من موضع عض البرغوث إلى الغدد السطحية كالموجودة في خن الورك

---

[1]-انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة (طعن).

[2]-المرجع نفسه.

[3]-المرجع نفسه.

[4]-النووي، تهذيب الأسماء واللغات، دار الفكر، بيروت، ط.1، 1996م، ج3، ص.177.

[5]-ابن سينا، القانون في الطب، الجزء 3، ص.164.

[6]-انظر الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، مج 1، ص.2136.

أو تحت الإبط أو في العنق. وتتضخم هذه الغدد وتتورم وتمتلئ صديدا، يصاب المريض معها بالحمى والصداع والغثيان والقيء، وهذا النوع من الطاعون أكثر أنواعه انتشارا، وذكرت دائرة المعارف البريطانية[1] أنه يكون ثلاثة أرباع صور الإصابة بالطاعون.

-الطاعون الرئوي(pneumonic plague) وفيه تتسرب الميكروبات إلى الرئتين، وهذا النوع أشد فتكا من النوع الأول.

-الطاعون التسمي(septicemic plague) وفي هذا النوع ينتقل "يرسينيا" من موضع عض البرغوث إلى الدم، ويتسمم الدم، ويشتد هذا التسمم إلى درجة أن المريض يموت قبل ظهور الغدد أو علامات أخرى.

وعليه يبدو الطاعون إذن ظاهرة وبائية خطيرة قد تفتك بحياة الإنسان لذلك سعى المرء منذ القديم إلى درء هذا الخطر الوبائي بل إن المتدبر في المدونة التي نعتمد يلحظ أن المسلمين قد تنبهوا إلى هذا الوباء وآمنوا بوجوده منذ أن قال الرسول "فناء أمتي بالطعن والطاعون" لذلك انبروا يبحثون في أسبابه وقاية لأنفسهم منه. فما أسباب الطاعون؟

❷-أسباب الطاعون

يلحظ المتدبر للمدونة التي اعتمدنا أن الطاعون شكل الجائحة الأشد خطر على المسلمين منذ القديم لذلك انبروا باحثين عن علل هذه الظاهرة الوبائية التي أودت بحياة البشرية فلقي الآلاف حتفهم واستقرت أبحاث العرب المسلمين في القرنين العاشر والحادي عشر على حقيقة مفادها أن هذا الوباء إنما هو عقاب إلهي أو هو وخز من الجن.

•-الطاعون عقاب إلهي

استقر رأي العرب قديما على أن الطاعون عقاب إلهي جراء الكفر بالإله ويستندون في ذلك إلى قصة يذكرها السيوطي في مؤلفه نصها كالتالي " **أخرج عبد بن حميد وأبي جرير وابن أبي حاتم في تفاسيرهم عن سعيد بن جبير قال: أمر موسى قومه من بني إسرائيل بعد ما جاء قوم فرعون الآيات الخمس: الطوفان وما ذكر الله في كتاب الله، فلم يؤمنوا أو لم يرسلوا معه بني إسرائيل، فقال: ليذبح كل رجل منكم كبشا ثم ليخضب كفه في دمه، ثم ليضرب به على بابه، فقال القبط لبني إسرائيل: لم تجعلون هذا الدم على أبوابكم؟ فقالوا: إن الله مرسل عليكم عذابا يقتلكم وتهلكون، فأصبحوا وقد طعن من قوم فرعون سبعون ألفا، فأمسوا وهم لا يتدافنون. فقال فرعون عند ذلك لموسى:**

[1]- انظر:

-Encyclopedia Encarta, article « plague ».

ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كففت عنا الرجز، وهو الطاعون لنؤمنّ لك، ولنرسلنّ معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم"[1].

وفحوى هذا النص الذي يمتح في معانيه القصية من النص التوراتي قصة فرعون وأتباعه مع النبي موسى حين أتاهم محاولا هدايتهم وبرهن عن صدق رسالته بالآيات الخمس التي ألمع إليها القرآن في سورة الأعراف[2]، لكن موسى عبثا كان يحاول إقناع قومه بأصالة رسالته وبالوحي الذي أوتيه لأن فرعون كفر برسالة موسى وأمعن في طغيانه فكان الغضب الإلهي إذ حاول موسى أن يمتص غضب المقدس بالذبيحة التي قدمت لامتصاص عنف المقدس فكان الدم السائل العجيب الذي سيقي بني إسرائيل من الغضب الإلهي، خصوصا وأن العقاب كان طاعونا فتك بعدد عظيم من بني إسرائيل فكانت بذلك الذبيحة وسيلة لتحقيق السلم والمصالحة بين الإله وبني إسرائيل. وكانت الآلية الناجعة لاحتواء العنف وامتصاصه والسيطرة عليه. فاستحال الطاعون في هذه القصة النبوية وجها من وجوه عنف المقدس وأمارة دالة على مروق بني إسرائيل عن الإله فكان هذا الطاعون القصاص الإلهي الأنسب.

كما تنبه العرب أيضا إلى أن الطاعون إنما كان جراء تفشي الفاحشة يقول الكرمي في هذا الصدد: " **قال أهل الشرع: والحق أن سبب الطاعون هو ظهور الفواحش والمعاصي بل كل مصيبة حدثت فهي من كسب آدم كما قال تعالى: "وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير"(الشورى)**"[3]. وهم يعولون في ذلك على جملة من الأحاديث المروية عن الرسول (ص)منها حديث "لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون" وحديث "إذا بخس المكيال حبس القطر وإذا كثر الزنا كثر القتل ووقع الطاعون وإذا كثر الكذب كثر الهرج" وحديث "ما من قوم يظهر فيهم الزنا إلا أخذوا بالفناء"[4]. كما أنهم يعولون على قصص الفاحشة التي تفشت في بني إسرائيل لسيما قصة زناهم بالموآبيات التي أحالت عليها التوراة في سفر العدد[5]، وعقاب الرب لهم بالطاعون.

[1]-جلال الدين السيوطي، ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، ص.138.

[2]-انظر الأعراف 7: 133

[3]-انظر الكرمي، ما يفعله الأطباء والداعون بدفع شر الطاعون، ص.39.

[4]-المصدر نفسه، صص.40/39.

[5]-انظر العدد 25: 1-9.

فالطاعون على هذا النحو إذن كان وجها من وجوه عنف المقدس وآلية من آليات التدخل الإلهي لأن الزنا يؤسس للمحظور وهو صورة من صور الفوضى الجنسية فكان لابد من الحد من هذه الفوضى ومن فوضى الحواس للحث على الطهرية وتنظيم المتع الجنسية. لقد كان الطاعون الحل الأنسب في عرف المقدس لأنه بموجبه سيشيد الله صرح الجنسانية المنظم.

•-<u>الطاعون وخز من الجن</u>

اعتبر المسلمون قديما أن الطاعون وخز من الجن مستندين في ذلك إلى حديث للرسول (ص) جاء فيه قوله:" فناء أمتي بالطعن والطاعون، قيل يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال: وخز أعدائكم من الجن وفي كل شهادة"[1]. وجلي ههنا أن الخوف من الطاعون استدعى الخرافة وذاك ما يكشف أن الإنسان منذ القديم كان يبطن الخوف والقلق لذلك علق وجود الطاعون بوجود الجن وبكائنات ماورائية تهدد أمنه وسلامته. وهذا يشي أن المرء ليس سيد نفسه وسيد الوجود لأنه ثمة قوى غير مرئية تفوق قواه الخاصة وتتحكم في قدره ومصيره في هذا الكون وعلى وجه البسيطة. باختصار لقد أصبحت الخرافة متحكمة بالإنسان لأنها **"المعبر عن الرغبة الإنسانية الملحة في تغيير وجود الإنسان الداخلي"**[2]

قصارى القول إذن لقد سعى العرب المسلمون قديما الى البحث في أسباب الطاعون فاعتبرها البعض عقابا إلهيا فيما عدها البعض الآخر وخزا من الجن. وإن التفكير في أسباب الجائحة يشف في الحقيقة عن هشاشة حياة الإنسان وعن تخوفه المطرد من الموت لأنه أعدل الأشياء قسمة بين البشر وتوجس خيفة من الكائنات الماورائية مما يبرهن عن ضعفه وقلة حيلته إزاء الكوارث الطبيعية والأوبئة لذلك لاذ بالإله حتى يحميه وتشبث بسحر الديني وبقدرته على تأمين حياته. لكن لما أعوزته الحيلة فكر في طرائق بديلة لمواجهة هذا الوباء وباء الطاعون.

❸-<u>في طرائق التصدي للطاعون</u>:

يبدو أن حدس العرب المسلمين قديما بعواقب الطاعون كان قويا حتى أنهم سارعوا إلى استنباط طرق عديدة للوقاية منه لأنهم أيقنوا أن هذا الوباء موت وهو حرب كونية يبحث فيها المرء عن سر بقاءه وديمومته لأن الإنسان عاجز وقليل الحيلة أمام الموت فعلقوا آمالهم على الحجر الصحي والأذكار

[1]-أخرجه أحمد في المسند 4/ ص.395.

[2]-نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير الشعبي، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.، ص.66.

والأدعية وأسماء الله الحسنى والتختّم بالياقوت وتناول بعض الأغذية.

• الحجر الصحي: تنبه المسلمون إلى أن لزوم المكان هو الحل الأنسب لمجابهة خطر الطاعون وقد عولوا في ذلك على حديث للرسول (ص) في غزوة تبوك جاء فيه قوله:" **إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها وإذا كنتم بغيرها فلا تقدموا عليها**"[1]. وينبه هذا الحديث إلى مغبة الفرار من الطاعون أو القدوم إليه لأن المرء قد يلقى حتفه في الحالتين. خصوصا وأن القرآن الكريم قد أشار إلى مثل هذا الأمر، حين قال: **"لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا"**[2]، بل لقد كان للعرب فيما حصل لبعض الصحابة أمثال علي بن زيد بن جدعان وعبد العزيز بن مروان جراء فرارهما من الطاعون أسوة حسنة. إذ لم يورثهما الهروب من هذا الوباء إلا الموت وإذن فلا سبيل للخلاص إلا بلزوم المكان وقطع التواصل مع الآخر وإذن فلا وجود للعرب إلا " **في قلب العزلة وبين جدران صماء غدا الاحتماء بها هو السبيل الوحيد إلى البقاء**"[3]، لأن الطاعون خطير .

وإن التنبه إلى قيمة العزلة أو الحجر الصحي إنما ينبئ أن المسلم العربي كان يقظا وحذرا ومتأهبا لمجابهة هذه الجائحة التي قد تهدد حياته. **"فما عاد ممكنا للإنسان أن يوجد خارج ذاته ليفهم العالم حسبه فقط انزواؤه في غياهب هذه الذات لا ليفهمها فيجعل منها عالمه وإنما ليقيها ويحفظ بقائها"**.[4] ويفهم من هذا إذن أن الطاعون كان خطبا جليلا ذكر المسلم بحقيقة الموت الذي أصبح يقينا وذاك أمر مؤلم لأنه لحظة احتضار أي لحظة **"تحمل الألم في الحد الفاصل بين الحياة والموت"**[5]. هكذا إذا تكشف العزلة أن الآخر أضحى جحيما لأنه مهدد لكيان الأنا ومعكر لصفو الحياة إذ هو منبئ بالموت لأنه قد يكون حاملا للعدوى وعليه فلا خلاص إلا بالانفراد والعزلة للسيطرة على الوباء لأن سلامة المسلم إنما هي رهين هذه المسافة الفاصلة التي يضعها الفرد بينه وبين الآخر حتى يضمن استمراره بالحياة فالعالم في ظل الطاعون عالم مأزوم وموبوء.

• الاعتقاد في فاعلية الأدعية والأذكار وأسماء الله الحسنى: مثل الطاعون هزة وجودية زعزعت كيان المسلم من الداخل وخلقت لديه حالة من الشعور بالخوف والذعر،

[1]-انظر السيوطي، ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، ص.163.

[2]-انظر الأحزاب: 16.

[3]-حمادي أنوار، بعيدا عني: كورونا ومشكلة العيش المشترك، مركز إنماء للبحوث والدراسات، ص.3.

[4]-المرجع نفسه، ص.4.

[5]-المرجع نفسه، ص.5.

لذلك انبرى باحثا عما يمكن أن يرجع السكينة والطمأنينة إلى نفسه. فتولدت بذلك الحاجة إلى الطقوس الدينية عساها تعيد للمؤمن المسلم توازنه السيكولوجي وتضج حياته بمعنى ما، لأن الإنسان في زمن الطاعون ما عاد قادرا على تحمل واقعه. فالديني على هذا النحو صار مصدر إشباع وإنعاش.

فمن أجل وضع حد للطاعون اعتقد المسلم قديما في فاعلية الأذكار والأدعية لأنها طاردة للأرواح الخبيثة إذ يذكر الكرمي حديثا لابن القيم جاء فيه **"إن الأرواح الشيطانية تتمكن من فعلها بالإنسان ما لم يدفعها دافع قوي من الذكر والدعاء والابتهال والتضرع والصدقة وقراءة القرآن"**[1]. كما اعتقد أيضا في فاعلية سورة البقرة وفي آية الكرسي منها عملا بقول الرسول (ص.):**"إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة"**[2].

واعتقد أيضا في قدرة سور المعوذتين والإخلاص على طرد الشياطين. وآمن إيمانا جازما بجدوى التسبيح إذ هو أحسن ما يتداوى به عند الإصابة بالطاعون حسب ما يذكر الشافعي في حلية الأولياء[3]، ثم إن الذكر **"يدفع العقوبة والعذاب"**[4] واستئناسا بالآية القرآنية التي نصها **"فلو لا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون"**[5].

كما آمن المسلم أيضا بفاعلية الأسماء الحسنى في التحصن من خطورة الوباء من ذلك أن تكرار صفة المؤمن مائة وست وثلاثين(136) مرة وتكرار صفة الحكيم ثمان وثمانين(88) مرة وصفة الحفيظ ثمانمائة وتسعين(890) مرة وصفة الرقيب ثلاثمائة(300) مرة قد تكون ناجعة لدرء خطر هذه الجائحة.

باختصار لقد كانت هذه الطرائق كلها رموزا دينية لعودة الديني ولحضور المقدس بقوة بين البشر. فهي وسائط تنهض بدور معنوي يربط الإنسان بالله ويبث في روحه الطمأنينة والسلام ويستمد منه المسلم القوة والثبات. لقد أصبحت هذه الرموز الدينية ملهمة للمسلم تبعث فيه الأمل وتربطه بالإله ليستمد قوته وثباته وصبره على هذا الوباء وذلك من شأنه أن يخفف عنه حالة الهلع فيسلم المرء وعلى هذا النحو أمره إلى الله مؤمنا مشيئته وقدره الذي لا مفر منه.

- -<u>التختم بالياقوت</u>: ولع العرب منذ القديم شأنهم شأن غيرهم من الأمم والشعوب كالمصريين والآشوريين واليونانيين بالحلي

[1]-الكرمي، ما يفعله الأطباء والداعون بدفع شر الطاعون، ص.45.

[2]-المرجع نفسه، ص. 46.

[3]-الشافعي، حلية الأولياء، 9، ص.136.

[4]-الكرمي، ما يفعله الأطباء، ص.47.

[5]-الصافات 37: 143-144.

والجواهر "**حتى أنهم لم يتوانوا في إلباس أصنامهم وحتى إبلهم القلائد والمجوهرات**"[1]، واستمر شغف العرب بالمجوهرات والذهب والفضة وحتى الأحجار الكريمة إلى حين مجيء الإسلام، لأنها كانت من أهم وسائل تجميل الجسد وحسن تدبيره. غير أن اهتمام العرب بالأحجار الكريمة تجاوز الزينة والتبرج ليستحيل وسيلة من وسائل وقاية الجسد. فكان الياقوت من أبرز الأحجار التي وظفها المرء في هذا الغرض لاعتقاد جازم في سطوتها وقدرتها على استرداد العافية والصحة والسلامة إلى الإنسان.

ذلك أن التختم بالياقوت بات في نظر المسلم المنقذ السحري من خطر الوباء إذ الياقوت: "**يعمل بطاقته المشعة على المستوى العضوي وعلى المستوى الشعوري والنفسي .. إنه يزيل الخوف والتردد النفسي ويعيد التماسك النفسي ويقوي الرغبة في الحياة**"[2]، إضافة إلى أنه دافع للطاعون مثلما استقر ذلك في المتخيل الشعبي لدى العرب قديما، وهم في ذلك لا يكادون يختلفون عن الهنود مثلما يذكر جان شوفاليه(Jean Chevalier) في قاموس الرموز(Dictionnaire des symboles)[3]. والاعتقاد في فاعلية الياقوت مرده قداسة هذه الحجارة إذ هي تنحدر في متخيل بعض الشعوب من السماء موضع الإله، لذلك كانت رمزا للفضيلة والعدل الإلهي والطهارة وقوة عرش ضياء الإله. بل إن هذه الحجارة كانت خير وسيلة لدرء الأمراض ولدفع أذى العين الشريرة مثلما يعتقد ذلك في المسيحية[4].

• -<u>التشريط والفصد</u>: وكلاهما من أساليب الحجامة التي اعتقد المسلمون في نجاعتها فقد ذكر الكرمي أن ابن سينا قد صرح أن "**أول شيء يبدأ به في علاج الطاعون التشريط إن أمكن فيسيل ما فيه ولا يترك حتى يجمد فتزداد سميته**"[5]، وأضاف أيضا "**ويعالج الطاعون بما يقبض ويبرد**

---

[1]-آمال قرامي، الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية: دراسة جندرية، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى 2007.، ص.189.

[2]-أيمن الحسيني، عجائب العلاج بالكريستال والأحجار الكريمة، دار الطلائع للنشر والتوزيع، 2007، صص.99/98.

[3]- جاء في قاموس الرموز قوله:

« En Inde et en Arabie, il est réputé contre la peste, maladie ignée liée au feu chthonien (BUDA) ». voir Jean Chevalier & Alain Gheerbrant, Dictionnaire des symboles, éd. Robert Laffont, article (saphir), p.671.

[4]-

-ibid, pp.670/671.

[5]-الكرمي، ما يفعله الأطباء، ص.43.

وبالفصد"[1]. ويبدو أن العرب قد استقروا على علاج الطاعون بالحجامة أسوة بالنبي محمد الذي رأى فيها شفاء من كل داء فقد تناقل عنه المحدثون قوله " الشفاء في ثلاثة شربة عسل وشرطة محجم وكية نار وأنهي أمتي عن الكي" وقوله: "إن أمثل ما تداويتم به الحجامة والقسط البحري" وقوله: "إن كان في شيء من أدويتكم خير في شرطة محجم وشربة عسل أو لذعة بنار توافق الداء وما أحب أن أكتوي". وعليه إذن فالتشريط أو الفصد في نظر المسلم قديما كانتا طريقتين ناجعتين لأنها قد تغير دم الإنسان وتجدده وحينها قد يتخلص من سم الطاعون.

•-<u>العلاج بالأعشاب</u>: لم يكن العرب المسلمون قديما يكتفون بالحجر الصحي والأدعية والتختم بالياقوت والتشريط والفصد بل كانوا يولون الأعشاب أهمية كبرى إذ هي عامل فاعل في نظرهم لدرء خطر الوباء. لذلك أوصوا في كتبهم بنجاعة قشور الأترج والرمان والليمون والسفرجل والتفاح. يقول السمرقندي في هذا الغرض: **"ويشرب كل غداة حلابا من شراب الحماض أو الأترج أو النارنج أو الليمون أو السفرجل أو التفاح أو الرمان الحامض"** [2]. وهي أعشاب نافعة في نظرهم إما دهانا أو شرابا أو بخورا. كما اعتقدوا أيضا في فاعلية الخل لأن النبي دعا به **"فقد روى مسلم في صحيحه أن رسول الله (ص) سأل أهله الإدام فقالوا: ما عندنا إلا خل فدعا به وجعل يأكل ويقول: نعم الإدام الخل"**[3]. كما أشاروا على مرضى الطاعون بالماء البارد وبالخيار والعدس والقثاء وغيرها من النباتات.

قصارى القول إذن لقد شكل الطاعون وباء خطيرا هدد حياة المسلم لذلك انبرى باحثا فعن كل ما يمكن أن يتوقى به فلزم مكانه لا يبرحه حتى لا تنتقل العدوى في صفوف الناس وآمن إيمانا جازما بالأدعية وترتيل القرآن واعتقد في أهمية التختم بالياقوت ظنا منه أن هذا الحجر الكريم طارد للأمراض والأوبئة كما دعا إلى التشريط والفصد وتنبه إلى أهمية بعض الأعشاب في العلاج من هذا الداء. باختصار لقد سيطرت الخرافة والأسطورة على متخيل المسلم قديما حتى صار يعتقد في كل شيء من أجل أن يدرء عنه الخطر ويؤمن حياته. وذاك أمارة دالة على هشاشته وضعفه تجاه هذه الجائحة التي أودت بحياة الآلاف من البشر، فجعلته في حالة توثب وترقب وانتباه دائم وعاد الديني من جديد ليسير حياة الإنسان وجدد المسلم عهده مع الخرافة والأساطير علها

[1]-المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[2]-المرجع نفسه، ص.44.

[3]-ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص.235.

تساعده في استرداد ثقته التي فقدها في ظل هذه الجائحة التي هزت كيانه.

❹- **من الطاعون إلى كورونا: المسلم إلى أين؟**

ليس وضع المسلم اليوم بأفضل حال من وضعه بالأمس ذلك أن كورونا كانت " **لافتة للنظر لأنها قلبت الأفئدة في كل أقطار المعمورة وما من بشري إلا وشعر بأنه مهدد بها دونما حاجة لمقدمات أو مؤشرات أو تنبيهات**" [1]، بل إن هذا الوباء جعل المرء دوما في حالة تيقظ حذر ومستمر لأن الإنسان صار ضعيفا ويخشى الموت لذلك انبرى متقفيا أثر هذا الوباء باحثا في أسبابه مقترحا انجع الطرائق لمواجهته وهي أسباب ووسائل تمتح من معين تجربة المسلمين في مجابهة الطاعون.

•-من أسباب كورونا

كانت كورونا حدثا جللا مخلخلا لأمن الإنسان المعاصر واستقراره لأنه لم يألف جائحة بمثل جائحة كورونا ولم يعش وقع خطب خطير بمثل خطورة هذا الوباء العالمي لذلك انبرى حافرا في أسباب هذه الكارثة الإنسانية موطنا نفسه على تثبيت نظام جديد في حياته من أجل تجاوز هذا الخطر. فانتهى إلى جملة من التبريرات لا تكاد تختلف كثيرا عن العلل التي فسر بها المسلم قديما الطاعون وربما تجاوزها إلى أسباب أخرى. فاعتبر أن وباء كورونا إنما مرده لعنة إلهية حلت بالبشر لتمادي فسادهم وشرورهم على وجه البسيطة وهو تفسير كثيرا ما نعثر عليه في الأوساط الدينية حيث نلفي رجال الدين في المساجد يصدحون بمثل هذه الآراء ويوهمون العامة بأن جائحة كورونا إنما هي عقاب إلهي وهي إنذار للإنسان حتى يكف عن الرذيلة واقتراف الشرور. عدتهم في ذلك بعض الآيات التي جاءت مبثوثة طي النص القرآني كالآيات الحادية والثانية والثالثة عشر من سورة الفجر والآية الواحدة والأربعين من سورة الروم التي نصها الآتي: "**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون**"[2].

فكانت كورونا من منظور التدين الشعبي عقابا ألهيا للإنسان جراء فسوقه وظلمه وفساده في الأرض من ذلك مثلا أن رجال الدين فسروا تفشي كورونا بالسعودية مثلا بأنها غضب ألهي جراء ما ساد في هذا المجتمع من انحلال أخلاقي حين أنشأت الخمارات

[1]-حمادي أنوار، جائحة كورونا ومشكلة العيش المشترك، ص.16 ضمن كتاب الزمن الوبائي: دراسات في الدين والفلسفة والفكر، منشورات تكامل للدراسات والأبحاث، قرطبة، أكادير، 2020.

[2]-الروم 30: 41.

ودور القمار واختلط الذكور بالإناث بل إن رجال الدين اعتقدوا أن هذه الجوائح قد تكون مؤذنة بنهاية العالم وبقرب يوم البعث. وهذا التفسير لا يختلف كثيرا عن التفسير الذي اختلقه التونسيون لجائحة كورونا حين اعتبروها قصاصا إلهيا جراء ما تفشى في المجتمع التونسي من مروق عن الدين وإقرار للحريات العامة ولحرية المرأة بالأساس التي اعتبرها بعض رجال الدين تملصا من سلطة النص القرآني، ففسروا مثلا قانون المساواة بين الجنسين الذي أقره الدستور على أنه كفر بآيات الكتاب المقدس واعتبروا تصرفات بعض التونسيات في موكب تأبين الفقيدة "لينا بن مهنى" وجها من وجوه الإلحاد لأنه موكب انقلب فيه المأتم إلى غناء وأناشيد كسرت به نسوة تونس المألوف في طقوس التأبين الإسلامية وتصدرت فيه النسوة موكب الدفن ملقية بذلك بالحديث النبوي الذي يمنع المرأة من مواكبة جنازة الميت عرض الحائط. فكانت كورونا بالنسبة إلى هذه الشرذمة التي تدعي حراسة الدين عقابا إلهيا بل تحذيرا من الله لعباده حتى لا يرتد المسلم التونسي عن دينه. بل مال جمهور عريض إلى تفسير اندلاع الوباء من الصين بأنه عقاب إلهي **"للصين وللحكومة الصينية نكاية بها على معاملتها السيئة للمسلمين الإيغوروا‌عتبروه غضبا إلهيا حل بالعالم"** [1]

وذهبت فئة أخرى إلى اعتبار كورونا مخططا بشريا رسمته القوى العظمى في العالم بغية التقليص من الكثافة السكانية وإحداث توازن بين عدد السكان والموارد الطبيعية على سطح الكرة الأرضية. في حين ادعت جماعة أخرى أن كورونا هي تطبيق لفكرة قديمة ناصرها هتلر ومفادها ضرورة التخلص من كل كائن بشري يحمل عاهة أو علة لأنه سيكون عالة على المجتمع وحتى يكون البقاء لمن يملك جسدا قويا ومعافى. واليوم نلحظ وفي زمن العولمة أن عددا كبيرا من البشرية أضحوا عالة على المجتمع والدولة والعالم لأن الآلة الذكية من "روبوات"(Les robots) إلى أنترنيت الأشياء (internet des choses) أصبحت تنهض بجل العمل البشري وبأقل التكاليف وبدقة أفضل.

أضف إلى ذلك أن بعضهم اعتبر أن كورونا صناعة بشرية صنعتها بعض القوى العظمى حتى تشل حياة الإنسان الفكرية والصناعية لأنه دمر العالم بصناعاته واكتشافاته

[1]-حفيظ هروس، الدين والتدين في زمن الكورونا: قراءة في تمثلات المخيال السلفي للآخر، ص.440، ضمن كتاب الزمن الوبائي: دراسات في الدين والفلسفة والفكر، منشورات مركز تكامل للدراسات والأبحاث، قرطبة، أكادير، 2020.

النووية التي وسعت ثقب الأوزون فغدا خطرا على الكرة الأرضية لذلك كان لابد من خلق هذه البلبلة وهذا الفيروس حتى يتوقف الإنسان عن التصنيع وتتمكن هذه القوى من حفظ سلامة الكون والبشرية. واعتقد البعض أن كورونا هو فيروس منبته الصين وأنه نشأ هناك جراء التغذية غير السليمة. إذ أهل الصين شعب إنما يقتاتون من الفئران والحشرات والثعابين وغيرها من الحيوانات والحشرات والزواحف الضارة.

قصارى القول إذن لقد أدرك الإنسان المعاصر اليوم خطورة جائحة كورونا التي شلت العالم وبثت الرعب في صفوف الناس على وجه البسيطة لأنها لم تكن ظاهرة مألوفة خصوصا وأن نسب المصابين بهذا الفيروس الخطير في تزايد مستمر بل إن نسب الضحايا الذين لقوا حتفهم مرعبة لذلك راح الإنسان يبحث عن أنجع الوسائل لوقف نزيف الموتى والمصابين لأن حياته صارت مهددة وهو المتشبث بالحياة وسيادته أضحت مخلخلة لأنه ما عاد قادرا على التحكم بالطبيعة. فماهي أهم الوسائل التي اقترحها الإنسان المعولم لدرء خطر هذه الجائحة الكونية؟ وإلى أي مدى استفاد من تجارب المسلمين قديما؟.

- <u>من طرائق التصدي لكورونا</u>

كانت وطأة هذا الوباء شديدة على إنسان اليوم لأن وجوده صار مهددا بالاندثار لذلك سعى هذا الفرد إلى إعادة ترتيب علاقته مع هذا العالم المرعب ومع هذه الطبيعة الفتاكة الغاضبة، بأن سارع بالتفكير في حلول رآها ناجعة لأنها قد تدرأ عنه خطورة هذا الفيروس الذي أصبح يهدد كيانه وقد كانت تجارب المسلمين الأوائل في مواجهة الجوائح خير معين نهل منه. فراودت فكرة الحجر الصحي التي ناشدها العلماء في كتب الطواعين الإنسان المعاصر "**فبات الناس قابعون في مساكنهم بشكل إجباري غير مسبوق تحت نير إحساس ضارب بالإكراه**"[1]، وفضل الفرد العزلة ببيته والانطواء بين جدران صماء طلبا للنجاة والتماسا للبقاء. وكرس مبدأ التباعد الاجتماعي كوسيلة للتواصل بين الناس فحرمت الزيارات وانعكف الإنسان بداخل مأواه لأن الوباء عصف بحميمية العلاقات الإنسانية وصار الآخر هو الجحيم الذي على المرء أن يهابه وأن يحجم عنه لأنه قد يحصد روحه بعل العدوى فيكون هذا الآخر قابضا للروح مكدرا صفو الإنسان وصفو الطبيعة التي تحتضن الجميع. وسرعان ما تملك الخوف الإنسان حتى صار عاجزا فانشلت كل مفاصل الحياة مؤسسات وشركات ومصانع ومدارس

[1]-المرجع نفسه، ص.152.

ومساجد وجامعات حتى خيم طابع البؤس على الحياة وصار شبح الموت يطارد الإنسان إن هو هم بمغادرة مسكنه والاختلاط بالآخر.

أما الحل الثاني الذي ارتآه الإنسان المعاصر لمواجهة هذا الوباء فهو الاعتقاد في فاعلية الدعاء والتضرع إلى الله ببعض الآيات القرآنية لأن الدين بات مطمئنا للفرد خصوصا وأنه "**يقدم جرعة سيكولوجية مهمة وقت الأزمات فعندما يفشل العلم أو يتأخر في تقديم أجوبة وأدوية صحيحة، فإن الإنسان يلجأ إلى قوة مفارقة للعالم من أجل التضرع والمواساة. ومن أجل إيجاد بعض الأجوبة لأمور استشكلت على العلم. لهذا يكون الدين في أصعب الأوقات وأعتى المحن مصدرا للسكينة والطمأنينة ويوفر الطاقة النفسية اللازمة. كما يمكن للدين بالنسبة لمعتنقيه أن يكون مصدرا لرفع المعاناة خصوصا عندما يتوجه المؤمنون صفا واحدا لخالقهم وخالق الوباء**"[1].

بل إن الإنسان لجأ إلى إقرار التباعد الاجتماعي واستحضار تجارب النبي والصحابة قديما في مجابهة الأوبئة والطواعين فكانت تجربة عمر بن الخطاب مثلا في مواجهة طاعون عاموس من أعتى النماذج التي استند إليها الفرد اليوم. ويمكن أن نرد لجوء الإنسان إلى الدين مرده إيمانه الراسخ بأن الفيروس لن يستطيع إليه سبيلا طالما هو قريب من الله محصن به وعليه إذن "**فالإيمان هو المنقذ الوحيد من كل الآفات ولو اجتمعت الإنس والجن على الأذية والضرر. وبالتالي لن تنفع أسباب الوقاية المادية من المنع من الوباء إن غاب الإيمان والاعتقاد في الخالق**"[2].

ولكن انشداد الفرد إلى المفارق والمقدس لم يمنعه أيضا من التشبث بالأسطوري ومن جعل الخرافة الوسيلة الموصلة إلى بر الأمان ويعزى حنين الفرد إلى الأسطورة إلى خوفه من القوى الطبيعية القاهرة وإلى اعتقاده الجازم بأن الخرافة قد تخفف من وطأة الشعور بالخوف والقلق لذلك انتعشت الخرافة حتى صار الاعتقاد في العلاج التقليدي الشعبي أمرا مكينا. من ذلك مثلا أن الهنود اعتقدوا في نجاعة بول البقر في الوقاية من فيروس كورونا المستجد لأنهم يعتبرون الأبقار مقدسة ويؤمن بعضها أن لبولها خصائص

[1]-عبد الرحيم بودلال، الحجر الصحي بين الامتثال لتعاليم الدين والامتثال لتعاليم العلم: قراءة في حالات، ص.431، ضمن كتاب جماعي، الزمان الوبائي: دراسات في الدين والفلسفة والفكر، منشورات مركز تكامل للدراسات والأبحاث، قرطبة، أكادير، 2020.

[2]-المرجع نفسه، ص.433.

علاجية[1]. ولا يختلف وضع الهندوس عن البوذيين الذين أوصاهم زعيمهم دالاي لاما بقراءة "تعويذة مانترا تارا" بغية التغلب على كورونا وأكد على ضرورة قراءتها بصفة متكررة لضمان نجاعتها في علاج كورونا[2].

أما الحاخامات اليهود فقد دعوا الشعب إلى الاستماع إلى الصلاة وبشكل خاص إلى قصة الملكة "أستير " التي تقرأ في عيد المساخر وذلك من أجل حمايتهم من الوباء ثم شرب مشروب أسموه كورونا قد يطرد في ظنهم شر هذا الوباء[3]. ومن وجوه الخرافة أيضا ما تفشى في أوساط الشيعة من اعتقاد جازم في فاعلية التردد على المزارات المقدسة لذلك احيا الشيعة موسم عاشواء ودعا قاسم الطائي إلى زيارة مراقد الأئمة لأنها فضاء الرحمة والبركة أما ناصر مكارم الشيرازي فقد دعا إلى الإكثار من دعاء زيارة عاشوراء وحديث الكساء للوقاية من كورونا[4]. كما دعا بعض الشيعة أيضا إلى زيارة مقام الإمام الكاظم وهو من الأئمة الاثني عشر المعصومين لأنه يشفي من أي مرض[5]. كما راج الاعتقاد السائد في جدوى الطهارة والتعقيم لمجابهة كورونا وفي جدوى بعض الأعشاب كالليمون والزعتر والإكليل و النيسون والزنجبيل بل في جدوى بعض السوائل كالخل والماء المالح والعسل غيرها وفي ضرورة تغيير النظام الغذائي بالإكثار من استهلاك الخضر لاعتقاد راسخ بداخلنا أن نظامنا الغذائي نظام معطوب وطقوسنا في الأكل تحتاج مراجعة لأنها غير معصومة من الخطإ وعاداتنا في الأكل هي **"ثقافة ككل الثقافات فيها السليم والعليل والصحي والمرضي ونحن اليوم أمام وباء عالمي أجبرنا على تغيير كثير من عوائدنا اليومية"**[6].

---

[1]- انظر هالة الحفناوي، سيكولوجية الأوبئة، مقال صادر بموقع المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، بتاريخ 17 مارس 2020.

[2]-انظر مثنى العبيدي، كورونا والعامل الديني: أبعاد التأثير المتبادل، مقال صادر بالمركز العربي للبحوث والدراسات، بتاريخ 1ماي 2020.

[3]-المرجع نفسه.

[4]-انظر الحبيب الأسود، فتاوى كورونا: عقيدة رجال الدين لاستغفال العلم، مقال منشور بموقع العرب بتاريخ 14 مارس 2020.

[5]-انظر أزهر الربيعي، لطيميات كورونية في العر اق لمواجهة الفيروس الممتد، مقال منشور بموقع رصيف 22، بتاريخ 24 مارس 2020.

[6]-انظر محمد عبد الوهاب رفيقي، من وحي الوباء، ص.389، ضمن كتاب الزمان الوبائي: دراسات في الدين والفلسفة والفكر.

والأوبئة عن الحقيقة الإنسانية المشتركة وهي "الهروب الدائم من الموت" عسى أن نهتم بالحياة والإنسان. بعد أن أنهكته الحروب والأمراض والفقر ودمرته الأسلحة النووية والجرثومية.

خاتمة البحث

لقد أسلمنا النظر في كتابي "ما رواه الواعون في أخبار الطاعون " لجلال الدين السيوطي و"ما يفعله الأطباء والداعون لدفع شر الطاعون" لمرعي الكرمي إلى أن الطواعين والأوبئة عموما كانت واقعا كارثيا هدد حياة الإنسان منذ أقدم العصور لذلك انبرى باحثا عن علل وباء الطاعون محاولا أن يدرأ الخطر عنه بطرائق اختلط فيه الديني بالأسطوري والشعبي لأن هذا الوباء قد أربك حياته فاختل توازنه داخل الوجود. وقد كانت تجربة المسلمين الأوائل خير معين نهل منه الإنسان المعاصر واستفاد حينما داهمه فيروس كورونا وذلك من أجل كسب رهان الحياة لأن الموت متربص به فسعى الفرد إلى الحفر في أسباب هذه الجائحة والبحث عن الطرق البديلة من أجل الخلاص. وهي طرق تراوحت بين الديني والعلمي. حاول الفرد أن يمسك من خلالها بالبقين ولكن لا يقين مع الوباء. باختصار لقد برهنت هذه الجوائح

الطواعين و أثرها في سقوط دولة الموحدين وقيام دولة بني مرين.

د. أحمد محمد محمد عوض الله مشالي
كلية الآداب – جامعة الزقازيق- جمهورية مصر العربية

الملخص:

لم تكن هزيمة العقاب سنة609هـ/1212م، وحدها سبب في سقوط دولة الموحدين، وإن كان يعتبرها العديد من المؤرخين هي بداية النهاية ؛ إذ يعود زوالها عن خريطة الغرب الإسلامي سنة668هـ/ 1269م إلى تضافر عدة عوامل من بينها الجوائح والأوبئة التي انتابت الدولة طوال تاريخها ومن أبرزها طاعون سنة 610هـ ؛ بيد أنها اشتدت وطأتها بعد هزيمة العقاب ما ضاعف من آثارها، وعجزت الدولة عن فرض الأمن والاستقرار، وبالتالي عمت الفوضى وتدهورت أحوالها الاقتصادية والاجتماعية ودخلت الدولة في أزمات سياسية أدت في الأخير إلى سقوطها و اقتسام تركتها بين الحفصيين والزيانيين والمرينيين في المغرب وبني نصر في الأندلس.

Abstract

The defeat (Batalla de Las Navas de Tolosa) in the year 609 AH / 1212 CE was not the only reason for the fall of the Almohad state, although many historians see it as the beginning of the end. Plague in the year 610 AH; however, it intensified its impact after the defeat (Batalla de Las Navas de Tolosa, which multiplied its effects, and the state could not impose security and stability, and as a result, chaos prevailed, its economic and social conditions deteriorated and the state entered into political crises which ultimately led to its downfall and the division of its assets between the Hafsides, the Zayans and the Merinids in Morocco and Bani Nasr in Andalusia.

المقدمة:

شهدت الدولة الموحِّدية في طور انحلالها العديد من الجوائح والأوبئة ساهمت إلى جانب عوامل أخرى في سقوطها، ورغم أن مجال الحكم الموحِّديّ في الغرب الإسلامي تؤثر فيه عوامل المناخ المتوسطي من حيث القحط والفيضانات والأوبئة، إلى جانب وجوده في موقع غليان جيولوجي كان يؤدي إلى حدوث زلازل عنيفة يتمخض عنها خسائر فادحة[1]؛ إلا أن هزيمة العقاب وتداعياتها على السلطة الموحدية جعلت من تلك الجوائح والأوبئة أشد فتكاً بالمجتمع في ظل تراجع ملحوظ لدور الدولة في التخفيف من آثارها، وبعد عهد الناصر الذي انتهى بهزيمة العقاب تر افقت موجات الوباء مع الجفاف والمجاعات حتى وصل تعدادها منتصف القرن السابع الهجري في الفترة من (614-651 هـ/1217-1253م) إلى حوالي عشر مجاعات بو اقع واحدة كل ثلاث سنوات[2]، وهو ما انعكست آثاره ونتائجه على الأوضاع السياسية في الدولة الموحدية.

وعلى الرغم من أهمية الموضوع الذي يؤرخ لفترة انتقالية هامة ما بين الموحدين ودول المغرب الثلاث (بني حفص وبني زيان وبني مرين) إضافة إلى دولة بني نصر في غرناطة؛ فإن العلاقة الديالكتيكية بين الوباء والسياسة لا زالت في حاجة إلى مزيد من الضوء خاصة وأن المصادر التاريخية أقصت هذا الموضوع من دائرة اهتمامها باستثناء بعض الإشارات الخافتة وردت عند الناصري[3] حين ربط بين قيام دولة بني مرين كنتيجة حتمية لظروف الهزيمة وطاعون سنة 610هـ/1228م الذي لحق الموحدين بعد موقعة العقاب؛ فانضافت إلى خسائر هذه الهزيمة "الوباء العظيم الذي تحيف الناس إلا قليلاً" ليفسح المجال أمام المرينيين نحو السلطة في المغرب الأقصى.

[1] Braudel Fernand. La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II,:(Paris, 1949)p.211.

[2] الحسين بولقطيب ، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين(ط1؛ الرباط : منشورات الزمن ، 2002م)، ص47.

[3] الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ، جعفر الناصري ومحمد الناصري (ط1؛ الدار البيضاء: دار الكتاب ، 1954م) ج3 ، ص4.

على محك هذه الملاحظة المصدرية لطاعون سنة 610هـ/1228م نسعى إلى تسليط الضوء على النتائج السياسية للأوبئة والطواعين ودورها في سقوط الدولة الموحدية ، محاولين الإجابة عن السؤال التالي : ما هي تأثيرات طاعون سنة 610هـ/1228م ، وما سبقه من أوبئة على الجوانب السياسية لدولة الموحدين؟

لا مراء في أن نتائج الأوبئة لم تقف خسائرها عند عدد الوفيات والهلع الذي أصاب سكان المغرب الوسيط؛ بل كانت التأثيرات الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية للوباء صداها على السلطة الموحدية وفي علاقتها بالرعية، وذلك للطبيعة المركبة للوباء على كافة الجوانب الإنسانية؛ فالأوبئة تؤثر بداية على النمو الديموغرافي نظراً لما تخلفه من وفيات، وبالتالي على القاعدة الإنتاجية والمستوى المعيشي للسكان، وهو ما عبر عنه ابن خلدون[1] خلال حديثه عن الطاعون الجارف في المائة الثامنة فقال : " انتقض عمران الأرض بانتقاض البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السّبل والمعالم وخلت الدّيار والمنازل وضعفت الدّول والقبائل وتبدّل السّاكن...".

لم تتطرد قاعدة ابن خلدون حول التأثيرات السلبية للطواعين والأوبئة على " عمران الأرض" فأحياناً ما تكون هذه الوفيات في صالح المجتمع بسبب النقص الحاصل في المواد الغذائية، وهذه الوفيات وإن كانت لا تخلق توازناً بين المواد الغذائية وعدد السكان فإنها على الأقل تنقص من عدد الأفراد الذين ينبغي إطعامهم، ولعل طاعون سنة 610هـ/1228م لم يسفر عن مجاعة بقدر ما أحدث من توازن بين الغذاء والسكان وكانت نتائجه على الصعيد السياسي تربو عن نتائجه الاقتصادية بدليل صمت أغلب المصادر عن ذكر أخبار تتعلق به سوى عبارات تضمينية جاءت عند ابن أبي زرع الفاسي[2]: " وفيها – أي سنة 610هـ – كان الوباء بالمغرب والأندلس"، بل مهد هذا الوباء الطريق أمام بني مرين نحو السلطة، وقد وصف الناصري[3] أحوال المغرب عندما دخلها بنو مرين "فوجدوا البلاد مع ذلك طيبة المنبت خصبة المرعى غزيرة الماء واسعة الأكناف فسيحة

[1] العبر في ديوان المبتدأ والخبر، ضبط المتن والفهارس خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكار (ط1؛ بيروت: دار الفكر ، 1421 هـ/ 2000م) ، ج1، ص42.

[2] الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (ط2 ؛ المغرب: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972م) ، ص49.

[3] الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ،ج 3ص5.

المزارع متوفرة العشب "، وعلل ذلك بالنقص السكاني الناجم عن الوباء حتى أنهم لم يجدوا حامية أو مدافعين ؛ فاغتنموا الفرصة واكتسحوا سهوله وبسيطه.

وحسب أحد الدارسين[1] فإن الخسائر التي خلفها طاعون سنة 610هـ/1228م لا يمكن مقارنتها بما خلفه وباء سنة 571-572هـ/1175-1176م، ومن خلال رصد نتائجه الديموغرافية يتبين أنها كانت كارثية؛ فابن عذاري[2] يشير إلى أن كثرة الموتى حالت دون حملهم إلى المسجد الجامع للصلاة عليهم، وهو ما حمل الخليفة أبا يعقوب يوسف أن يصدر تعليماته بأن " يصلى عليهم في سائر المساجد رفقاً بالناس في ذلك " ولم تقف نتائج الوباء الديموغرافية عند مستوى القاعدة من العامة بل نالت من العصبية الحاكمة في الدولة وكاد الخليفة أن يكون من ضحاياه؛ فضلاً عن موت أربعة من أخوة الخليفة وهم : أبو عمران و أبو سعيد و أبو عبد الله و أبو زكريا[3]، ولا ريب أن فقدان النظام السياسي للدولة لزعامات سياسية واعية تحدث فراغاً سياسياً غالباً ما يشغله خلفاء ضعاف غير قادرين على إدارة شؤون الدولة؛ فالخليفة المستنصر لم يخرج من حضرته طوال فترة خلافته سوى لزيارة تنملل وكان مولعاً بانتجاع الخيل والبقر، وأما المرتضى فكان ميالاً للدعة والمسالمة وسماع الغناء[4]، وبالتالي غيب الموت من كان في بقاءه حياة الدولة الموحدية.

قضى طاعون سنة 571-572هـ /1175-1176م على كبار الشخصيات في الجهاز الإداري والسياسي للدولة منهم: القاضي أبي يوسف حجاج بن يوسف[5]، والكاتب أبي الحكم إبراهيم بن علي بن هردوس، ومشرف غرناطة أبي عمران بن أفلح[6]، وتنبئ الأرقام التي أوردها كل من ابن عذاري وصاحب الحلل الموشية

---

[1] الحسين بولقطيب، مرجع سابق ص55.

[2] البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق مجموعة من الأساتذة (ط1؛ بيروت- لبنان: دار الغرب الإسلامي، 1985م)، ص136.

[3] مجهول ، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل ذكار – عبد القادر زمامه (ط1؛ الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة 1399هـ/1979م)، ص157.

[4] ابن عذاري، مصدر سابق، ص440.

[5] مراجع عقيلة، سقوط الدولة الموحدية (ط2؛ بنغازي : دار الكتب الوطنية ، 2008م) ،ص129.

[6] ابن الأبار أبو عبد الله محمد ، تحفة القادم، أعاد بناءه وعلق عليه إحسان عباس(ط1 ؛ بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986م) ، ص72.

لضحايا الوباء عن حجم الكارثة التي نزلت بالدولة سيما في البلاط السلطاني، وقد بلغت ما بين مائة ومائة وتسعين شخصاً يومياً، حتى أن قصر الخليفة كان يشهد وفاة ما يقارب الثلاثين شخصاً من الخدم كل يوم[1]، و انعكست هذه الأوضاع بشكل غير مباشر على الأحوال السياسية بالدولة؛ فدب الفساد بشكل واضح خلال عهد الناصر وتسلط الوزراء والعمال بالحكم وإدارة الدولة دونه، ومن ذلك استبداد الوزير أبي سعيد ابن جامع على دولته، و إفساده لجنده ما أدى إلى هزيمته في العقاب[2].

قد يكون الحديث عن تأثير الأوبئة والطواعين من الناحية الاقتصادية سواء في المجال الزراعي أو الصناعي أو التجاري خارج حدود الإجابة عن التساؤل المحوري للموضوع – بشكل مباشر- بيد أن الآثار الاقتصادية للوباء امتدت إلى الجانب السياسي وتحديداً في العلاقة بين الحاكم والرعية رغم محاولة السلطة الموحدية التخفيف عن كاهل الرعية خلال الأزمات والجوائح والأوبئة والوقوف بجانب الفئات المتضررة؛ إذ قام الخليفة يوسف المستنصر (610-620هـ/1213-1223م) " بفتح المخازن المعدة لاختزان الطعام، ففتحت للعامة وفرقت عليهم، فذكر أنها كانت بثمن للأقوياء وبغير ثمن للضعفاء"[3]، وقيام الدولة ببناء المارستانات وتقديم الرعاية الطبية[4].

لم تُجدِ هذه المحاولات التي بذلتها الدولة في القضاء على نتائج الوباء الاقتصادية، فقد توالت الجوائح بداية من القرن السابع الهجري، وشهدت الدولة موجات متتالية من الجفاف والجراد ألحق خسائر فادحة بالمزارعين، وارتفعت الأسعار، وتسبب وباء سنة 610هـ/1228م في ركود تجاري نتيجة خشية التجار من دخول المناطق الموبوءة[5]، وهجر الناس منازلهم وممتلكاتهم وأراضيهم الزراعية وحرفهم وصناعاتهم نجاة بأنفسهم و اتجهوا صوب الجبال، الأمر الذي أدى إلى عودة حياة البداوة والترحال على حساب التمدن ما أضر بالاقتصاد الإنتاجي[6]، ودخلت الدولة الموحدية في أزمات اقتصادية بلغت الحد

[1] ابن عذاري، مصدر سابق ، ص136.

[2] مراجع عقيلة، مرجع سابق، ص242.

[3] ابن عذاري ، مصدر سابق ، ص267.

[4] الحسين بولقطيب ، مرجع سابق، ص72-81.

[5] الناصري، مصدر سابق،ج2ص237-238.

[6] الحسين بولقطيب ، مرجع سابق، ص101-103.

أن عجز الخليفة المرتضى عن دفع رواتب الجند بسبب فراغ بيت المال[1].

يرى أحد الدارسين[2] أن المجاعات وحدها وليست الأوبئة وراء هجرة الناس من المدينة إلى البادية ويعزو ذلك إلى المخيال الشعبي لدى مغاربة العصر الوسيط نحو الوباء وأسبابه وما تعززه السنة النبوية من النهي عن الخروج من الأماكن الموبوءة رضىً بما قدّر الله عز وجل والصبر على البلاء والرجاء في الشهادة، ولكن الشواهد من الإسطوغرافيا الوسيطية تأتي بخلاف ذلك، فابن عذاري[3] يصف حالة الهلع التي أصابت الناس في مدينة مراكش جراء وباء سنة 571هـ/1175م فقال: " واتصل روع الناس بالحضرة المذكورة حتى كاد لم يخرج منها أحد ولا يدخلها أحد، وكل من خرج منها فاراً بنفسه مات في الطريق" وحين وصف الفاسي[4] وباء سنة 635هـ/ 1237م قال: " وكان بالعدوة والأندلس في هذه المدة غلاء شديد ووباء مفرط هرب فيها أكثر أهل البلاد"، وما ذكره الرَّصَّاع[5] عن سفر أحد أساتذته بسبب وقوع وباء تلمسان خلال تلقيه العلم بها سنة829هـ/1425م.

حاولت الدولة الموحدية توظيف الأوبئة والطواعين قصد تمرير فكرة الخضوع للسلطة والحذر من عاقبة الخروج عليها، وذلك بتبني تفسيرات ترجع أسباب الوباء إلى مخالفة أوامر الدين وتعاليمه والتي تقتضي طاعة أولي الأمر، وعدم اتباع الفتن في إشارة إلى حركات التمرد والثورات، والدعوة إلى إقامة شعائر الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ للتأكيد على أسس المشروعية السياسية للدولة وهو ما نجده في رسالة بعث بها الخليفة المستنصر بالله يوسف بن الناصر سنة 617هـ/1220م إلى ولاته ورعاياه في المغرب والأندلس عقب تدهور الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية بسبب هزيمة الجيوش المغربية في معركة العقاب سنة 609هـ/1212م، ثم وباء سنة 613هـ/1216م مع تعاقب موجات القحط والجفاف والتي بلغت أوجها في

[1] ابن خلدون، مصدر سابق، ج 6ص407.

[2] سمية مزدور ، " المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-927هـ/1192-1520م)" (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة منتوري – قسنطينة- الجزائر، 2009م) ص238-239.

[3] البيان المغرب ، مصدر سابق،ص136.

[4] ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس (ط1؛ الرباط: دار المنصور للطباعة، 1972م) ،ص336.

[5] فهرست الرَّصَّاع، تحقيق محمد العنابي(ط1؛ تونس: المكتبة العتيقة ، 1967م)،ص14-15.

مجاعة سنة 616هـ/1219م" حتى شكاها الظاعن والمقيم"[1].

وعلى صعيد آخر، أضفت الطواعين والأوبئة شرعية اجتماعية وسياسية و اقتصادية على فصيل اجتماعي كان يبحث عن موطئ قدم على الخريطة السياسية، وهم الأولياء والصلحاء مستثمرين في هذا الصدد ما تمر به الدولة من أزمات و أبرزها: الصدع الذي أصاب العقيدة التومرتية بعد أن تخلى عنها الخليفة أبو العلاء المأمون سنة621هـ/1223م[2]، والصراع على الحكم واحتكار السلطة لكل القرارات السياسية وتهميش القوى السياسية الأخرى، واستمرار حدة التناقض بين السلطة والمجتمع، وفقدان الثقة في إمكانية تحقيق العدالة الاجتماعية في ظل اتساع دائرة الفقر، والتباين الاقتصادي بين أفراد المجتمع، واستمرار حدة التوتر الاجتماعي نتيجة تلك الأوضاع، وتفشي الانحلال الأخلاقي والديني، وتوقف تجارة العبور[3]، وبالتالي ارتفاع أسعار المواد الغذائية ووقوع الوباء الذي لا يكون" إلا بإثر الغلاء فهو لازم من لوازمه"[4].

وسعى الأولياء والصلحاء من خلال المساعدات التي قدموها للشرائح الاجتماعية المستضعفة والمحتاجين أن يحتلوا مكان الدولة، ويتمكنوا من طرح مشروعهم الإصلاحي كبديل لدور الدولة في محاولة لإزاحتها وإرساء دولة " الولي" مقابل دولة " الأمير"[5] عبر توظيف الكرامة الكرامة كأداة من أداوت النقد وإظهار فساد السياسة الاقتصادية والاجتماعية للدولة الموحدية، وقد حملت تلك الكرامة بما تنطوي عليه من دلالات ورموز خطاباً سياسياً لا يقف عند حدود الكشف عن أزمات الدولة ومحاولة إصلاحها؛ بل يؤسس لرؤية أكبر تهدف إلى بناء مجتمع جديد على أيدي الصلحاء والأولياء من المتصوفة ويرتكز على تغييب السلطة الموحدية، وتهميش دورها[6]؛ بل وصل الأمر إلى تهوين أدوات العقاب التي

---

[1] ابن عذاري ، مصدر سابق،ص226.

[2] ابن عذاري، مصدر سابق ،ص317.

[3] إبراهيم القادري بوتشيش ، "واقع الأزمة والخطاب " الإصلاحي" في كتب المناقب والكرامات: (أواخر ق6 وبداية ق7هـ/12-13م)"، أعمال اليوم الدراسي: الإسطوغرافيا والأزمة: دراسات في الكتابة التاريخية والثقافة، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط 1989م،ص 26.

[4] ابن هيدور، مقالة في الأمراض الوبائية، مخطوط الخزانة الحسنية برقم 9605، ص1.

[5] الحسين بولقطيب ، مرجع سابق، ص35.

[6] لخضر بولطيف ، فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي (ط1؛ فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 2009م)،ص327.

تستعملها الدولة ضد الخارجين عن سلطتها ؛ فعملت الكرامات على تبديد كل المخاوف من السجن، وأسقطته من تصوراتها، فالمتصوف محمد بن عمر الأصم لما سجن في مدينة فاس كان القيد يسقط من رجليه عندما يحين وقت الصلاة، ويخرج من السجن ولا يمنعه باب أو بواب حتى أطلق سراحه[1].

وتشكلت في ذهنية العامة صورة للولي والمتصوف كالبطل الخارق للعادة، الو اقف في صفهم ضد ظلم العمال والولاة ، والذابّ عن حقوق المستضعفين[2]، والقادر على تقديم الحلول للنوازل والانتكاسات الطبيعية من جدب وجفاف، وأوبئة ومجاعات، وذلك بالاستسقاء أو تكثير الطعام أو بذله للفقراء والمحتاجين، أو البحث عن علاج للأوبئة والأمراض المستعصية، وغالباً ما يكون العلاج نفسياً يبث الطمأنينة والرضا في قلوب المرضى، وتعكس كرامات الشيخ أبي يعزى(572هـ/1177م) في جزء كبير منها الصراع المستعر بين الولاية والدولة حول استقطاب الرعية والسعي نحو الهيمنة عليها، ورغم محاولات الدولة في السيطرة على هذا التيار الاجتماعي الطامح نحو السلطة إلا أنها باءت بالفشل، وساهم هذا التيار في تقويض السلطة الموحدية، وتعاونوا مع المرينيين معترفين بسيادتهم على المغرب[3]، وساندوا الثورات التي اندلعت في الأندلس ضد الموحدين، ومنها ثورة محمد بن هود بمرسية سنة 635هـ/1238م[4].

وحسب نظرية ابن خلدون عن الدول وعوامل قيامها وانهيارها والعلاقة القائمة بين الفتن والمجاعات والأوبئة؛ فإن الدولة تزيد نفقاتها العسكرية عندما تقترب من نهايتها؛ بسبب محاولتها إخماد تلك الفتن والثورات، وتقترن هذه الأحوال بأزمات اقتصادية تزيد من حالة البؤس و انتشار الأوبئة[5]،ومن أبرز نتائج هذه الظرفية فرار السكان من المدن والفلاحين عن الأوطية وإخلاء عمارة الأراضي الزراعية، و إفساح المجال أمام المرينيين الذين اكتسحوا الشمال المغربي سنة 610هـ/1213م دون مقاومة تذكر؛ إذ"

[1] ابن صعد الأندلسي، النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب، مخطوط بمكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، ص126.

[2] لخضر بولطيف ، مرجع سابق ، ص322.

[3] محمد الشريف،" ما قبل هيكلة الزوايا بالمغرب، ضمن الزوايا في المغرب"، مجلة المناهل، ج1، ع 80ـ81، منشورات وزارة الثقافة 2007، المغرب، ص9.

[4] ابن الزبير، صلة الصلة، تحقيق: ليفي بروفنسال(ط1؛ الرباط، المطبعة الاقتصادية، 1938م)،ص112.

[5] علي أومليل ، الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون(ط3؛ بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، 1985م)،ص91.

وجدوا المغرب قد باد أهله ورجاله، وفني خيله وحماته و أبطاله"[1].

استفاد المرينيون من الأوضاع التي خلفها الوباء، وما تمربه الدولة الموحدية من أزمات، "وشنوا الغارات على قراه ومدنه، وضيقوا على قبائله فكان أحدهم لا يقدر أن يخرج من مسكنه، إلا أن كل من أذعن لهم بالطاعة سالموه، ومن نابذهم قاتلوه وقصموه، ففر الناس أمامهم يميناً وشمالاً، ولجأوا إلى الجبال المنيعة لتكون لهم حصناً ومآلاً، وخلت المجاشر وقلت العمارات ..."[2]، ويبدو أن عملية إعادة تعمير المنطقة قد ارتهنت بزوال الوباء، ووجود شركاء جدد أو قدامى من الرعية تحالفت مع دولة بني مرين، وتحديداً في عهد الأمير أبي بكر بن عبد الحق سنة 646هـ/1248م والذي "أمر القبائل بسكن الأوطية، وعمارة القرى والمجاشر الخالية، والاستكثار من الحرث"[3].

إزاء هذه الوضعية الاقتصادية طمع المنتزون والطامحون نحو الملك في الاستقلال عن الدولة الموحدية، وكان شرق الأندلس في الصدارة بقيادة ابن هود (625هـ/1227م) والذي استولى على مرسية ثم شاطبة ودانية وجيان ومردة وبطليموس سنة (626هـ/1228م) ، وفي العام نفسه طرد أهالي قرطبة وإشبيلية الموحدين وبايعوا ابن هود، ودانت له غرناطة ومالقة والمرية[4]، و انتزى محمد بن يوسف بن الأحمر بأرغونة وبسط نفوذه حتى أحكم قبضته على جنوب الأندلس سنة (636هـ/1238م)[5]، وقام أبو جميل بن زيان بالاستيلاء على مردنيش ببلنسية، واستقل بها عن الموحدين بعد أن طرد أميرها أبا زيد عبد الرحمن سنة (626هـ/1228م)[6].

وفي الجناح المغربي للدولة ظهر الحفصيون بقيادة أبي زكريا بن عبد الواحد الحفصي في إفريقية ومد نفوذه على حساب عدة مدن أهمها: تونس وبجاية وقسنطينة[7]، وفي المغرب الأوسط قام يغمراسن بن زيان بالاستقلال عن الدولة الموحدية[8]، وفي المغرب الأقصى اجتاحت قبيلة بني مرين المغرب

[1] ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص282.

[2] ابن أبي زرع، المصدر نفسه،ص288-289.

[3] ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص73.

[4] محمد الهادي القرقوطي ، جهاد الموحدين بالأندلس(ط1؛ الجزائر: دار هومة ، 2005م)،ص255-256.

[5] ابن أبي زرع، مصدر سابق ،ص255.

[6] ابن عذاري، مصدر سابق، ص289.

[7] لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان (ط2؛ القاهرة: مكتبة الخانجي ، 1392م/ 1973م) ،ج1ص312.

[8] ابن خلدون، مصدر سابق ، ج7ص162.

وسيطرت على جنوبه وخاضت معارك طاحنة ضد الموحدين انتهت بانتصار القائد المريني عبد الحق بن محيو[1]، والذي خطا بقومه نحو السلطة حين زحفوا تجاه فاس واستولوا عليها بعد حصار شديد سنة 648 هـ / 1250م، وكان سقوط فاس أعظم ضربة أصابت الموحِّدين، ثم زوال دولتهم من خريطة الغرب الإسلامي بهزيمة ومقتل آخر خلفائها أبي دبوس الواثق بالله في ساحة معركة وادي غفّو على يد المرينيين أواخر سنة 667هـ / 1269م بقيادة أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني، وصار الطريق مفتوحاً أمام المرينيين إلى مراكش، التي دخلوها في 9محرم سنة 668هـ/1269م، وبذلك انتهت دولة الموحدين في المغرب[2].

وبعد فتلك قراءة أولية في نتائج الأوبئة والجوائح على الأنظمة السياسية في الغرب الإسلامي، وكيف لهذه الأوبئة القدرة على المساهمة في إعادة تشكيل الخريطة السياسية، ولا زال الموضوع ورشاً مفتوحة يحتاج إلى قراءات أخرى ، وإجالة النظر من قبل الباحثين الجادين حتى تكتمل الصورة.

[1] ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص32.

[2] محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس – نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (ط4؛ القاهرة: مكتبة الخانجي، 1417هـ /1997م) ، ج5 ، ص97.

تاريخ الطواعين في عصر دولة الخلافة الإسلامية الراشدة (طاعون عمواس نموذجاً 18هـ/639م)

د.عوض عبد الجليل أبوبكر محمد

أستاذ مساعد-قسم التاريخ-كلية الآداب والعلوم الإنسانية-جامعة البحر الأحمر/ حالياً جامعة نجران المملكة العربية السعودية، عمادة شؤون المكتبات، وحدة المخطوطات.

د.أحمد محمد أحمد مركز

أستاذ مشارك –قسم التاريخ-كلية الآداب والعلوم الإنسانية-جامعة البحر الأحمر

المُستخلص

هذه الدراسة بعنوان:(**تاريخ الطواعين في عصر دولة الخلافة الراشدة-طاعون عمواس سنة18هـ/639م نموذجاً**)، وقد جاءت هذه الدراسة توثيقية تاريخية للتعريف بطاعون عمواس الذي وقع في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ)، وتحديداً في عام 18هـ-639م، وذلك من خلال التعريف بمرض الطاعون لغةً وإصطلاحاً، كذلك تعريفه من جانب علمي، ومعرفة أسبابه، وأنواعه، وأثاره، وكيفية إنتقاله وإنتشاره، ثم التطرق للطاعون تاريخياً من خلال توثيقه ومعرفة الأماكن التي ظهر فيها، وأثاره، ومن ثم التطرق للرؤية والطب النبوي في التحذير والتوعية بمخاطر الطاعون، وكيفية محاربته(باب ما ذُكر في الطاعون)، وذلك من خلال سرد أحاديث النبي(صلي الله عليه وسلم)، التي تحدثت وحذرت من وباء الطاعون، وبينت طرق الوقاية منه(مفهوم الحجر الصحي) والعزل، كذلك تناولت الدراسة أقوال الصحابة (رضي الله عنهم)، عن الطاعون،ومعرفة الجهود التي بذلها الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، في سبيل المُحافظة على حياة المسلمين ببلاد الشام وفلسطين ووقايتهم من هذا المرض الفتاك(الطاعون)، وما نتج عن ذلك الطاعون من أثار أزمات صحية وإقتصادية وإجتماعية، ومجهودات الخليفة الراشد في معالجتها والقضاء على أثارها، وكذلك دراسة توثيقية للصحابة وكبار القادة والتابعين الذين توفي نتيجة لإصابتهم بذلك المرض الفتاك.

وقد أستخدم الباحثان المنهج التاريخي الوصفي والتوثيقي، ومنهج البحث التاريخي الإسترادي، وذلك للوصول إلى مادة علمية تاريخية مُميزة.

Abstract

This study is entitled: "Epidemics in the era of the Islamic State of the Caliphate - the plague of Emmaus as a model (18 AH / 639 AD). It and in particulary, the plague of Emmaus, which occurred in the year 18 AH - 639 AD, this study aims to identify disease of plague in a language and convention, as well as its definition from a scientific side, and identifying the causes, types, effects, how it is transmitted and spread, then tackling on the plague historically through its documentation Andidentifng the places in which it appeared, its effects, and then dissusion on the vision and prophetic medicine in warning and raising awareness of the risks of the plague, and how to combat the plague .(the chapter on what was mentioned in the plague), through narrative hadiths of the Prophet (peace and blessings be upon him), which spoke and warned against the plague epidemic, The ways of prevention, (the concept of quarantine) and isolation showed, as well as the study address the sayings of the Companions (may God be pleased with them), about the plague, and knowledge of the efforts made by the seccessor Omar bin Al-Khattab in order to preserve the lives of Muslims in the Levant and Palestine and protect them from this deadly disease (Plague N), and the impact of the plague on health, economic and social crises, and the efforts of the caliph Al-Rashid in treating and eradicating its effects, as well as a documentary study of the companions and the senior leaders and followers who died as a result of their suffering of this deadly disease.

The researches adopted the descriptive historical and documentary. approach, and the historical retrieval research approach, in order to reachoutstsnding scientific historical documentary material

أهمية الدراسة:-

تنبع أهمية الدراسة في أنها تُسلط الضوء على تاريخ الطواعين في عصر دولة الخلافة الإسلامية الراشدة، وتحديداً في عصر الخليفة الراشد سيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ)، حيث وقع في عهده طاعون عمواس ببلاد الشام سنة 18هـ، والذي راح ضحيته

مجموعة كبيرة من خيرة كبار الصحابة، وكبار قادة الدولة الراشدة(رضي الله عنهم أجمعين)، وتتبع مُسبباته وأثاره، وذلك من أجل الخروج بمادة توثيقية قيمة، كما أن الدراسة في أهميتها تُبين الرؤية الإسلامية للقضاء على الطاعون وذلك وفق ما ذكره النبي الكريم سيدنا محمد(صلي الله عليه وسلم)، وذلك من خلال التطرق لمبدئي(الحجر الصحي، والعزل)، وتوضيح الدور الذي قام به الخليفة الراشد سيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ)، في القضاء على ذلك الطاعون والتغلب على الآثار الإقتصادية والإجتماعية التي صاحبته.

أهداف الدراسة:-

* التعرف على الطواعين التي ظهرت في عهد الدولة الإسلامية بصورة عامة، وفي عصر الخلافة الراشدة بصورة خاصة.

* تهدف الدراسة إلي التعرف على مرض الطاعون وتعريفاته، وأسباب وقوعه، وأنواعه.

* تهدف الدراسة إلي التطرق للأحاديث النبوية التي ذكر فيها النبي(صلي الله عليه وسلم)، الطاعون، ووضح طرق الوقاية منه وفق رؤية الطب النبوي، وتناول أقوال الصحابة(رضي الله عنهم أجمعين)، عن الطاعون.

* التطرق بالتوثيق التاريخي لطاعون عمواس، وأسباب وقوعه، وذكر أثاره، وتوضيح دور الخليفة الراشد سيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ)، ومجهوداته في القضاء عليه, وذكر الصحابة وكبار القادة(رضي الله عنهم)، الذين توفوا متأثرين به.

مشكلة الدراسة:-

ظلت المشاكل الصحية، وتحديداً الأوبئة والطواعين من المُعضلات السيئة التي أثرت بصورة كبيرة على الأمم المُتعددة، فهذه الأمراض الفتاكة لها تأثيرها السلبي على المُجتمعات الحضرية في كل النواحي صحية، إجتماعية، إقتصادية..ألخ، غير أن الرسالة المحمدية عندما نزلت على النبي (صلي الله عليه وسلم)، وضعت علاج لكل مُشكلة ومُعضلة، وذكر النبي الكريم(صلي الله عليه وسلم)، وإستعاذ من الطاعون، ووضح كيفية القضاء عليه ومحاربته، وذلك وفق ما جاء في الأحاديث النبوية الشريفة، وعلى نهجه سار الخلفاء الراشدين(رضي الله عنهم أجمعين)، من بعده ومن ضمنهم سيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ)، والذي وقع في فترة خلافته طاعون عمواس موضوع دراستنا.

منهجية الدراسة:-

اتبعت الدراسة منهج البحث التاريخي الإسترادادي، وهو المنهج المُستخدم في العلوم التاريخية وما شابهها، وفيه يقوم الباحث بعملية إسترداد للماضي من خلال الآثار التي خلفها وإسترجاع المعلومات، وهو إسترداد أو إسترجاع يُراد به الكشف عن حركة سير التاريخ وتفسيرها والربط بين خطواتها.

النطاق الزمني والمكاني:-

تمتد الحدود الزمانية في عصر الخليفة الراشد سيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ)، من 13-23هـ/ 634-644م، أما الحدود المكانية فهي كل حدود الدولة الإسلامية في تلك الفترة.

أولاً: ماهية الطاعون:-

1/ تعريف الطاعون لغةً: طاعون(مُفرد)، وطواعين(الجمع)، وطعن الرجل، فهو طعون وطعين: أي أصابه الطاعون، وهو المرض العام والوباء الذي يَفْسُدُ له الهواء، فَتَفْسُدُ له الأمزجة والأبدان[1]، طاعون بوزن فأعول، وهو الطعن، أي مالوا به عن أصله، ووضعوه دالاً على الموت العام كالوباء، ويُقال طعن فهو مطعون وطعين: أي أصابه الطاعون والمرض[2]، وفي المعجم الوسيط: الطاعون داء ورمي وبائي سببه مكروب يصيب الفئران، وتنقله البراغيث إلي فئران أخرى وإلي الإنسان[3]، وفي الأثر النبوي الشريف رؤى عن النبي الكريم(صلي الله عليه وسلم)، قوله:(فناء أمتي بالطعن والطاعون)، فالطعن: هو القتل بالرماح، أمَّا الطاعون: فهو المرض العام، ولعل النبي الكريم (صلي الله عليه وسلم)، قصد من ذلك أن الغالب على فناء الأمة بالفتن التي يكثر فيها سفك الدماء وبالوباء[4].

2/ تعريف الطاعون إصطلاحاً: كان الأطباء القدماء يطلقون أسم الطاعون على كل ورم ردئ، خطير وقتال ينتج عنه إلتهاب شديد الألم، ويصبح ما حوله في الغالب أسود أو أخضر أو أكمد اللون، ويئول أمره إلي تقرح سريع[5]، ذكر النووي بأن الطاعون هو:(قروح تخرج في الجسد فتكون في الآباط أو المرافق أو الأيدي أو الأصابع وسائر البدن، ويكون معه ورم وألم شديد، وتخرج تلك القروح مع لهيب، ويحصل معه خفقان القلب والقيء)[6]، وفي

---

[1] أبن منظور، محمد بن مكرم بن علي(ت711هـ): لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 2000م، 12جزء، ج9، ص122، باب طعن.

2/ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد(671هـ): **الجامع لأحكام القرآن الكريم(تفسير القرطبي)**، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، مؤسسة الرسالة للنشر، بيروت، لبنان، 1427هـ/ 2006م، 24 مُجلد، مجلد3، ص234، أنظر أيضاً أبن حجر العسقلاني، شهاب الدين بن أحمد بن علي(ت852هـ): **فتح الباري(شرح صحيح البخاري)**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1379هـ، 13 جزء، ج10، ص180.

3/ أنيس، إبراهيم وآخرون: **المعجم الوسيط**، ط4، مجمع اللغة العربية ومكتبة الشروق للنشر، القاهرة، مصر، 2004م، ص549.

4/ أبن حجر العسقلاني: **فتح الباري**، مصدر سبق ذكره، ج10، ص180.

5/ أبن القيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر(ت751هـ): **الطب النبوي**، ط1، تحقيق سيد إبراهيم، دار الحديث للنشر، القاهرة، مصر، 2004م، ص32-33.

6/ النووي، أبو زكريا محي الدين يحي بن شرف(ت676هـ): **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، ط2، دار أحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1392هـ، 9مجلدات، ملجد14، ص204.

الأثر عن السيدة عائشة(ﷺ)، أنها قالت للنبي(صلي الله عليه وسلم):(الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال عليه الصلاة والسلام: غُدة كغُدة البعير يخرج في المراق والإبط)[1]، ويري أبن القيم الجوزية أن هنالك فرق بين الوباء والطاعون، فذكر بأن بين الوباء والطاعون عموماً وخصوصاً؛ فكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعوناً، وكذلك الأمراض العامة أعم من الطاعون؛ فإنه واحد منها، وذكر بأن هنالك خلط بين الطاعون وأثاره، فقال:(هذه القروح والأورام والجراحات هي أثار الطاعون، وليست نفسه، ولكن الأطباء لما لم تدرك منه إلاَّ الأثر الظاهر جعلوه نفس الطاعون)[2]، ولعله أراد من ذلك بأن يكون الطاعون من الأوبئة.

كما عرفه أبوبكر الرازي(ت313هـ/923م)، بقوله:(الطواعين ورم حار يعرض في الأربيات والإبط، ويقتل في أربعة أو خمسة أيام)[3]، أمَّا أبن سينا(ت427هـ/ 1037م)، فقد فسر المعني الإصطلاحي للطاعون قائلاً:(كان أقدم القدماء يسمون ما ترجمته بالعربية الطاعون كل ورم في الأعضاء الغددية اللحم والخالية، أمَّا الحساسة مثل اللحم الغددي الذي في البيض والثدي وأصل اللسان، وأمَّا التي لا حس لها مثل اللحم الغددي الذي في الإبط والأريبة ونحوها)[4]، أمَّا أبن حجر فقد عرف الطاعون إصطلاحاً بقوله:(هو في حقيقته ورم ينشأ عن هيجان الدم، أو إنصباب الدم إلي عضو فيفسده، وإن غير ذلك من الأمراض العامة الناشئة عن فساد الهواء يُسمي طاعوناً بطريق المجاز، وذلك لإشتراكهما في عموم المرض به أو كثرة الموت)[5].

3/ تعريف الطاعون طبياً: يُعد مرض الطاعون (حمي الطاعون أو الموت القاتل)، من الأمراض البكتيرية الحادة، والقاتلة المتناقلة بين الحيوان والإنسان، وهو من الأمراض بالغة الخطورة المعروفة منذ عهود، ينجم مرض الطاعون عن بكتيريا كانت تُعرف بأسم(باستيرلا بستس- **Pasteurelle Pestis**)، ثم تم تحويل أسمها في عام 1984م إلي (يرسيتيا بستس- **Yersinia Pestis**)، وذلك تخليداً للعالم الفرنسي الأكساندر

1/ أبن القيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر(ت751هـ): **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ط27، مؤسسة الرسالة، بيروت -مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، 1415هـ/ 1994م، 5 أجزاء، ج4، ص38.

2/ المصدر نفسه، ص38.

3/ الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا(313هـ): **الحاوي في الطب**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1421هـ/ 2000م، 8 أجزاء، ج5، ص8.

4/ أبن سينا، الحسين بن علي بن سينا أبو علي(ت427هـ): **القانون في الطب**، تحقيق محمد أمين الضناوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1420هـ/ 1999م، 3 مجلدات، مج 3، ص164-165.

5/ أبن حجر العسقلاني: **فتح الباري**، مصدر سبق ذكره، ج10، ص205.

يرسين الذي يُعد أول مكتشف لتلك البكتيريا عام 1894م[1]، وتتواجد هذه البكتيريا في أجساد بعض القوارض كالفئران والجرذان، ثم يأتي دور البراغيث التي تصاب بها ثم تقوم بدورها في نقل عدوى الطاعون إلى الناس[2]، وذكر النووي في تعريف الطاعون طبياً:(هو بثر مؤلم جداً يخرج مع لهب ويسوَدُّ ما حواليه، أو يخضر، أو يحمر حمرة بنفسجية كدرة، ويحصل معه خفقان القلب، والقيء، ويخرج في المراق والآباط غالباً، والأصابع وسائر الجسد)[3].

4/ مُسببات الطاعون: مما لا شك فيه أن البشرية أتفقت عبر الأجيال المختلفة بأن مرض الطاعون هو مرض مُعدي، فكان الناس يتوقون مخالطة المريض أو القرب منه منذ زمن قديم، وقد ذكر المُفسرون في تفسير قصة سيدنا إبراهيم(عليه السلام)،والتي وردت في القران الكريم:﴿فنظر نظرة فِي النُّجُومِ(88) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ(89)﴾[4]، أي أنه تظاهر بأنه مطعون فتركوه مخافة الطاعون، وقد روي ذلك أبن عباس(ﷺ)،وغيره من السلف[5]، وذكر أبن النفيس(ت852هـ/ 1448م)، أن الأسباب التي تؤدي إلي حدوث الطاعون بقوله:(يُسببه فساد يعرض لجوهر الهواء لأسباب سماوية، أو أرضية كالماء الآسن، والجيف الكثيرة كما في الملاحم)[6]، وذكر الرازي في ذلك بقوله:(يعرض مع الطاعون الوبائي إختلاط العقل، وبرد الأطراف، وأختلاف المرار ونزفه، ووجع البطن وتمدده، وبراز مري ونفخ، وأبوال مائية دقيقة ومرارية، وسدد ورعاف، وحرارة في الصدر وكرب، وسواد اللسان، وعطس وسقوط الشهوة، وأشياء أخرى رديئة)[7]، كذلك من المُسببات الرئيسية لنقل وإنتشار مرض الطاعون التلوث الذي يحدث في مياه الأنهر والترع والجداول، والتي تعتبر هي المصدر

1/ بابكر، صلاح الدين حسن: **الطاعون**، مقالة علمية منشورة بمجلة العلوم والتقنية، مجله فصلية تصدر عن مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، مجلة علمية فصلية، العدد 91، رجب 1430هـ، ص55.

2/ إبراهيم، عبد العزيز الطيب: **الطاعون**، في كتاب الأمراض المشتركة بين الإنسان والحيوان، إدارة التعريب، جامعة الخرطوم، السودان، ص91.

3/ النووي، أبو زكريا محي الدين يحي بن شرف(ت 676هـ): **تهذيب الأسماء واللغات**، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنا، 1996م، 4 مجلدات، مج3، ص177.

4/ سورة الصافات، الآيتين 88-89.

5/ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي(ت310هـ): **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)**، ط1، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 26 مجلد، مج23، ص70.

6/ أبن حجر العسقلاني، شهاب الدين بن أحمد بن علي(ت852هـ): **بذل الماعون في فضل الطاعون**، تحقيق: أبو إبراهيم كيلاني محمد خليفة، ط1، دار الكتب الأثرية، 1413هـ/ 1993م، ص48.

7/ الرازي: مصدر سبق ذكره، ج4، ص431.

الرئيسي لمياه الشرب بالنسبة للإنسان والحيوان، وتلوثها يؤدي إلي أنتشار الأمراض الباطنة والمعدية، وتتلوث مياه الأنهار والجداول والترع بسبب إستحمام وإغتسال أشخاص مُصابين بأمراض مُعدية، بالإضافة إلي غسل الملابس والمواد الغير نظيفة بها[1]، كذلك يُعتبر المناخ عاملاً رئيسياً في البيئة المُسببة للأمراض، إذ تؤثر تقلباته في الصحة العامة للأفراد، كذلك لا نغفل الدور الكبير للحيوانات والحشرات كوسيط في نقل الأمراض المعدية والوبائية[2]، ويُعبر عن الطاعون بثلاثة أمور هي:

(أ) هذا الأثر الظاهر، وهو الذي ذكره الأطباء.

(ب) الموت الحادث عنه، وهو المراد بالحديث الصحيح في قوله:(الطاعون شهادة لكل مسلم)[3].

(ت) الأمر الثالث الفاعل لهذا الداء ورد في الحديث الصحيح:(عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد، ماذا سمعت من رسول الله (صلي الله عليه وسلم)، في الطاعون؟ فقال أسامة: قال رسول الله(صلي الله عليه وسلم): الطاعون رجس أُرسل على طائفة من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم.)[4]، وقيل:(أنه وخز أعدائكم ن الجن)[5]، كما جاء:(أنه دعوة نبي)[6].

5/ أنواع الطاعون: ينقسم مرض الطاعون إلى ثلاثة أنواع هي: -

(أ) الطاعون الدبلي(الدملي – الغددي bubonic plague): هو أكثر الأنواع حدوثاً، ينتقل المرض بين القوارض كالفئران، حيث ينتقل فيما بينها بواسطة البراغيث التي تسبب لها الوفاة، وعند حدوث الأوبئة تنتقل هذه البراغيث من أجسام القوارض الميتة وتهاجم جسم الإنسان لتتغذي على دمه، وتصبح مُعدية لعدة أشهر لاحقة، ومن الأعراض المميزة له إصابة المريض بالحُمى والصداع، وتورمات مؤلمة في الغُدد الليمفاوية للفخذ والإبط والرقبة[7]، وفترة الحضانة يوم حتى أسبوع، وتحدث الوفاة خلال أيام قليلة،

1/ البدوي، عبد اللطيف: **الطب في العراق القديم**، دط، دن، بغداد، العراق، 2000م، ص24.

2/ عبد الرحمن، يونس: **الطب في العراق القديم**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، العراق، 1989م، ص115.

3/ أبن حجر العسقلاني: **فتح** الباري، مصدر سبق ذكره، ج10، ص180.

4/ المصدر نفسه، ص180.

5/ البيهقي، أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي(ت458هـ): **السنن الكبرى**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ/ 2003م، ص30.

6/ خبر:(أن الطاعون دعوة نبي)، ورد من حديث أبي منيب الأحدب قال:(خطب معاذ بالشام فذكر الطاعون، فقال: إنها رحمة ربكم ودعوة نبيكم)، أخرجه أحمد (5 / 240).

المكتبة الشاملة الحديثة على الإنترنت، https://al-maktaba.org/ / الموسوعة الفقهية الكويتية.

7/ المرسي والشاذلي، علي على المرسي ومحمد محمد الشاذلي: **أساسيات علم الحشرات**، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1425هـ/ 2004م، ص455.

ويمتاز بضخامة العقد اللمفية وخاصة المغبنية، والفخذية ثم الإبطّية والرقبية، وتكون العُقد المصابة مؤلمة ومتضخمة)[1].

(ب) الطاعون الرئوي Pulmonary plague: هو أكثر أنواع الطواعين خطورة وذلك لسهولة إنتقاله وإنتشاره بين المُخالطين للمريض خاصة في الظروف المناخية والبيئية غير الصحيحة، وهذا النوع قد ينتقل من إنسان لأخر عبر الهواء، وذلك حين يستنشق ذرات الهواء الملوثة بالجراثيم عن طريق العُطَّاس أو السُعال أو البُصاق، وينتقل أيضاً عن طريق فضلات الشخص المريض إلي الشخص السليم[2]، وهو نوع كاسح من الطاعون يقضي على المريض خلال ثلاثة أيام، ويمتاز بالحُمّى المرتفعة وتسرع القلب والتنفس، ويُصاب المريض بذات الرئة مع نفث الدم والصداع والآلام العضلية، وسعال مصحوب ببصاق ملوث بالدم[3].

(ت) الطاعون الدموي (التسممي-العفني) Bloody plague: يحدث هذا النوع من المرض حينما يتم تكاثر الجرثومة داخل الدورة الدموية، وقد يكون ثانوياً للإصابة بالطاعون الرئوي أو الدبلي، أو يحدث دون أرتباط بينهما، والطاعون العفني لا ينتقل من إنسان لأخر[4]، ومن الأعراض المميزة لهذا النوع إصابة المريض بالحُمى وهبوط حاد في القلب، والآلام في البطن، وصدمة عصبية مع بُقع دم تحت الجلد تشبه الكدمات[5].

ذكر الرازي في كتابه الحاوي عن أنواع الطاعون، وقسمهم إلي أربعة أنواع: طاعون أسود، وأخضر، وأحمر، وأبيض، وأصفر فقال:(والطاعون الرديء هو الأسود، والطاعون الأحمر أقل شراً على أنه ربما قتل، ولا يكاد ينجو من الأسود والأخضر أحد، وكذلك الحصبة والجدري وسائر ما يثور، وما كان منه أسود وأخضر فإنه في الغاية من الرداءة، والأصفر ردئ ولكنه دونهما، والأحمر والأبيض سليمان)[6]، أمَّا أبن سينا فقد ذكر عن أنواعه فقال:(وأردؤه ما يقع في الأعضاء الرئيسية، والأسود منه قل من يسلم منه، وأسلمه الأحمر ثم الأصفر، والطواعين تكثر في عند الوباء في البلاد الوبئة)[7].

1/ صلاح، محمد حمزة محمد: **الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر(491-923هـ/1097-1517م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، تخصص تاريخ إسلامي، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، 1430هـ/2009م، ص19.

2/ أبو الحب، جليل: **الحشرات الناقلة للأمراض**، دط، إصدارات عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، 1982م، ص63.

3/ بابكر: مرجع سبق ذكره، ص57.

4/ أبو الحب: مرجع سبق ذكره، ص63.

5/ صلاح: مرجع سبق ذكره، ص19-20.

6/ الرازي: مصدر سبق ذكره، ج5، ص8.

7/ أبن سينا: مصدر سبق ذكره، ج3، ص164-165.

مما سبق نلاحظ بأن هذه الأنواع من مرض الطاعون تختلف عن بعضها البعض في طرق أنتقالها وإنتشارها، ومُسبباتها، وأثارها الجانبية.

ثانياً/ الطاعون في السُنة النبوية الشريفة: -

1/ ذكر الطاعون: -

لقد عرف الإسلام ما يُعرف بالحجر الصحي منذ زمن النبي(صلي الله عليه وسلم)، فقد بين النبي الكريم(صلي الله عليه وسلم)، مبادئ الحجر الصحي من أجل الوقاية من الطاعون، وذلك عندما منع دخول الناس إلي البلدة المُصابة بالطاعون، وكذلك منع ساكنيها من مغادرتها أو الخروج منها،وذلك لما روي: حدثنا يحيى بن يحيى، قال: قرأت على مالك، عن محمد بن المُنكير، وأبي النضر، مولى عمر بن عُبيد اللَّه، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أَبيه، أنه سمعه يسأَل أسمة بن زيد: ماذا سمعت من رسول اللَّه(صلي الله عليه وسلم)، في الطاعون؟ فقال أُسامة: قال رسُول اللَّه(صلي الله عليه وسلم)،: الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه، وقال أبو النضر: لا يُخرجكم إلاَّ فِراراً منه)[1]، ولعل النبي(صلي الله عليه وسلم)، أجبر المسلمين على البقاء في البلدة الموبوءة وعدم مغادرتها، وذلك لأن خروجهم منها سيجعلهم ينقلون المرض إلي المُدن الأخرى، والأمصار المُختلفة، ولعل في ذلك أول إشارة إلي مفهوم الحجر الصحي في تاريخ البشرية، كما أنه يمكننا القول بأن الخوف من غير الله تعالى لا يكون حراماً إن كان غير مانعٍ من فعل واجبٍ أو ترك محرَّم، وكان مما جرت العادة بأنه سبب للخوف كالخوف من الأسود والحيات، والعقارب والظلمة..ألخ، ومن ذلك الخوف من أرض الوباء؛ وهو ما نهنا به النبي(صلي الله عليه وسلم)، وبالتالي فإن الخوف حينئذٍ يكون واجب.

ومما يستدل به على وجوب الخوف من الطاعون والأوبئة، حديث رُوْي عن جابر بن عبد الله: أنه كان في وفد ثقيف رجلٌ مجذوم، جاء ليبايع النبي(صلي الله عليه وسلم)، فأرسل إليه النبي(صلي الله عليه وسلم)، قائلاً:(أرجع فقد بايعناك)[2]، وعن أبي هريرة(ﷺ)، قال: قال رسول الله (صلي الله عليه وسلم)،:(لا يُوردِنّ ممرض على مصح)[3].

1/ مسلم، أبو الحسن بن الحجاج القشيري النيسابوري(ت261هـ): **صحيح مسلم**، د ط، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د ت، 5 أجزاء، ج3، ص105، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة، حديث رقم(2218).

2/ مسلم: مصدر سبق ذكره، ج3، ص105، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة، حديث رقم(2231).

3/ المصدر نفسه، حديث رقم(5374).

كما أن الطب الحديث أكد لنا أن الشخص السليم الموجود في المنطقة الموبوءة قد يكون حاملاً لميكروب المرض، من غير أن تظهر عليه أعراض المرض، إضافة إلى ذلك فإنه ليس كل من يدخل في جسمه الميكروب يمرض[1]، وقد يكون الميكروب لدي الشخص المُصاب لازال في طور الحضانة، وهي الفترة التي تسبق ظهور أعراض المرض على الشخص المُصاب، وخلال هذه الفترة يكون إنقسام الميكروب وتكاثره على أشده، ورغم ذلك لا يبدو على الشخص المُصاب أنه يُعاني من المرض، وبالتالي يُمكن أن يصبح سبباً في نقل المرض إلى غيره من الأصحاء[2].

وحدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن نعيم المجمر عن أبي هريرة (ﷺ)، قال: قال رسول الله(ﷺ):(لا يدخل المدينة المسيح ولا الطاعون)[3]، وكذلك من رحمة الله تعالي وفضله على هذه الأمة أن جعل هنالك شُهداء غير الذين قتلوا في المعارك دفاعاً عن دينهم وعِرضهم، ومن ضمنهم المسلم الذي يموت متأثراً بمرض الطاعون، وذلك لما جاء في حديث النبي(صلي الله عليه وسلم)، الذي أخرجه البخاري، حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا عبد الواحد حدثنا عاصم حدثتني حفصة بنت سيرين قالت: قال: لي أنس بن مالك(ﷺ)، يحيى بم مات قلت من الطاعون قال: قال: رسول الله(ﷺ):(الطاعون شهادة لكل مسلم)[4]، وكذلك عنْ أبي هريرة، قال: قال رسول اللَّه(صلي الله عليه وسلم)،:(الشُّهداء خمسة: المطعُون، والمبْطُون، والغَرِيق، وصاحب الهدم والشهيد في سبيل اللَّه)[5]، متفقٌ عليهِ، وحدثنا أبو عاصم عن مالك عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة(ﷺ)، عن النبي(ﷺ)، قال:(المبْطُون شهيد والمطعون شهيد)[6]، والمبْطُون: هو ممن به داء البطن، عدم إمكان إمساك غائطه[7]، وحدثنا إسحاق، أخبرنا حبان، حدثنا داؤود بن أبي الفرات، حدثنا عبد الله بن بريدة عن يحي أبن يعمر عن عائشة(ﷺ)، أنها أخبرتنا أنها سألت رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، عن الطاعون فأخبرها نبي الله(ﷺ)، أنه كان عذاباً يبعثه الله على من يشاء، فجعله الله رحمةً للمؤمنين، فليس من عبدٍ يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً يعلم

1/ عبد الله، عمر محمود: **الطب الوقائي في الإسلام**، ط1، مطبعة الزهراء للطباعة والنشر، الموصل، العراق، 1988م، ص78.

2/ المرجع نفسه، ص78-79.

3/ أبن حجر العسقلاني: **فتح الباري**، مصدر سبق ذكره، ج10، ص201، كتاب الطب، باب ما يُذكر في الطاعون.

4/ البخاري: مصدر سبق ذكره، مجلد 5، ص2165، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، حديث 5400.

5/ موقع الإمام أبن باز https://binbaz.org.sa/

6/ أبن حجر العسقلاني: **فتح الباري**، مصدر سبق ذكره، ج10، ص202، كتاب الطب، باب ما يُذكر في الطاعون.

7/ قاموس المعاني https://www.almaany.com/

أنه لن يصيبه إلاَّ ما كتب الله له إلاَّ كان له مثل أجر الشهيد)[1].

وقد حث النبي(ﷺ)، على اتخاذ أسباب الوقاية من العدوى، ومنها الحديث الصحيح قال رسول الله (ﷺ): (غطوا الإناء وأوكئوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء، لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء، إلا نزل فيه من ذلك الوباء)[2]،ويستدل من هذا الحديث وجوب أخذ الحذر حين ينزل الوباء بشتى الأسباب المعينة عليه: مثل تغطية الأواني والأطعمة المكشوفة، وحفظها في الثلاجات، وأخذ المطاعيم الوقائية، والتداوي، ولبس الكمامات الواقية، والعناية بالنظافة الشخصية، وغسل الخضار والفواكه، والطهي الجيد للطعام، وغلي ماء الشرب، والحجر الصحي على المصابين..ألخ، ولعل مما سبق ذكره يتضح لنا الرؤية النبوية في تعريف الطاعون وتوضيح طُرق الوقاية والبُعد من الإصابة به.

2/ الأحكام النبوية في الطاعون: -

ولعل الهدي النبوي الشريف في مسألة المنع من الدخول إلى الأرض التي قد وقع بها الطاعون والفرار منها يظهر في عُدة أحكام هي:

أ/ الحكمة من منع الخروج من البلد الذي فيه الطاعون: لأن الطاعون في الغالب يكون عاماً في البلد الذي يقع به فإذا وقع فالظاهر مداخلة سببه لمن بها، فلا يُفيده الفرار، لأن المفسدة إذا تعينت – حتى لا يقع الانفكاك عنها – كان الفرار عبثا فلا يليق بالعاقل، ومنها: أن الناس لو تواردوا على الخروج لصار من عجز عنه – بالمرض المذكور أو بغيره – ضائع المصلحة لفقد من يتعهده حياً وميتاً، وأيضاً فلو شرع الخروج فخرج الأقوياء لكان في ذلك كسر قلوب الضعفاء، وقد قالوا: إن حكمة الوعيد في الفرار من الزحف ما فيه من كسر قلب مَن لم يفر وإدخال الرعب عليه بخذلانه، ومنها حمل النفوس على الثقة بالله، والتوكل عليه، والصبر على أقضيته والرضا بها[3].

ب/ الحرص على عدم انتشار العدوى في البلاد غير الموبوءة: ذكر ابن الأثير:(أنه حين أصاب المسلمين طاعون عمواس، خرج بهم عمرو بن العاص(ﷺ)، إلى الجبال، وقسمهم إلى مجموعات، ومنع أختلاطهم ببعضهم البعض، وظلت المجموعات في الجبال فترة من الزمن، حتى أستشهد المصابون جميعاً، وعاد بالباقي إلى المدن)[4]، والمنع من دخول المناطق

1/ أبن حجر العسقلاني: **فتح الباري**، مصدر سبق ذكره، ج10، ص203، كتاب الطب، باب أجر الصابر في الطاعون.

2/ موقع الدرر السُنية على الأنترنت https://dorar.net/hadith/sharh

3/ أبن حجر العسقلاني: **فتح الباري**، مصدر سبق ذكره، ج10، ص189.

4/ أبن الأثير، أبو الحسن عز الدين على بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري: **الكامل في**

الموبوءة بالطاعون والخروج منها هو ما يسمى في عصرنا الحالي:(الحجر الصحي)، بحيث يمتنع انتقال المرض بالعدوى من الشخص المريض إلى السليم.

ت/ القدوم على بلد انتشر فيه الطاعون والخروج منه(الحجر الصحي): يرى جمهور العلماء منع القدوم على بلد الطاعون ومنع الخروج منه فراراً من ذلك، لقول النبي(صلى الله عليه وسلم):(الطاعون آية الرجز أبتلى الله عز وجل به أناساً من عباده، فإذا سمعتم به فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تفروا منه) [1]، وأخرج مسلم من حديث عامر بن سعد أن رجلاً سأل سعد بن أبي وقاص(ﷺ)، عن الطاعون، فقال أسامة بن زيد(ﷺ)، أنا أخبرك عنه، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):(هو عذاب أو رجز أرسله الله على طائفة من بني إسرائيل أو ناس كانوا قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوها عليه، وإذا دخلها عليكم فلا تخرجوا منها فراراً) [2]، وأخرج أحمد من حديث السيدة عائشة (ﷺ)، مرفوعاً: قلت: يا رسول الله فما الطاعون؟ قال: غدة كغدة الإبل، المقيم فيها كالشهيد، والفار منها كالفار من الزحف)[3]، كما أن النبي(صلي الله عليه وسلم)، دعي إلي حماية النفوس من الطيرة والعدوى؛ فإنها تتأثر بهما، فإن الطيرة على من تطير بها، وبالجملة ففي النهي عن الدخول في أرضه الأمر بالحذر والحمية، والنهي عن التعرض لأسباب التلف، وفي النهي عن الفرار منه الأمر بالتوكل والتسليم والتفويض، فالأول: تأديب وتعليم، والثاني تفويض وتسليم[4]، ولعل المقصود به من الأحاديث النبوية السابقة أنه إذا وقع الوباء ببلد فلا يجوز الخروج من البلد الذي وقع فيه و لا يجوز الدخول إليه، حتى ينتهي الوباء ويرتفع البلاء، وهذا مفهوم من الحديث، ولعل وحكمة المنع من الخروج حتى لا ينتشر المرض، ويتمَّ السيطرة عليه، وهذه إجراءات وقائية وتدابير احترازية،ولعل المنع من دخول المناطق الموبوءة بالطاعون والخروج منها هو ما يسمى في عصرنا الحالي (الحجر الصحي)، بحيث يمتنع انتقال المرض بالعدوى من الشخص المريض إلى السليم.

قال أبن القيم: وفي المنع من الدخول إلى الأرض التي قد وقع بها الطاعون عدة حكم:

التاريخ، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، د ط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1407ه/1987م، ج5، ص201-202.

1/ أبن حجر العسقلاني: **فتح الباري**، مصدر سبق ذكره، ج10، ص179، كتاب الطب، باب أجر الصابر في الطاعون.

2/ المصدر نفسه، ج6، ص513.

3/ الهيثمي، علي بن أبي بكر بن سليمان:**مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تحقيق، حسام الدين القدسي، دط، مكتبة القدسي، القاهرة، مصر، 10 مجلدات، 1987م، مج6، ص230.

4/ أبن القيم الجوزية: **زاد الميعاد**، مصدر سبق ذكره، ج4، ص44-45.

* تجنب الأسباب المؤذية، والبعد منها.
* الأخذ بالعافية التي هي مادة المعاش والمعاد.
* أن لا يستنشقوا الهواء الذي قد عفن وفسد فيصيبهم المرض.
* أن لا يجاوروا المرضى الذين قد مرضوا بذلك، فيحصل لهم بمجاورتهم من جنس أمراضهم (يُقصد بها العدوى).
* حماية النفوس عن الطيرة والعدوى؛ فإنها تتأثر بهما، فإن الطيرة على من تطير بها، وبالجملة ففي النهي عن الدخول في أرضه الأمر بالحذر والحمية، والنهي عن التعرض لأسباب التلف، وفي النهي عن الفرار منه الأمر بالتوكل والتسليم والتفويض، فالأول: تأديب وتعليم، والثاني تفويض وتسليم[1].

وذكر النووي في القدوم على البلد الموبوءة والفرار منها لظاهر الأحاديث الصحيحة. قال العلماء: وهو قريب المعنى من قوله(ﷺ): " لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فأصبروا[2]"، كذلك جاء هدى النبي (صلي الله عليه وسلم)، وتعليماته في منع أهل البلد المُصابة من أن يخرجوا منها فراراً من الوباء تشريعاً رائعاً، ومُعجزة علمية تجلت حقيقتها اليوم، وبعد مضي أكثر من 14 قرن من الزمان، ولذلك نجد أن المنع كان شديداً وصيغته مُخيفة ومُرعبة، حيث أعتبر النبي(صلي الله عليه وسلم)، كالفرار من الزحف الذي يُعتبر من كبائر الذنوب، قال(صلي الله عليه وسلم)، في الحديث الذي رواه جابر عن الإمام أحمد :(الفار من الطاعون كالفار من الزحف)[3].

ث/ أجر الصبر على الطاعون: وعن عُتبة بن عبد السلمي عن النبي(صلى اللَّه عليه وسلم)، قال:(يأْتي الشهداء والمتوفون بالطاعون فيقول أَصحاب الطاعون نحن شهداء فيقال انظروا فإِن كانت جراحهم كجراح الشهداء تسيل دما ريح المسك فهم شهداء فيجدونهم كذلك)[4]، ومما سبق يُفهم من سياق تلك الأحاديث التي تحدثت عن شهادة المسلم المُصاب بالطاعون، أن حصول أجر الشهادة له مُقيد بما يلي: -

* أن يمكث صابراً غير منزعج بالمكان الذي يقع به الطاعون فلا يخرج فراراً منه.
* أن يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له.

فلو مكث وهو قلق أو نادم على عدم الخروج ظناً منه أنه لو خرج لما أصابه الطاعون، وأنه بإقامته تلك حصلت الإصابة،

1/ المصدر نفسه، ص44-45.

2/ النووي: **المنهاج**، مصدر سبق ذكره، ج14، ص205-206.

3/ الساعاتي، أحمد عبد الرحمن البنا: **الفتح الرباني لترتيب مسد الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**، ط2، دار أحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دت، 24 جزء، ج14، ص36.

4/ الطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي (المتوفى: 360هـ) : **المعجم الكبير**، ط2، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة أبن تيمية، القاهرة، مصر، 1415هـ/ 1994م، 25 جزء، ج10، ص159-160.

فهذا لا يحصل له أجر الشهيد ولو مات بالطاعون، هذا الذي يقتضيه مفهوم تلك الأحاديث ولعلها ربطت ما بين الشهادة والصبر على الإبتلاء.

الله سبحانه وتعالي جعل هذا المرض بلاءً للمؤمنين والكافرين على حدٍّ سواء، على أنه للمؤمنين رحمةً، ولمن سواهم عذابٌ ونقمة، وقد ورد في ذلك: حدثنا إسحق، أخربنا حبان، حدثنا داؤود بن أبي الفرات، حدثنا عبد الله بن بريدة عن يحي أبن يعمر: عن السيدة عائشة(ﷺ)، أنها سألت رسول الله(ﷺ)، عن الطاعون، فقال:(إنه كان عذاباً يبعثه الله على من يشاء، فجعله الله رحمةً للمؤمنين)، رواه البخاري[1].

ج/ حكم الخوف من العدوى: الخوف من غير الله تعالى لا يكون حراماً إن كان غير مانعٍ من فعل واجبٍ أو ترك محرَّم، وكان مما جرت العادة بأنه سبب للخوف كالخوف من الأسود والحيات، والعقارب والظلمة.. ألخ، ومن ذلك الخوف من أرض الوباء؛ لقول النبي(صلى الله عليه وسلم):(إذا سمعتم بالطاعون في الأرض فلا تدخلوها)، [2]، ويكون الخوف حينئذٍ واجب، قال المناوي: ومن ذلك الخوف من المجذوم على أجسامنا من الأمراض والأسقام وفي الحديث:(فِرَّ من المجذوم فِرَارك من الأسد)[3]، فصون النفوس والأجسام والمنافع والأعضاء والأموال والأعراض عن الأسباب المفسدة واجب.

ومما يستدل به في ذلك موقف النبي (صلي الله عليه وسلم)، حيث يحكى الشريد بن سويد الثقفي[4]، أنه كان في وفدٍ من قبيلة ثقيف رجل مَجذُوم-أي مُصاب بمرض الجُذَامِ، وهو مرض مُعْدٍ، وأراد هذا المَجْذُوم أن يأتي النبي(صلي الله عليه وسلم)، ليُبايعه على الإسلام والجهاد في سبيل الله، فأرسل إليه النبي(صلي الله عليه وسلم): ((إنَّا قد بَايَعْناك فأرْجِعْ))، أي بالقول من غير أخذ اليد في

1/ البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي(ت870م): **صحيح البخاري**، ط1، تحقيق محمد حجازي، مؤسسة المختار، القاهرة، مصر، 2008م، 9 أجزاء، ص809، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، حديث رقم(5734).

2/ أبن حجر العسقلاني: **فتح الباري**، مصدر سبق ذكره، ج10، ص179، كتاب الطب، باب أجر الصابر في الطاعون.

3/ المناوي، محمد عبد الرؤوف: **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، ط2، دار المعرفة (مصورا عن طبعة المكتبة التجارية الكبرى 1357هـ)، بيروت، لبنان، 1391هـ/ 1971م، 6 مجلدات، مج2، ص163.

4/ الشَّرِيد بن سُوَيْد الثَّقَفِي:قيل: إنه من حضرموت، ولكن عداده في ثقيف، لأَنَهم أَخواله، وقيل: أنأسمه مالك، وهو من بني قُسْحُم بن جُذام بن الصَّدِف، وكان قد قتل قتيلًا من قومه فلحق بمكة، فحالف بني حُطَيط بن جُشَم بن ثَقِيف، ثم وفد إلى النبي(صَلَّى الله عليه وسلم)، فأَسلم، وبايعه بيعة الرضوان، وسماه رسول الله (صَلَّى الله عليه وسلم)، الشريد، وهو زوج رَيْحانة بنت أَبي العاص بن أَمية.

أبن الأثير، أبو الحسن عز الدين على بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري: **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ط 1، دار أبن حزم للنشر، بيروت، لبنان، 1433هـ/ 2012م، 1مج، ص132.

العهد،وحُمِلَ الأمرُ بإجتنابه على الإستحباب والإحتياط لا الوجوب[1]، وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله(ﷺ):(لا يُورِدَنّ ممرض على مصح)[2]، وقد حث النبي(ﷺ)، على أتخاذ أسباب الوقاية من العدوى، ومنها الحديث الصحيح قال: رسول الله (ﷺ):(غطوا الإناء وأوكئوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء، لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء، إلاَّ نزل فيه من ذلك الوباء)[3]، ويستدل من هذا الحديث وجوب أخذ الحذر حين ينزل الوباء بشتى الأسباب المعينة عليه: مثل تغطية الأواني والأطعمة المكشوفة، وحفظها في الثلاجات، وأخذ المطاعيم الوقائية، والتداوي، ولبس الكمامات الواقية، والعناية بالنظافة الشخصية، وغسل الخضار والفواكه، والطهي الجيد للطعام، وغلي ماء الشرب، والحجر الصحي على المصابين.. الخ.

ثالثاً: الطاعون تاريخياً: -

1/ الطاعون في قبل عصر دولة الخلافة الراشدة:

الطاعون يُعتبر من الأوبئة القديمة التي عرفها الإنسان القديم، ويرجع تاريخ معرفة الإنسان بالطاعون إلي ثلاثة آلاف سنة على الأقل، وأول وصف للطاعون معروف إلى الآن هو الذي سجّله قدماء المصريين على أوراق البردي[4]، كما حدث طاعون مُريع عام 542ق.م، وأكتسح شمال أفريقيا وأوروبا وآسيا(أي العالم القديم)، وأستمر ذلك الطاعون ينتشر حوالي الخمسين عاماً، وأصيب منه حوالي مائة مليون شخص تقريباً، وكاد أن يُبيد أكثر من نصف سكان العالم أنذاك[5]، وتذكر المراجع أن هذا الوباء تفشي في الصين سنة 224ق.م[6]، كما تفشي هذا الوباء في مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية في سنة 451م، وأستمر حتى السنة التي تلتها، وراح ضحيته حوالي الـ200ألف شخص، أو40% من سكان المدينة، وسُمِّي ذلك الطاعون بـ(Justinian)[7]، على أسم

1/ موقع الدُرر السنية على الأنترنت https://www.dorar.net/hadith/sharh

2/ مسلم: مصدر سبق ذكره، ج3، ص105، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة، والعدوى، حديث رقم(4235).

3/ المصدر نفسه، حديث رقم (2221).

4/ رضا، صالح بن أحمد: **الإعجاز العلمي في السنة النبوية**، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، 2 جزء، 1421هـ/ 2001م، ج2، ص550.

5/ إبراهيم، عبد العزيز الطيب: **الطاعون في كتاب الأمراض المُشتركة بين الإنسان والحيوان**، ط1، إدارة التعريب جامعة الخرطوم، السودان، 1994م، ص92.

6/ رضا، المرجع السابق، ج2، ص550.

7/ الإمبراطور جستنيانJustinian:كان إمبراطوراً رومانياً شرقياً (بيزنطينياً)، حكم منذ أغسطس عام 527م حتى وفاته في نوفمبر565م، وأشتهر بإصلاحه الرمز القانوني المسمي بقانون جستنيان خلال لجنةتريبونيان، والتوسع العسكري للأرض الإمبراطورية أثناء عهده، وزواجه وشراكته

الإمبراطور البيزنطي[1]، ظهر مرض الطاعون لأول مرة في عام 542م، وقيل أنه بدأ من مصر التي كانت آنذاك مُلتقي خطوط التجارة العالمية، وأمتد إلي مساحات واسعة شملت قارة أسيا كلها شرقاً إلي أيرلندا غرباً، وحصد ما يُقارب من 50% من سُكان المناطق[2].

وفي سنة6هـ/627م، في عهد النبي(صلي الله عليه وسلم)، وقع طاعون شيرويه في مدينة المدائن عاصمة الدولة الساسانية، وسُمي بهذا الإسم نسبةً لمقتل الملك الساساني شيرويه[3]، وقيل إنه وقع بنواحي بلاد العراق، وذكر المدائني: أن طاعون شيرويه هُلك فيه الأساورة والفرس[4]، وقد أختلف المؤرخون في تسمية طاعون شيرويه أول طاعون وقع في عهد الدولة الإسلامية، فأغلبهم أعتمدوا طاعون شيرويه كأول طاعون، أمّا الذين أعتمدوا طاعون عمواس كأول طاعون وقع في عهد الدولة الإسلامية، ولعل أصحاب هذا الرأي على أن طاعون شيرويه وقع في مدينة المدائن عاصمة الدولة الفارسية الساسانية.

2/ الطاعون في عصر دولة الخلافة الراشدة:

أ/ طاعون عمواس[5]: حدث في زمن خلافة عمر بن الخطاب (ﷺ)، وكان ذلك في عام 18هـ/639م، وهو شيءٌ فظيعٌ ومروّعٌ، وقد سُمِّي بطاعون عمواس، نسبةً لأنه ظهر بها، ثمَّ أنتشر منها إلى باقي بلاد الشَّام، فنُسب إليها، وكان حصول الطَّاعون في ذلك الوقت بعد المعارك الطَّاحنة بين المسلمين والروم، وكثرة القتلى، وتعفُّن الجو، وفساده بتلك الجثث أمراً طبيعياً، قدَّره الله لحكمةٍ أرادها، فكانت

مع الإمبراطورة ثيودورا، يعرف أيضاً باسم "الإمبراطور الروماني الأخير"، يعتبر قديساً في الكنيسة الأرثوذكسية، وقد تولي الحكم بعد وفاة عمه الإمبراطور جستن الأول.

عبد الجليل، عمر صابر:**تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي"رؤية قبطية للفتح الإسلامي"**، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، مصر، 2000م، ص91.

1/ Christopher King : "Chasing the Plague Through the Centuries" an article included in *Encyclopedia Encarta*.

2/ صلاح: مرجع سبق ذكره، ص54.

3/ فاضل، نصير بهجت: **الطواعين في صدر الإسلام والخلافة الأموية-دراسة في المصادر العربية والإسلامية**، مقالة علمية منشورة بمجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، مجلة علمية مُحكمة، ربع سنوية، المجلد رقم(6)، العدد رقم(2)، 2011م، ص101.

4/ أبي خيثمة، أبو بكر أحمد بن أبي خيثمة(279هـ): **التاريخ الكبير، تاريخ أبن أبي خيثمة، السفر الثالث**، تحقيق: صلاح فتحي هلال، ط1، 4 مُجلدات، دار الفاروق للنشر، القاهرة، مصر، 1427هـ، 2006م، مجلد 1، ص357.

5/ قرية عمواس: هي نسبة إلى بلدةٍ صغيرة، تقع بفلسطين بين القدس، والرَّملة؛ وعمواس بمعنى الينابيع الحارة، وهي بلدة قديمة، كان أسمها في العهد الروماني (نيقوبوليس)، بمعنى مدينة النصر نسبة إلى أنتصار فاسبسيانوس على اليهود خلال الثورة اليهودية الكبرى، وصلها المسلمون في خلافة سيدنا أبي بكر الصديق(ﷺ)، حيث فتحها سيدنا عمرو بن العاص(ﷺ)،فأصبحت مقر جند المسلمين.

الدباغ، مصطفي مراد: **بلادنا فلسطين**، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1965م، ص20.

شدَّته بالشَّام[1]، وقد أختلف المؤرخون في تحديد سنة وقوعه، فمنهم من حدد وقوعه في سنة17هـ/638م، ومنهم من قال أنه وقع في سنة18هـ/639م، ولعل أغلب المؤرخين رجحوا الرأي الثاني، وقد وردت إشارات بأن الطاعون في هذا العام أنتشر مصاحباً لطاعون عمواس في بلاد العراق ومصر كذلك، ولكن لم نجد ما يُفيد على تلك الرواية.

ففي سنة 17هـ أراد عمر(ﷺ)، أن يزور الشَّام للمرَّة الثَّانية، فخرج إليها، ومعه المهاجرون، والأنصار حتّى نزل بِسَرْغٍ[2]،، فلقيه أمراء الأجناد، فأخبروه: بأنَّ الأرض سقيمةٌ، وكان الطَّاعون بالشَّام، فشاور سيدنا عمر(ﷺ)، الصحابة المهاجرين الأولين(رضوان الله عليهم)، وذلك من أجل أستشارتهم في الأمر، أيتابع السير إلى بلاد الشام على ما فيها من وباء، أم يرجع قافلاً إلى المدينة المنورة، فأختلفت أرائهم، فمنهم من قال: أنك خرجت لأمر تريد فيه وجه الله وما عنده، ولا نرى أن يصدك عن ذلك بلاء عرض لك، ومنهم من قال له: إن هذا لبلاء وفناء ما نري أن تقبل عليه، فمَّا إختلفوا صرفهم، ثم جمع الأنصار وإستشارهم فسلكوا طريق المُهاجرين، وقالوا مثل ما قالوا كأنهم سمعوا قولهم، فلمَّا إختلفوا عليه صرفهم، ثم أمر بجميع مُهاجرة الفتح من قريش، فلمَّا أجتمعوا له إستشارهم(ﷺ)، فلم يختلف إثنان، حيث قالوا جميعاً: إرجع بالناس فإنه بلاء وفناء، فأمر سيدنا عمر(ﷺ)، أن يُنادى في الناس ليعدوا رواحلهم متى أصبحوا، فلمَّا أصبحوا إجتمعوا عليه فأخبرهم بعزمه وقراره بالرجوع إلى المدينة[3]، وقد أعترض سيدنا أبو عبيدة[4]، عامر بن الجراح (ﷺ)، على قرار

1/ الصلابي، علي محمد: **سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، شخصيته وعصره**، ط1، مؤسسة أقرأ للنشر، القاهرة، مصر، 2005م، ص231.

2/ سَرْغٍ: كانت معروفة للعرب منذ القدم فهي تقع على درب القوافل المار بتبوك، هذه هي آخر المنازل في الأردن قبل الحدود السعودية وتبلغ المسافة من العقبة الحجازية -بطن الغول- إلى سَرغ 45كم، وهذا الموضع مثله مثل العقبة الحجازية تعددت أسمائه عبر القرون وهي: سرغ- المدورة – عين صرر – الطبيلية –جغيمان.

موقع فريق الصحراء جزيرة العرب(أرضها وتراثها-أبحاث ورحلات وصور)، على الأنترنت http://alsahra.org/

- وقيل عنها أيضاً: هي قرية قريبة من دمشق

فاخوري، عبد الباسط أفندي بن علي(ت 1323هـ): **تحفة الأنام مختصر تاريخ الإسلام**، ط1، شعبة معارف بيروت، لبنان، د ت، ص34.

- وقيل أنها على حدود الحجاز والشَّام.

النجار، عبد الوهاب: **الخلفاء الراشدون**، ط1، دار القلم، بيروت، لبنان، 1986م، ص222.

3/ الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير(ت310هـ): **تاريخ الطبري"تاريخ الرُسل والملوك"**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 12جزء، ط 4، دار المعارف، القاهرة، 1977، ج2، ص566.

4/ أبوعبيدة بن الجراح: هو أبوعبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري القرشي ولد قبل الهجرة النبوية بـ40 عام أي سنة584م، هو صحابي وقائد مسلم، وأحد العشرة المُبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، لقَّبَهُ النبي(صلي الله عليه وسلم)، بأمين الأمة حيث قال:(إن لكل

سيدنا عمر(ﷺ)- يبدو أنه لم يكن حاضراً في تلك المشاورات السابقة- فقال لسيدنا عمر: أفراراً من قدر الله؟ فقال سيدنا عمر: نعم فراراً من قدر الله إلى قدر الله[1]، وقد دُهش سيدنا عمر(ﷺ)، من أعتراض سيدنا أبو عبيدة، ثم خاطبه قائلاً:(أرايت لو أن رجلاً هبط وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس يرعى من رعي الجدبة بقدر الله، ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله)[2]، ثم نظر ملياً إلى أبو عبيدة وقال له:(لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة!)، ثم خلا به بناحية دون الناس؛ فبينا الناس على ذلك إذ أتى سيدنا عبد الرحمن بن عوف(رضي الله عنه) - وكان مخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالأمس- فقال: ما شأن الناس؟ فأخبر الخبر، فقال: عندي من هذا علم، فقال عمر: فأنت عندنا الأمين المصدق، فماذا عندك؟ قال: سمعت رسول الله(صلي الله عليه وسلم)، يقول: (إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فرارا منه), ولا يخرجنكم إلاَّ ذلك، فقال عمر:(فلله الحمد! أنصرفوا أيها الناس، فأنصرف بهم)[3]، ومما سبق يتضح لنا رؤية سيدنا عمر(ﷺ)، وفلسفته، حيث أنه وضح لسيدنا أبو عبيدة وبقية الصحابة(رضوان الله عليهم أجمعين)، وشرح لهم رأيه بأن الذهاب إلى الشام ذهاب بقدر الله، والرجوع إلى المدينة رجوع بقدر الله، أي بعلم الله، ومما يرد بأن القدر لا يصح أن يُربط بالأعمال، ولا يصح أن يُترك الأخذ بالأسباب والمسببات بحجة القدر، فسيدنا عمر(ﷺ)، ومعه الصحابة(رضوان الله عليهم أجمعين)، مع إيمانهم المطلق بالقدر إلاَّ أنهم لم يستسلموا للواقع أي للمقدور بل ألتمسوا أسباب الخلاص منه، ومنه يظهر

أمّة أميناً، وإن أميننا أيتها الأمة أبوعبيدة بن الجراح)، وقال له سيدنا أبوبكر الصديق(ﷺ)، يوم سقيفة بني ساعدة:(قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين: عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح).

أسلم سيدنا أبوعبيدة في مرحلة مبكرة من الدعوة الإسلامية، وهاجر إلى الحبشة، ثم إلي المدينة المنورة، وشهد مع النبي(صلي الله عليه وسلم)، غزوة بدر والمشاهد كلها، وكان من الذين ثبتوا في ميدان المعركة عندما بُوغت المسلمون بهجوم المشركين يوم أُحد، وفي خلافة سيدنا أبوبكر الصديق(ﷺ)، كان سيدنا أبوعبيدة(ﷺ)، أحد القادة الأربعة الذين عيَّنهم لفتح بلاد الشام، ثم أمر سيدنا أبوبكر(ﷺ)، سيدنا خالد بن الوليد(ﷺ)، أن يسير من العراق إلى بلاد الشام لقيادة الجيوش الإسلامية فيها، فلمَّا جاء عهد خلافة سيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ)، عَزَلَ خالد بنَ الوليد، وأستعمل أبا عبيدة، فقال خالد(ﷺ) :(وَلِيَ عليكم أمينُ هذه الأمة)، وقد نجح أبوعبيدة(ﷺ)، في فتح دمشق وغيرِها من مُدُنِ الشامِ وقُراها، وفي عام18هـ/ 639م، توفي سيدنا أبوعبيدة(رضي الله عنه)، بسبب طاعون عمواس في غور الأردن ودُفن فيه.

أبن الأثير: **أسد الغابة**، مصدر سبق ذكره، ج3، ص125-130.

1/ المصدر نفسه، ج2، ص567.

2/ المصدر السابق، ج2، ص567.

3/ أبن الأثير: **الكامل في التاريخ**، مصدر سبق ذكره، ج2، باب سنة 17هـ، ص336.

واضحاً أن الإستسلام للواقع والتسليم المطلق به وهذا ما يسمى بالقدرية الغيبية، وهي مخالفة لفطرة الإسلام، بل لابد من أخذ الأسباب لتغيير هذه الواقع أو للخلاص منه.

بعد رحيل سيدنا عمر(ﷺ)، ومن معه عائدين إلي المدينة المنورة، عاد أمراء الجُند ومن معهم إلى مزاولة أعمالهم، وأنشغل سيدنا عمر(ﷺ)، بأمر المسلمين في بلاد الشام وما هم فيه من بلاء ووباء، فأشفق كثيراً على سيدنا أبو عبيدة(ﷺ)، وخاف أن يُصاب بذلك الطاعون ويتوفي به، ولعل خوف الخليفة عمر(ﷺ)، على سيدنا أبو عبيدة(ﷺ)، يرجع لمكانته، وكونه هو المُرشح الثاني معه لتولي خلافة المُسلمين وذلك بناءاً على ترشيح سيدنا أبوبكر الصديق(ﷺ)، له يوم إجتماع سقيفة بني ساعدة[1]، ويبدو أن سيدنا عمر(رضي الله عنه)، كان يحب سيدا أبوعبيدة(ﷺ)، حُباً شديداً، وكان يتمني أن يطول العُمر بسيدنا أبوعبيدة(ﷺ)، ليخلفه على إمارة المُسلمين، ويتضح ذلك ن خوفه عليه دون سواه من بقية الصحابة وأمراء الجُند ببلاد الشام(رضي الله عنهم أجمعين)، ولعل ما سبق يوضح لنا رغبة سيدنا عمر(ﷺ)، في أبعاده عن بلاد الشام.

وفي سبيل تحقيق غايته كتب سيدنا عمر كتاباً إلى سيدنا أبوعبيدة(ﷺ)، جاء فيه:(سلام عليك، أمَّا بعد: فإنه قد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها، فعزمت عليك، إذا نظرت في كتابي هذا لا تضعه من يدك حتى تقبل إلي)، قال فعرف أبوعبيدة أنه إنمّا أراد أن يستخرجه من الوباء، فقال: يغفر الله لأمير المؤمنين، ثم كتب إليه قائلاً:(يا أمير المؤمنين إني قد عرفت إني قد عرفت حاجتك إلى، وأني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبةً عنهم، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله في وفيهم أمره وقضاه، فحللني من عزمتك يا أمير المؤمنين، ودعني في جندي)، فلمَّا قرأ سيدنا عمر(ﷺ)، الكتاب بكي، فقال للناس: يا أمير المؤمنين أمات أبوعبيدة؟ قال: لا، وكأن قد مات، قال ثم كتب إليه:(سلام عليك، أمَّا بعد فإنك أنزلت الناس أرضاً غمقة- فساد ريحها وخمومها، فأرفعهم إلى أرض مُرتفعة نزهة)[2]، وعندما قرأ سيدنا عمر كتاب أبوعبيدة(ﷺ)، أمر الصحابي الجليل سيدنا أبي موسي الأشعري(ﷺ)، بالخروج بالناس إلى مكان أخر كمَّا أمر سيدنا عمر(ﷺ)، وقال له:(

1/ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي: **العبر في خبر من غبر ويليه ذيول العبر**، تحقيق محمد السعيد زغلول، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1405هـ/ 1985م، 4 مجلدات، مجلد1، ص17.

2/ حجازي، علي سعد علي: **العدالة العمرية من سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ﷺ)**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2008م، ص96.

- والأرض النزهة: هي البُقعة من الأرض البعيدة والعذبة والنائية عن الأنداء والمياه والغمق، ويُقصد بها الأرض البعيدة عن الوباء.

أبن منظور: مصدر سبق ذكره، ج14، ص238.

يا أبا موسي: إن كتاب أمير المؤمنين قد جأني بما تري، فأخرج فأرتد للناس منزلاً حتى أتبعك بهم)[1].

بعد ذلك خرج سيدنا أبوعبيدة(رضي الله عنهما)، بالناس وسار بهم حتى وصل إلى منطقة الجابية[2]، وأقام المسلين بها[3]، ولمَّا إزداد الوجع بالمسلمين وأنتشر الطاعون، خرج سيدنا أبوعبيدة(ﷺ)، فخطب فيهم قائلاً:(يا أيها الناس أن هذا الوجع رحمة ربكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وأن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له من هذا الطاعون حظه)[4]، أنتشر الطاعون في كل بلاد الشام، وإزداد إبتلاء الناس، حيث أُصاب فيه عدد كبير جداً من الصحابة وقادة الجُند(رضي الله عنهم)، وكان أبرز من أصيب به والي بلاد الشام سيدنا أبوعبيدة(ﷺ)، والذي قال عندما وقع هذا الوباء:(اللهم نصيبك في آل عبيدة فخرجت في خنصره بثرة)[5]، ويبدو بأن أثر الطاعون لم يظهر أثره على سيدنا أبوعبيدة(ﷺ)، إلاَّ في هذه البثرة التي في خنصره، ولعل المرض تطورت أثاره وذلك لأن سيدنا أبوعبيدة(ﷺ)، كانت إصابته في بداية ظهور المرض، وربما أن أغلب المصادر أغفلت توضيح تلك الآثار.

فتك طاعون عمواس ببلاد الشام بالكثير من أفراد القبائل هناك، حتى أن بعض البيوت منها قد هُلك أهلها عن أخرهم، ووصل الخبر بذلك للخليفة الراشد سيدنا عمر(رضي الله عنه)، فكتب أن:(ورثوا بعضهم من بعض) [6]، بعد ذلك توجه سيدنا أبوعبيدة(ﷺ)، من الجابية إلى بيت المقدس للصلاة فيه وعندما وصل منطقة (فحل) بالأردن أثقله المرض، فدعا من حضره من المسلمين فقال:(يا أيها الناس! إني موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير: أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا شهر رمضان، وتصدقوا، وحجوا، وأعتمروا، وتواصوا، وأنصحوا لأمرائكم، ولا تغشوهم، ولا تلهكم

1/ أبن كثير: أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي: **كتاب البداية والنهاية**، ج10، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1983م، 18 جزء، ج4، ص76.

2/ الجابية: هي قرية من أعمال دمشق، من ناحية الجولان، تقع بين جاسم ونوى للغرب من تل أم حوران، وبالقرب مرج الصفر في شمالي أم حوران.

الحَموي: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحَموي الرّومي البغدادي: **معجم البلدان**، د ط، دار صادر، بيروت، لبنان، 1993م، 5 مجلدات، المجلد2، ص91.

3/ الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، مصدر سبق ذكره، ج2، ص569.

4/ الخراساني، أبو عثمان سعيد بن منصور(ت227هـ): **كتاب السنن**، تحقيق حبيب عبد الرحمن الأعظمي، ط1، الدار السلفية، الهند، 1982م، 5أجزاء، ج1، ص106.

5/ الذهبي، شمس محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤوط وبشار معروف وآخرون، دط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1402هـ/1982م، 29 جزء، ج1، ص29.

6/ الخراساني، مصدر سبق ذكره، ج1، ص106.

الدنيا، فإن إمرأً لو عمر ألف حول ما كان له بد من أن يصير إلى مصرعي هذا الذي ترون، إن الله كتب الموت على بني آدم فهم ميتون، وأكيسهم أطوعهم لربه، وأعملهم ليوم معاده، والسلام عليكم ورحمة الله، يا معاذ بن جبل[1]: صل بالناس)، ثم مات، وكانت وفاته بفحل، وبها قبره، وقيل: توفي بفحل وقبره بعمواس، وكان ذلك سنة ثماني عشرة من الهجرة في خلافة سيدنا عمر، عن ثمان وخمسين سنة[2].

أستخلف سيدنا أبوعبيدة(ﷺ)، بعد إصابته بالطاعون وعند وفاته سيدنا معاذ بن جبل(ﷺ)، على الناس في بلاد الشام، وذكر البلاذري:(أن سيدنا أبوعبيدة(ﷺ)، أستخلف قبل وفاته عياض[3]، بن غنم الفهري، وقيل أنه أستخلف عمرو بن العاص(ﷺ))[4]، وذكر اليعقوبي:(إنَّ عياضاً قد أستخلف على جُند حمص وقنسرين، بينما أُستخلف معاذ على جند الأردن)[5]، ولعل رأي اليعقوبي هو الأرجح الأرجح إذ أن عياض سجل التاريخ غزواته وفتوحاته في الجزيرة الفراتية شمالي العراق، وهي مناطق بعيدة عن نشاط الطعون في بلاد الشام.

1/ معاذ بن جبل: هو معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري الخزرجي، ولد بيثرب قبل الهجرة النبوية بـ18سنة، وهو صحابي جليل، وفقيه وقارئ قرآن، وراوي للحديث النبوي، وهو من الأنصار من بني أدّى من بني جشم بن الخزرج، أسلم وهو أبن الـ18 عام، وشهد بيعة العقبة الثانية، ثم شهد مع النبي(صلي الله عليه وسلم)، المشاهد كلها، وأستبقاه النبي(صلي الله عليه وسلم)، في مكة بعد فتحها ليُعلم الناس القرآن ويفقههم، ثم بعثه عاملاً له في اليمن بعد غزوة تبوك، بعد وفاة النبي(صلي الله عليه وسلم)، شارك سيدنا معاذ(ﷺ)، في الفتح الإسلامي لبلاد الشام، وتوفي في الأردن مُتأثراً بطاعون عمواس سنة18هـ.

أبن حجر العسقلاني، شهاب الدين بن أحمد بن علي(ت852هـ): **الإصابة في تميز الصحابة**، تحقيق عادل عبد الموجود، علي معوض، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1415هـ/1995م، 8 مجلدات، مجلد6، ص107-112.

2/ أبن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي(ت597هـ): **صفة الصفوة**، تحقيق محمد فاخوري ومحمد راوس قلعة جي، ط3، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1405هـ/ 1985م، 4مجلدات، مجلد 1، ص498-499.

3/ عياض بن غنم الفهري القرشي: هو صحابي جليل أسلم قبل صلح الحديبية، وكان قد شهدها أرسله الخليفة أبوبكر الصديق(ﷺ)، لغزو العراق وعمل تحت قيادة خالد بن الوليد(ﷺ)، في العراق وبعدها في الشام ضد الروم، وكان مع سيدنا أبي عبيدة بن الجراح(ﷺ)، في فتح شمال سوريا وينسب إليه فتح حلب وإعزاز، وشهد اليرموك، وفتح الجزيرة الفراتية، وكان من أمراء الكراديس فيها، وكان موت عياض سنة عشرين، وكان صالحاً فاضلاً سمحاً، وكان يسمى "زاد الركب"، يطعم الناس زاده، فإذا نفذ نحر لهم جمله.

مشالي، علي عبد: **عياض بن غنم الفهري دراسة في دوره العسكري والإداري**، ط1، دار تموز، دمشق، سوريا، 2013م، ص1-7..

4/ البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر بن داود(ت279هـ): **فتوح البلدان**، ط1، دار ومكتبة الهلال- بيروت، لبنان، 1988م، ص89.

5/ اليعقوبي، أحمد بن إسحاق: **تاريخ اليعقوبي**، ط2، دار دار الكتب العلمية بيروت، 2002م، جزئيين، ج2، ص181.

وبعد وفاة سيدنا أبوعبيدة(ﷺ)، قام معاذ(ﷺ)، خطيباً في الناس، وقال كما قال سيدنا أبوعبيدة، وأصاب الطاعون أبنه عبد الرحمن، ثم دعا ربه لنفسه، وطُعِّن في راحته وأخذ ينظر إليها ويُقبل ظهر كفه، ثم قال:(ما أحب أن لي بما فيك شيئاً من الدنيا)[1]، ومما سبق يتضح لنا بأن أعراض الطاعون التي ظهرت على سيدنا معاذ(ﷺ)، هي شبيهة بالتي ظهرت على سيدنا أبوعبيدة(ﷺ).

قال سيدنا معاذ(ﷺ)، حينما حضرته المنية:(مرحبا بالموت مرحبا، زائر بعد غياب وحبيب وفد على شوق، ثم جعل ينظر إلى السماء ويقول:(أللهم إني كنتُ أخافك، لكنني اليوم أرجوك، أللهم أنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لغرس الأشجار، وجري الأنهار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء عند حلق الذكر، اللهم فتقبل نفسي بخير ما تتقبل به نفسا مؤمنة)[2]، وتوفي وعمره ثمان وثلاثون عاماً[3]، ثم فاضت روحه بعيداً عن الأهل داعياً إلى الله مهاجراً في سبيله.

وكان سيدنا معاذ(ﷺ)، قد أستخلف على الناس قبل موته سيدنا عمرو بن العاص(ﷺ)، الذي قام خطيباً على الناس في بلاد الشام، فقال:(أيها الناس إن هذا الوجع إذا وقع فإنَّما يشتعل إشتعال النار، فتجبلوا منه في الجبال)، ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا، ورفعه الله عنهم، فبلغ ذلك سيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ)، من رأي عمرو بن العاص(ﷺ)، فو الله ما كرهه[4]، ويبدو بأن تصرف سيدنا عمرو بن العاص قد وافق هوى الخليفة عمر الذي كان قد وجه سيدنا أبوعبيدة(رضي الله عنهم أجمعين)، سابقاً بالخروج بالناس من أهل الشام إلى مكان فسيح وأرض نزهة، ولعل سيدنا عمرو بن العاص(ﷺ)، وفق في خطوته تلك حيث أنه أجتهد كثيراً في الإنتقال بالناس من المنطقة المُنخفضة التي كانوا يعيشون بها، وتلوث هوائها بسبب الطاعون، إلي منطقة مرتفعة جديدة مُتجددة الهواء، ولعل خطوته تلك ساهمت بقدر كبير جداً بعد قدرة الله تعالي على إيقاف الطاعون وخطره.

وقد أرجعت الروايات التاريخية سبب ذلك الوباء والطاعون إلى كثرة القتلى في ميادين القتال، ففي فلسطين والشام كانت رحى المعارك مُشتعلة ما بين المسلمين ونصارى الروم، كما كانت في بلاد العراق بين المسلمين والفرس المجوس، وقد نتج عن تلك المعارك كثرة سقوط الجثث، حيث أن كثيراً تُركت

1/ الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، مصدر سبق ذكره، ج4، ص26.

2/ أبن الجوزي: مصدر سبق ذكره، ج1، ص190.

3/ البلاذري: مصدر سبق ذكره، ص190.

4/ الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، مصدر سبق ذكره، ج2، ص569.

بدون دفنها، وذلك لتعذر أمر دفنها وبالتالي حدث لها تعفن وتلوث الجو بالميكروبات، بينما أرجع بعض المؤرخين المتقدمين أن سبب طاعون عمواس يرجع إلى غضب الله تعالي أستنزله سيدنا أبوعبيدة(ﷺ)، على أهل الشام وذلك لشرب جماعة من المسلمين فيه الخمر، فكتب سيدنا أبوعبيدة(ﷺ)، إلى الخليفة الراشد سيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ):(إن نفراً من المسلمين أصابوا الشراب، فسألناهم فتألوا وقالوا: خَيَّرنا فأخترنا، قال:﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[1]، ولم يعزم علينا)، ولم يكن القرآن قد نص على حدَّ للخمر، ولم يحد رسول الله(صلي الله عليه وسلم)، ولا حدَّ سيدنا أبوبكر الصديق(ﷺ)، شارباً لها، لذلك جمع سيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ)، أصحاب الرأي بالمدينة، وقص عليهم ما جاء في كتاب أبوعبيدة، فرأوا أن عبارة القرآن الكريم﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾، تعني الأمر؛ أي فانتهوا، وأجمعوا على أن يُضرب الذين شربوها ثمانين جلدة وأن يُفسَّقوا، وكتب الخليفة سيدنا عمر(ﷺ)، إلى أبي عبيدة(ﷺ)، أن أدعهم، فإن زعموا أنها حلال فأقتلهم، وإن زعموا أنها حرام فأجلدهم ثمانين جلدة، ودعاهم أبوعبيدة(ﷺ)، وسألهم على رءوس الناس، فقالوا: إن الخمر حرام، فجلدهم ثمانين وقال: ليُحدثن فيكم يا أهل الشام حادث، فكان الطاعون[2]، وأحسب الأكثرين اليوم يؤثرون رأي المُتأخرين أو ما يُماثله، ولا يرون دعاء أبي عبيدة(ﷺ)، على أهل الشام سبب الوباء.

ومما سبق ذكره نخلص إلى أن أنصياع الناس ببلاد الشام لطلب سيدنا عمرو بن العاص(ﷺ)، بالخروج إلي الجبال والمناطق المرتفعة قلل بصورة كبيرة جداً من إنتشار الطاعون ومن ثم زواله.

ب/ شهداء طاعون عمواس: فقدت الدولة الإسلامية في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ)، مجموعة من خيرة الولاة والقواد العسكريين وكبار الصحابة الذي توفوا نتيجة إصابتهم بداء الطاعون، حيث رحل أثنين من الولاة هم سيدنا أبوعبيدة عامر بن الجراح ومعاذ بن جبل(ﷺ أجمعين)، وظل هذا الطاعون في بلاد الشام زمناً ليس بالقصير، وقد أستشهد فيه قرابة الخمسة وعشرين ألفاً من المسلمين، جلهم من الصحابة[3]، كانوا مُقيمين في بلاد الشام[4]، وقد مثلت بلاد الشام المركز الرئيسي للطاعون في تلك الفترة، ومنها أنتقل إلي بـلاد العراق، حيث أنتـشر الطاعـون بـمُدن البصرة

1/ سورة المائدة، الآية رقم91.

2/ هيكل، محمد حسنين: **الفاروق عمر**، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1963م، ص285.

3/ أبن الأثير: **أسد الغابة**، مصدر سبق ذكره، ج1، ص202.

4/ أبن كثير: مصدر سبق ذكره، ج7، ص157.

والكوفة، وفتك بهم فتكاً ذريعاً[1]، حيث أستشهد في طاعون عمواس أكابر الصحابة كسيدنا أبوعبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، والفضل بن العباس[2]، وشرحبيل بن حسنة[3]، ويزيد بن أبي سفيان[4]، والحارث بن هشام[1]، وسهيل بن عمرو[2]، وأبو جندل بن

1/ الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، مصدر سبق ذكره، ج2، ص566.

2/ الفضل بن العباس: هو أبن عم النبي(صلي الله عليه وسلم)، وكنيته أبو محمد وأبو عبد الله وأبو العباس، وهو أسنّ ولد العباس، وكان العباس يكنّى به، شهد مع رسول الله(صلي الله عليه وسلم)، فتح مكة سنة8هـ، وغزا معه حُنين، وكان ممن ثبت مع رسول الله(صلي الله عليه وسلم)، من أهل بيته وأصحابه فيها، حين ولّى الناس منهزمين، وشهد مع الرسول(صلي الله عليه وسلم)، حجة الوداع، وأردفه الرسول(صلي الله عليه وسلم)، وراءه من جمع المزدلفة إلي منى، فيقال له: رديف رسول الله(صلي الله عليه وسلم)، وشهد غسل النبي(صلي الله عليه وسلم)، كان الفضل جسيماً وسيماً، وكان يقال: من أراد الجمال والفقه والسخاء، فليأت دار العباس: الجمال للفضل، والفقه لعبد الله، والسخاء لعبيد الله، وله ذكر في كتب الحديث، فقد روى عن الرسول(صلي الله عليه وسلم)، أربعة وعشرين حديثاً، وروى عنه أخوه عبد الله، وأبو هريرة، وربيعة بن الحارث، وعباس بن عبيد الله بن العباس وغيرهم.

أختلف الرواة في تاريخ وفاته، فقيل قتل يوم معركة أجنادين بين المسلمين والبيزنطيين في عام634م في سيدنا خلافة أبوبكر الصديق(ﷺ)، وقيل قتل يوم مرج الصفر سنة ثلاث عشرة وقيل قتل يوم اليمامة السنة الحادية عشرة وقيل توفي في طاعون عمواس من نواحي الأردن سنة 18هـ في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب(رضي الله عنه).

أبن الأثير: **أسد الغابة**، مصدر سبق ذكره، ج6، ص155-165.

3/ شرحبيل بن حسنة: هو شرحبيل بن عبد الله المطاع، يُعتقد أنه نسب إلى أمه حسنة العدوية، ولا يُعرف شيء عن أبيه، صحابي جليل من صحابة النبي(صلي الله عليه وسلم)، ومن مهاجرة الحبشة في الهجرة الثانية، وعزا مع النبي(صلي الله عليه وسلم)، كل الغزوات، وكان أحد الأمراء الذين عقد لهم سيدنا أبوبكر الصديق(ﷺ)، على الشام ولم يزال والياً على بعض نواحي الشام لسيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ)، إلي أن مات، وكان من قادة جيش سيدنا أبوعبيدة بن الجراح(ﷺ)، وهو فاتح غور الأردن، توفي في طاعون عمواس سنة18هـ وعمره 67 عاماً.

أبن خياط، أبوعمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري(ت 240هـ): **طبقات أبن خياط**، تحقيق زهير زكار، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 141هـ/ 1993م، ص48.

4/ يَزِيد بْن أبي سُفْيَان بْن حرب بْن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، كَانَ أفضل بني أبي سُفْيَان. كَانَ يقال له يَزِيد الخير، أسلم يوم فتح مكة، وشهد حنينا، وأعطاه رسول الله(صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، من غنائم حنين مائة بعير وأربعين أوقية وزنها له بلال، وأستعمله سيدنا أَبُو بَكْر الصديق(ﷺ)، وأوصاه وخرج يشيعه راجلاً.

قَالَ ابْن إِسْحَاق: لَمَّا قفل سيدنا أَبُوبَكْر(ﷺ)، من الحج- يعني سنة اثنتي عشرة- بعث عَمْرو بْن العاص، ويزيد بْن أبي سُفْيَان، وأبا عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة(رضي الله عنهم أجمعين)، إلى فلسطين، وأمر هم أن يسلكوا عَلَى البلقاء، وكتب إِلَى سيدنا خالد بن الوليد(رضي الله عنه)، فسار إِلَى الشام، فأغار عَلَى غسان بمرج راهط، ثم سار فنزل عَلَى قناة بصرى، وقدم عَلَيْهِ يَزِيد بْن أبي سُفْيَان، وأبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، فصالحت بصرى، فكانت أول مدائن الشام فتحت، ثم ساروا قبل فلسطين، فالتقوا بالروم بأجنادين بين الرملة وبيت جبرين، والأمراء كل عَلَى حدة، ومن الناس من يزعم أن عَمْرو بْن العاص كَانَ عليهم جميعًا، فهزم اللَّه المشركين،

وَكَانَ الفتح بأجنادين فِي جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، فلمَّا أستخلف سيدنا عمر(ﷺ)، ولّى أبا عبيدة، وفتح اللَّه عليه الشامات، وولى يَزِيد بْن أبي سُفْيَان عَلَى فلسطين وناحيتها، ثم لما مات أَبُو عبيدة أستخلف معاذ بْن جبل، ومات معاذ فاستخلف يَزِيد بْن أبي سُفْيَان، ومات يَزِيد، فاستخلف أخاه معاوية، وَكَانَ موت هؤلاء كلهم فِي طاعون عمواس سنة ثمان عشرة، وقد مات يزيد بعد أن فتح قيسارية.

أبن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي(ت463هـ): **الإستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق علي محمد البجاوي، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1412هـ/1992م، 4 أجزاء، ج4، ص1575.

1/ الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي يكنى أبا عبد الرحمن وأمه أم الجلاس أسماء بنت مخربة بن جندل بن أبين بن نهشل بن دارم شهد بدرًا كافرًا مع أخيه شقيقه أبي جهل وفر حينئذ وقتل أخوه، ثم غزا أحدًا مع المشركين أيضًا ثم أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه وكان من فضلاء الصحابة وخيارهم وكان من المؤلفة قلوبهم وممن حسن إسلامه منهم.

روينا أن أم هانئ بنت أبي طالب استأمنت له النبي(ﷺ)، فأمنه يوم الفتح وكانت إذ أمنته قد أراد على قتله وحاول أن يغلبها عليه فدخل النبي(ﷺ)، منزلها ذلك الوقت فقالت: يا رسول الله ألاّ ترى إلى أبن أمي يريد قتل رجل أجرته فقال رسول الله(ﷺ) :(قد أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت فأمنه)، هكذا قال الزبير وغيره وفى حديث مالك وغيره أن الذي أجارته بعض بني زوجها هبيرة بن أبى وهب، وأسلم الحارث فلم ير منه في إسلامه شي يكره، وشهد مع رسول الله(ﷺ)، حنينًا فأعطاه مائة من الإبل كما أعطى المؤلفة قلوبهم، وروى أن رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، ذكر الحارث بن هشام وفعله في الجاهلية في قرى الضيف وإطعام الطعام فقال إن الحارث لسري وإن كان أبوه لسريا ولوددت أن الله هداه إلى الإسلام، وخرج الحارث إلى الشام في زمن سيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ)، راغبًا في الرباط والجهاد فتبعه أهل مكة يبكون لفراقه فقال:(إنها النقلة إلى الله وما كنت لأوثر عليكم أحداً)، فلم يزل بالشام مجاهدًا حتى مات في طاعون عمواس سنة18هـ.

المصدر السابق، ج1، ص336-339.

2/ سهيل بن عمرو: هو يزيد سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن حسل بن عامر بن لؤي بن غالب القرشي، هو خطيب قريش وفصيحهم، وأحد أشرافهم قبل الإسلام، قاتل سهيل في صفوف قريش في غزوة بدر، وتعرض للأسر ثم افتُدي، ولمَّا همّ النبي(صلي الله عليه وسلم)، أن يعتمر سنة6هـ، منعته قريش من أداء العمرة، وأبتعثوا سهيلاً للإتفاق مع النبي(صلي الله عليه وسلم)، على شروط الصلح، ولمَّا أقبل المسلمون يفتحون مكة، خشي سهيل على نفسه القتل، وأرسل إلى ابنه عبد الله بن سهيل ليستأمن له من النبي محمد، فأمّنه، وأسلم يومها سهيل، خرج سهيل بعد ذلك مع المسلمين إلى حُنين، وأعطاه النبي(صلي الله عليه وسلم)، يومها مائة من الإبل من غنائم الغزوة في المؤلفة قلوبهم، وقد أقبل سهيل من يوم أن أسلم على العبادة، فأكثر من الصلاة والصوم والصدقة.

بعد وفاة النبي محمد(صلي الله عليه وسلم)، سنة 11 هـ، أضطربت شبه الجزيرة العربية، وعمّت الفوضى أرجائها، وأرتدّ الكثيرون عن دين الإسلام، ولم تكن مكة بمنأى عن ذلك، حيث حاول البعض أستغلال الموقف والإنفصال عن سلطة المسلمين في المدينة المنورة، حتى أن عتاب بن أسيد والي النبي (صلي الله عليه وسلم)، على مكة أختفى خوفًا على حياته، فما كان من سهيل بن عمرو إلاَّ أن قام فخطب في أهل مكة خطبة بليغة يُشبه محتواها محتوى خطبة سيدنا أبي بكر الصديق(رضي الله عليه وسلم)، التي ألقاها على الأنصار يوم السقيفة، فثبتت قريش على الإسلام، وعاد عتاب بن أسيد، ومع بداية الفتوح خرج سهيل بن عمرو بأهله جميعهم إلاَّ أبنته هند للمشاركة في الفتح الإسلامي لبلاد الشام، وكان يوم اليرموك قائداً لأحد كتائب المسلمين في المعركة، ولم يزل سهيل بن عمرو بالشام حتى مات في طاعون عمواس بمرج الصفر سنة18هـ.

سهيل القرشي[1]، وعتبة بن سهيل[2]، وعامر بن غيلان الثقفي[3]، وكذلك من الذين أستشهدوا بطاعون عمواس سيدنا بلال بن رباح[4]، وحذافة بن نصر العدوى[5]، وسلمة بن نصر العدوى[6]، وصخر بن نصر العدوى[1]، وعامر بن الحارث[2]، وعبد

الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط2، دار الرسالة، بيروت، 1981م، 25 جزء، ج8، ص320.

1/ أبو جندل بن سهيل القرشي: هو أَبو جَنْدَل العَاص بن سُهيل بن عَمْرو العامِرِي بن عبد شمْس بن عبد ود بن نصر بن حسل بن عامر بن لُؤَي بن غَالب بن فِهْر العَامِرِي القُرَشِي، وأسمه العاص، كان مِن خيّار الصَّحَابة، وقَد أَسْلَمَ وحبسهُ أَبُوه وقيده، فلمَّا كان يوم صُلْحِ الحُدَيْبِية هَرب يَحْجِل في قُيُوده، وأَبُوه حاضِر بيْن يَدي النَّبِي(صَلى اللَّه عَليه وَسَلم)، لِكتاب الصُّلْح، ثم أنتقل إلي جهاد بلاد الشام، وتوفي متأثراً بطاعون عمواس سنة18هـ.

المصدر نفسه، ج1، ص192.

2/ عتبة بن سهيل بن عمرو بن عبد شمس: أسلم مع أبيه، وخرج مجاهداً إلي الشام، ومات متأثراً بطاعون عمواس سنة18هـ.

أبن حجر العسقلاني: **الإصابة**، مصدر سبق ذكره، ج4، ص610.

3/ عامر بن غيلان الثقفي: هو عامر بن غيلان بن سلمة بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف، الثقفي، أسلم قبل أبيه، وهاجر، ومات بالشام في طاعون عمواس سنة18هـ، وأبوه يومئذ حي.

موسوعة رواة الحديث على الأنترنت http://hadithtransmitters.hawramani.com/

4/ بلال بن رباح: هو بلال بن رباح، صحابي جليل، ومؤذن النبي(صلي الله عليه وسلم)، ومولي سيدنا أبوبكر الصديق(ﷺ)، وكان سيدنا بلال(ﷺ)، من السابقين إلى الإسلام ومن المستضعفين الذين عُذّبوا ليتركوا الإسلام حيث كان عبداً لبني جمح من قريش، فعذبه سيده أمية بن خلف بعدما أعلن إسلامه، فأشتراه سيدنا أبوبكر الصديق(ﷺ)، وأعتقه، وقد أشتهر سيدنا بلال(ﷺ)، بصبره على التعذيب، وقولته الشهيرة تحت التعذيب (أحدٌ أحد)، ولما شُرع الأذان أختاره النبي(صلي الله عليه وسلم)، ليكون مؤذنه الأول.

ولمَّا توفي النبي(صلي الله عليه وسلم)، أبى سيدنا بلال (ﷺ)، أن يؤذن لأحد بعد النبي(صلي الله عليه وسلم)، إلاَّ مرة واحدة ناشدوه فيها أن يؤذّن، فأذن حتى بلغ قوله(أشهد أن محمداً رسول الله)، فأجهش بالبكاء، وما أستطاع أن يُتم الأذان، وقد جاء سيدنا بلال(ﷺ)، إلى الخليفة الراشد سيدنا أبي بكر الصديق(ﷺ)، يسأله أن يأذن له بالمشاركة في الفتوحات، فأبى أبوبكر، وقال له:(أنشدك بالله يا بلال، وحرمتي وحقي، فقد كبرت وضعفت، وأقترب أجلي)، فأقام معه حتى وفاة سيدنا أبي بكر(ﷺ)، ثم أتت خلافة سيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ)، يستأذنه، فأبى عليه، فأصر سيدنا بلال(ﷺ)، فأذن له فخرج إلى بلاد الشام، وظل بها حتى وفاته متأثراً بطاعون عمواس سنة18هـ، وقيل أنه توفي بدمشق سنة20هـ ودفن بباب الصغير، وقيل أنه توفي وعمر بضع وستون عاماً، وقيل توفي سنة21هـ، وقيل أنه توفي بداريا، وقيل مات بحلب وهو أبن السبعين عاماً.

موقع معرفة على الأنترنت https://www.marefa.org/

5/ حذافة بن نصر العدوى: هو حذافة بن نصر بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي، العدوى، شهد فتح بلاد الشام، هو ممن أدرك النبي (ﷺ)، مات ببلاد الشام مُتأثراً بطاعون عمواس سنة18هـ.

أبن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله(ت571هـ): **تاريخ دمشق**، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1415 هـ/1995م، 80جزء، ج12، ص252.

6/ هو سلمة بن نصر بن غانم بن عامر ابن عبد الله بن عبيد عويج بن عدي بن كعب بن لؤي ابن غالب القرشي

الرحمن بن معاذ بن جبل[3]، وغيرهم من المسلمين، ومما سبق يتضح لنا مدي فداحة داء الطاعون.

وذكر المهاجر بن خالد[4]، وهو من الذين نجوا من بني المغيرة من هذا الطاعون:-

أفني بني ريطة[5]، فرسانهم ***** عشرون
لم يصعب لهم شارب

ومن بني أعمامهم مثلهم ***** من مثل
هذا يعجب العاجب

طعن وطاعون مناياهم
***** ذلك ما خط لنا الكاتب[6].

ت/ جهود سيدنا عمر بن الخطاب(رضي الله عنه): بعد أنتهاء الطاعون رحل سيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ)، إلى بلاد الشام وأشرف على حل المشكلات، وتصريف تبعات هذه الأزمة، كما كان مرجعه ودليله في كل ما فعله هو الشريعة الإسلامية، وفقهها فأجتهد ونفذ، وأمر ووجه الولاة وفق ذلك، فأصبح بذلك مثالاً لكل الأمراء والحكام من بعده في كيفية مواجهة الأزمات وإدارتها، ولعل الخليفة عمر بن الخطاب(ﷺ)، شعر بخطورة وضع الدولة الإسلامية وذلك بسبب ما فقد ن أرواح لكبار القادة والجنود المسلمين، فقد كان متخوفاً على إستمرارية علميات الفتح الإسلامي في ظل النقص الحاد في أعداد القادة والجنود، وتوقف الفتح قد يؤدي إلي تفكير الروم بالعودة مرة أخرى إلي بلاد الشام ومحاولة إستردادها مرة أخرى.

كتب أمراء المسلمين ببلاد الشام إلي الخليفة الراشد سيدنا عمر(ﷺ)، يسألونه عن المواريث التي تركها من أستشهد جراء طاعون عمواس، وكيفية التصرف فيها، بالإضافة

العدوى، وهو ممن أدرك النبي (ﷺ)، وشهد فتوح الشام له، مات مُتأثراً بطاعون عمواس سنة18هـ.

المصدر نفسه، ج22، ص134.

1/ صخر بن نصر: هو صخر بن نصر بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد ابن عويج بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوى، أدرك النبي(ﷺ)، وشهد اليرموك، وأستشهد به ولا أعلم له رواية، ويُقال أنه مات في طاعون عمواس، ويقال قتل يوم أجنادين.

المصدر السابق، ج23، ص476.

2/ عامر بن الحارث الفهري: صحابي جليل مات في طاعون عمواس سنة 18هـ.

أبن عبد البر: مصدر سبق ذكره، ج4، ص1076.

3/ عبد الرَّحمَن بن مُعاذِ بن جبل الأَنْصَارِيّ يذكر نسبه عند ذكر أَبِيهِ، توفي مَعَ أَبِيهِ فِي طاعون عمواس سنة 18هـ، وكان فاضلًا، فاختلفوا فِيهِ، فمنهم من أنكر أن يكون ولد لمعاذ بْن جبل ولد، وقَالَ الزَبَيْر: عَبْد الرَّحْمَن بْن مُعَاذِ بْن جبل، مات بالشام فِي الطاعون، وكان آخر من بقي من بني أدي بْن سعد أخي سَلَمة بْن سعد، فانقرضوا، وعدادهم فِي بني سَلَمة.

أبن الأثير: **أسد الغابة**، مصدر سبق ذكره، ج3، ص490.

4/ المهاجر بن خالد: أحد رجالات بني المغيرة، ومن سكان بلاد الشام، وهو من الأشخاص القليلين الذين نجوا من الطاعون.

أبن حجر العسقلاني: **الإصابة**، مصدر سبق ذكره، ج6، ص265.

5/ ريطة: هي زوجة المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم.

المصدر نفسه، ج6، ص265.

6/ المصدر السابق، ج6، ص265.

لبعض أمور الدولة الأخرى، وأمور الرعية، فتشاور سيدنا عمر(ﷺ)، من كبار أصحابه، وقرر أن يطوف على البلدان الإسلامية لينظر حال الرعية، وأستقر به الرأي بأن يبدأ طوافه ببلاد الشام، فقد قال(ﷺ):(ضاعت مواريث الناس بالشام أبدأ بها فأقسم المواريث، وأقسم لهم ما في نفسهم، ثم أرجع فأتقلب في البلاد وأنبذ إليهم أمري)[1]، فخرج من المدينة المنورة قاصداً بلاد الشام، وقد أستخلف على إدارة الدولة بالمدينة سيدنا علي بن أبي طالب(كرم الله وجهه)، فلمَّا بلغ الشام قسم الأرزاق، وسد فروج ، وسمَّى الشَّواتي، والصَّوائف[2]، وسدَّ فروج الشَّام، ومسالحها، وولَّى الولاة، فعين عبد الله بن قيس[3]، على السَّواحل من كلِّ كورة، وأستعمل معاوية بن أبي سفيان(ﷺ)، على دمشق، ورتَّب أمور الجند، والقادة والنَّاس، وورَّث الأحياء من الأموات[4]، ولمَّا حضرت الصَّلاة قال له الناس: الناس: لو أمرت بلالاً[5]، فأذَّن! فأمره، فأذَّن فما بقي أحدٌ أدرك النَّبيَّ(صلي الله عليه وسلم)، وبلالٌ يؤذِّن إلاَّ وبكى، حتَّى بلَّ لحيته،

1/ الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، مصدر سبق ذكره، ج2، ص568.

2/ الشَّواتي والصَّوائف: هي عبارة عن حملات عسكرية، ودوريات منتظمة لحماية حدود البلاد الإسلامية من أعداء البلاد وخطرهم، وتحدث في فصلي الصيف والشتاء، سميت بالصَّوائف والشَّواتي وذلك لأن المناطق التي تذهب إليها هذه الحملات تتميز بشكل عام بطبيعتها الجبلية الوعرة وتتخللها الأودية، ويتميز مناخها البارد في الشتاء والمعتدل في الصيف مما جعل العرب يحاولون التكيف مع هذه المناطق من خلال حملاتهم في فصلي الشتاء والصيف، وقد أنشأها سيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ)، في خلافته لتحصين حدود الدولة الإسلامية براً وبحراً، وتمثلت أهداف تلك الحملات في تحسين المواقع الدفاعية للبلاد الإسلامية، والتقدم في الأراضي البيزنطية وأستكشافها، والسيطرة على الثغور والقرى الحدودية في الدولة، وحرمان العدو من تهديد بلاد الإسلام، ولعل السبب الرئيسي لحملات الصَّوائف والشَّواتي هو إسقاط قلعة الروم المنيعة القسطنطينية، ولكن تلك الحملات أشتهرت وتوسع مجالها وعملها، وتطورت في عهد الدولة الأموية وبالتحديد في عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان(ﷺ)، وذلك من أجل ردع الإمبراطورية الرومانية في عام41هـ/661م، ومن أشهر قادة تلك الحملات سيدنا أبوعبيدة بن الجراح، وسيدنا معاوية بن أبي سفيان، وسيدنا النعمان بن مقرن(رضي الله عنهم أجمعين).

البلاذري: مصدر سبق ذكره، ص194-195.

3/ عبد الله بن قيس: هو عبد الله بن قيس الحارثي، حليف بني فزارة، أمير بحر في صدر الإسلام، وهو قائد أول صائفة قطعت درب الروم على عهد سيدنا عمر بن الخطاب، ولاّه سيدنا معاوية بن أبي سفيان إمارة الشام، وكان يُكني بأبي بحرية الشامي الحمصي، غزا قبرص وكان أول أسطول جهزه المسلمون كان لغزو قبرص سنة28هـ، وألتقى بعبد الله بن أبي السرح قادماً من مصر فصالحهما أهلها على جزية مقدارها 7,000 دينار سنوياً، قتله الروم أثناء تجوله في أحد المرافئ، بعد أن دلتهم عليه سيدة كانت تتسول فأعطاها فعرفته، ووشت به! وقيل إنه قُتل عندما كان مشتغلاً بكشف مرفأ في الروم إذ خرج في قارب طليعة فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم فعرفوه وقتلوه، وكان ذلك سنة 53هـ.

الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، مصدر سبق ذكره، ج2، ص601.

4/ أبن الأثير: **الكامل في التاريخ**، مصدر سبق ذكره، ج2، ص402.

5/ هذه الرواية تدل على أن سيدنا بلال بن رباح(ﷺ)، لم يمت في طاعون عمواس سنة18هـ.

وعمر أشدُّهم بكاءً، وبكى من لم يدركه ببكائهم، ولذكرهم رسول الله(صلي الله عليه وسلم)، وقبل أن يرجع إلى المدينة خطب في النَّاس:(ألا وإنِّي قد وَلَّيْتُ عليكم، وقضيت الَّذي عليَّ في الَّذي ولأني الله من أمركم إن شاء الله، فبسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم، ومغازيكم، وأبلغناكم ما لدينا، فجنَّدنا لكم الجنود، وهيَّأنا لكم الفروج، وبوَّأنا لكم، ووسَّعنا عليكم ما بلغ فيئكم، وما قلتم عليه من شامكم، وسمَّينا لكم أطعماتكم، وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم، ومغانمكم، فمن علم شيئاً ينبغي العمل به، فليعلمنا؛ نعمل به إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله)، وكانت هذه الخطبة قبل الصَّلاة المذكورة[1]، فأستطاع الخليفة الراشد سيدنا عمر(ﷺ)، بتلك الخطوات أن يُنظم البيت الداخلي للدولة الإسلامية في بلاد الشام.

النتائج التي توصلت لها الدراسة:-

خلُصت الدراسة إلي مجموعة من النتائج المهمة تمثلت في الأتي:

* يُعتبر طاعون عمواس سنة18هـ هو الطاعون الوحيد الذي وقع في عهد دولة الخلافة الراشدة وتحديداً في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ)، 13-23هـ.

* أثر طاعون عمواس سنة18هـ على الحياة العامة في الدولة الإسلامية تأثيراً بالغاً ظهر ذلك في الحالة الصحية.

* كان تعامل عمر بن الخطاب(ﷺ)، مع هذا البلاء في منتهى الحذر حيث لم يدخل هو ومن معه إلى الشام، كما حاول إخراج المعافين من أرض الوباء، وقام بتحمل المسؤولية كاملة بعد إنجلاء هذا الوباء فرحل إلى الشام وأشرف على حل المشكلات وتصريف تبعات هذه الأزمة.

* مثلت الشريعة الإسلامية وفقهها المرجع والدليل لسيدنا عمر بن الخطاب(ﷺ)، في مواجهة ذلك الوباء، فأجتهد ونفذ، وأمر ووجه الولاة وفق ذلك، فأصبح بذلك مثالاً لكل الأمراء والحكام من بعده في كيفية مواجهة الأزمات وإدارتها، وهو في ذلك قدوة لمن أراد أن يتعامل مع الأمراض والأوبئة الخطيرة، فالإبتعاد عن أماكن تفشي الوباء، ومحاولة تدارك أنتشاره وتطويقه، هو من فقه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب(ﷺ)، في التعامل مع الأوبئة والأمراض.

* أثر طاعون عمواس سنة18هـ على الحياة الإقتصادية للدولة الإسلامية، حيث توقفت

1/ أبن كثير: مصدر سبق ذكره، ج7، ص146.

حركة التجارة بين شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام وذلك بسبب أنتشار الوباء.

* أدي طاعون عمواس سنة18هـ إلي توقف حركة الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام وذلك بسبب أنتشار الوباء، وموت أكثر من 20 ألف من المسلمين متأثرين بالطاعون.

* أودى هذا المرض الخبيث بحياة الكثير من الناس، وجلهم من كبار الصحابة والفاتحين المسلمين، حيث أنهم فقدوا أكثر من 20 ألف من المسلمين المجاهدين وهو عدد يوازي نصفهم في بلاد الشام، ولو أن الروم فطنوا لذلك، وقاموا بمهاجمة بلاد الشام لصعب على الجيوش المرابطة صدهم يومئذٍ.

سلوكات وموقف أهل المغرب والأندلس من الأمراض والأوبئة في العصر الوسيط

الدكتور محمد حقي/كلية الآداب
جامعة السلطان مولاي سليمان- المغرب

يحيل الحديث عن مواقف وسلوكات السكان من المرض على فرع خاص من التاريخ يعرف بتاريخ الذهنيات أو العقليات (histoire des mentalités) الذي ظهر في فرنسا في النصف الثاني من القرن العشرين، ويركز على دراسة عقليات الجماعات ومواقفها في مختلف الميادين[1]. ويجب التنبيه إلى أن الموقف ليس هو الرأي، فإذا كان الثاني يصدر عن أفراد وبشكل مباشر ومصرح به، فإن الأول يهم جماعة من البشر في مكان محدد وزمان طويل ويتميز بالثبات والقدرة العالية على المقاومة، ولا يمكن التعرف عليه مباشرة بل يعرف فقط من بعض المؤشرات مما يجعل مهمة المؤرخ/الباحث مزدوجة الصعوبة إذ عليه أن يحدد أحداثه التي تؤشر على الموقف ويتوصل في نفس الآن إلى مكونات الموقف ذاته. فمع هذا النوع من التاريخ ينتهي عهد جمع النصوص وترتيبها وكذلك الاكتفاء بالتخصص الضيق إذ لا بد من انفتاح واسع على كل التخصصات المجاورة من علم اجتماع وانثروبولوجيا وعلم نفس وأدب وجغرافيا ودين...مع ما يتبع ذلك من استعمال لكل أصناف المصادر تاريخية وجغرافية وأدبية ودينية وفقهية وحتى علمية بحتة.

تتوفر دراسات حول المرض من منظور فزيولوجي وطبي-علمي تطنب في التعريف بالأمراض وأنواعها وأسباب حدوثها وطرق علاجها، لكن النظر إليه من وجهة ذهنية وعقلية المجتمع يبقى غائبا ولم ينل أي اهتمام أو التفات بحيث لا نجد أي دراسة في هذا

[1] -« L'histoire des mentalités se donne pour objectif la reconstitution des comportements, des expressions et des silences qui traduisent les conceptions du monde et les sensibilités collectives ; représentations et images, mythes et valeurs, reconnues ou subies par des groupes ou par la société globale, et qui constituent les contenus des psychologies collectives, fournissent les éléments fondamentaux de cette recherche. » R. Mandrou, histoire des mentalités, Encyc. Univ., t.11, 1989, p.479.

« Cette histoire est en même temps très difficile, et très dangereuse : très difficile car elle ne tolère pas la médiocrité ou les rédactions mécaniques(...) mais aussi dangereuse pace qu'elle autorise, travaillant sur des bases tenues en complexes, les modélisations dont on est aujourd'hui friand, en Amérique, mais aussi en France ». M. Vovelle, Idéologies et Mentalités, p.99.

الاتجاه[1]. ولعل الحاجة إلى منهج خاص لتناوله، ونوعية المادة المتوفرة وندرتها (إشارات عابرة في مختلف المصادر-معلومات جافة في كتب الطب والصيدلة- إشارات مهمة في المناقب مغلفة بغلاف غيبي مموه- رسائل قصيرة ومتأخرة عن الوباء)، وانعدام التراكم المعرفي في الموضوع، ثم غياب المبادرة الجريئة، كانت وراء هذا الإحجام والإهمال التام له.

إن حضور المرض كواقع معاش داخل المجتمع المغربي– الأندلسي الوسيط يثير مشاعر الناس ويدفعهم إلى اتخاذ مواقف تختلف درجة وضوحها حسب الأشخاص وموقعهم بالنسبة للمريض. فالمريض المرهق بالمرض والمنتظر للموت بين الفينة والأخرى لن ينظر إلى مرضه بنفس الشكل الذي ينظر به إليه مشاهد ومتتبع مهما كانت قرابته منه أو حميمية علاقتهما. وقد مكنتنا النصوص القليلة المتوفرة من عرض بعض مظاهر تصرفات كل طرف، وإظهار التناقض الذي كان يميزها كانعكاس مباشر للاضطراب النفسي الذي كان يعيشه الفرد والمجتمع؛ على حد سواء، في هذه اللحظة الصعبة، وتباين مستوى التكوين الثقافي والديني ودرجة الإيمان لدى المعنيين. وسنعمل على تناول الموضوع من خلال ثلاثة عناصر:

1- نظرة المريض إلى مرضه
2- نظرة المجتمع إلى المرض
3- سلوكات اجتماعية زمان الأوبئة

1-نظرة المريض إلى مرضه:

إن دراسة المواقف المتخذة من المرض قد أظهرت تقلبا وتذبذبا واضحا ومستمرا، إذ ننتقل من حالة إلى تلك المقابلة لها، من الشكر والإذعان والقبول إلى الضجر والرفض وكثرة الشكوى إلى ستر المرض عن الآخرين، ورفض العلاج إلى قبوله، واستغلال المرض للاستعداد للموت والتوبة. وهذا التقلب ليس غريبا عن أشخاص في حالة اضطراب نفسي ناتجة عن ألم المرض وشفقة الآخرين التي قد تتحول إلى شماتة واستهزاء. وقد ميزنا في تصرفات المرضى بين أشكال عدة.

نبدأ حديثنا عن حالة الرضى والتقبل وشكر الله على اختباره واعتبار المرض تجربة يثبت فيها المرء مدى قدرته على الصبر وعمق إيمانه. وبالرغم من أن أغلب الحالات من هذا النوع خاصة بمتصوفة وانطلقت مع تطور الحركة الصوفية (ق 6 هـ / 12 م)، فإننا نعتقد أنها واسعة الانتشار. ويتحدث التادلي عن أبي يعقوب يوسف بن علي المبتلى (ت 593 هـ / 1197 م) من مراكش قائلا: "سقط بعض جسده في بعض الأوقات فصنع طعاما كثيرا

[1]- يستثنى من هذا الأمر كتابنا "الموقف من المرض في المغرب والأندلس في العصر الوسيط"، مطبعة مانيبال، بني ملال، 2007.

للفقراء شكرا لله تعالى على ذلك."[1]. وكان أبو عبد الله ابن جزي في مرضه لا ينفك يردد كلمات الشكر والحمد لله والتسليم لقدره ويعتبر البرء والسقم سيان ويلزم نفسه بالصبر والتحمل.[2] و"كان [أبو محمد القاسم الشاطبي الرعيني] يعتل العلة الشديدة فلا يشتكي ولا يتأوه، وإذا سئل عن حاله قال: العافية لا يزيد على ذلك"[3].

وتقابل هذه الحالة حالة الضجر والشكوى ورفض المرض، ويجب أن نلاحظ أن الحالات التي نتوفر عليها تهم الفترة الممتدة من القرن 5 هـ/11م حتى نهاية العصر الوسيط. ونعتقد أن هذا الأمر ليس صدفة ولا نتيجة فقط لوفرة المادة، بل هو نتيجة لتغيير حصل في المجتمع الأندلسي– المغربي ارتبط بالنمو الحضاري وزيادة الرغبة في التمتع بالحياة وتطور الطب مما جعل النظرة إلى المرض أكثر واقعية وعرف بإمكانية علاجه. فخلال القرن 5هـ/11م، نلتقي بحالة متميزة وهي حالة الوزير أبي عامر ابن شهيد (ت426 هـ/ 1035م) المصاب بالفالج. فقد ترك إنتاجا أدبيا واسعا أكثر فيه من الشكوى والتبرم والتنبؤ بقرب موته، وتوديع الأصدقاء والإخوان والتأسف على الأيام الجميلة[4]. وتتكرر هذه الحالة عند آخرين وكلها تظهر قوة الضجر وقلة الصبر التي ترافق المرض[5]. وإذا كان هذا حال مثقفين فكيف ستكون الأوضاع في أوساط العامة حيث تكثر الأمية ويقل الاهتمام بآداب السلوك؟

ويلتجئ كثير من المرضى إلى ستر أمراضهم إما عن كل الناس أو فقط عن الأجانب، ويعود هذا التصرف إما إلى التدين كما هو شأن المتصوفة الذين يرفضون الشكوى من قدرة الخالق لمخلوق، فهذا أبو صالح ابن الدلال المراكشي "مرض(...) مرضه الذي مات منه فما عرف علته أحد فلما مات وجد الجنب الذي كان ينام عليه قد أنفذته الأكلة إلى جوفه وما علم أحد بذلك إلى أن مات."[6]، أو خجلا وحياء كما ينقل الزموري عن أحدهم: "أصابتني علة عظيمة في موضع قد استتر من جسمي وأنا أكره أن يطلع علي أحد إلا الله تعالى، وكنت

1- التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1984، ص. 312.

2- المقري، أزهار الرياض، مطبعة فضالة، المحمدية، 1978، ج 3، ص. 195 ونفح الطيب، دار الكتاب العربي، بيروت، 1949، ج 8، ص. 46.

3- نفح الطيب، ج 2، ص. 232.

4- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، دار الثقافة، بيروت، 1979، ج 1، ص. 328 – 9 و 331 – 332 والحميدي، جذوة المقتبس، الدار المصرية، جذوة المقتبس يني بيروت، 1979، القاهرة، 1966، ص. 133 – 134 وابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، القاهرة، 1964، ج1، ص. 84.

5- محمد حقي، الموقف من المرض، ص.33-34.

6- التشوف، ص. 184 – 185.

أعالج منها أمدا عظيما."[1] ، أو تكبرا وخوفا من شماتة الأعداء كما يوضح ذلك قول أحد مرضى أبي العباس السبتي: "أصابني تشنج سترته عن أعين الناس في منزلي، فبعثت إليه ﷺ أن يأتيني"[2]. وهذا الموقف يعكس عادة اجتماعية قديمة في المجتمع المغربي– الأندلسي، وهي اعتبار المرض عيبا يثير سخرية الآخرين، ويحتفظ لنا عياض بنص من القرن 3 هـ / 9 م يثبت ذلك جاء فيه: "ذكر أنه كان بينه [أحمد بن يحي بن يحي بن يحي(ت297 هـ/ 909 م)] وبين بعض جيرانه الكبراء شيء، فعاده في علته التي مات فيها، فلما علم به قال أقيموني وتجلد له، ولما سأله عن حاله، قال: في عافية والحمد لله، فلما خرج تمثل: "وتجلدي للشامتين أريهم"."[3]. فالتستر على المرض ظاهرة لازمت العصر الوسيط المغربي– الأندلسي، لكن سببه يختلف حسب فتراته فإذا كان الحياء والخجل من المرض والإصابة به، ثم الكبرياء والخوف من شماتة الأعداء قد لازما الفترة كلها، فإن تصاعد دور التصوف قد أعطى إشارة الانطلاق لسبب آخر يتعلق هذه المرة بالتقوى والورع والصبر بحثا عن الثواب والأجر، مع الإشارة إلى أن هذا العامل الأخير قد يختلط في بعض الأحيان بالعاملين السابقين. ونظرا لكون المتصوفة أقلية وكذلك كون الأمراض التي يستحي من إبراز أماكنها (الأعضاء التناسلية خاصة) قليلة، فإن السبب الأكبر لستر الأمراض سيبقى الكبرياء والخوف من الشماتة، ومازال المجتمع المغربي لحد الساعة يحتفظ ببعض أوجهه.

ويرتبط بستر الأمراض رفض العلاج عامة أو بعض أشكاله. ويبدو أن المجتمع المغربي – الأندلسي كان يعرف انتشار موجة تنصح بعدم الإقبال على الطب والأطباء فمثلا يقول مثل شائع: "كل الزيت ولا تمشي لطبيب"[4]. ونتوفر على مجموعة من الشواهد أغلبها يعود إلى الفترة الممتدة ما بين القرن 3هـ/ 9م و5 هـ/ 11م وتهم مجموعة من الشيوخ الذين يرفضون علاج العمى طمعا في الثواب الذي وعدوا به وهو الجنة[5]. وإلى جانبهم تقف جماعة أكثر تطرفا وتشددا إذ ترفض كل أشكال العلاج طيلة حياتها مبررة سلوكها بالتقوى والورع، فمثلا محمد بن محمد بن عبد الله بن أبي دليم القرطبي (ق 4 هـ/ 10 م) "لم يتداو

1- الزموري، أخبار أهل طيط، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط، رقم 1358، ص. 124 – 125.

2- التشوف، ص. 476 (ملحق)

3- عياض، ترتيب المدارك، مطبعة فضالة، المحمدية، ج 4، ص. 160.

4- الزجالي، أمثال العوام، نشر وزارة الثقافة بالمغرب، ج 2، 2، ص.161.

5- الموقف من المرض، ص. 36.

قط، ولا احتجم"[1]. ولما توسع التصوف خاصة في المغرب توسعت حركة رفض العلاج والاستغناء عنه، إذ يعتبر المتصوفة عدم العلاج علامة على الصبر وتقبل بلاء الله واختباره وتعبيرا أكثر عن قوة توكلهم. فسليمان بن يحي ابن ستهم (ت 609 هـ/ 1212 م) "أصابته - رحمه الله – أكلة في وجهه [مات منها] فما عالج قط داءها ولا استعمل دواءها وقد قيل التصوف اصطبار واختبار"[2]. وتثبت الشواهد السابقة أن رفض العلاج عادة ما ينطلق من اعتقاد ديني، إما بحثا عن الجنة بالنسبة لأمراض العيون، أو إثباتا لقوة الإرادة وصدق التوكل بالنسبة للمتصوفة، إلا أن ما تجب ملاحظته هو أن هذه الفئة التي ترفض العلاج محدودة العدد بالرغم من التزايد الذي سوف تشهده انطلاقا من القرن 6 هـ/12 م.

ظهر أعلاه أن فئة قليلة فقط من المجتمع هي التي ترفض العلاج وهو ما يعني أن أغلبية سكان المغرب والأندلس يبحثون عن العلاج[3]،

لكن أي علاج يختارون؟ أمام استحالة إيجاد جواب دقيق وشامل، فضلنا أن نبحث عن مدى حجم الإقبال على الطب العلمي والفئة الاجتماعية التي تبحث عن خدماته.

إن تتبع الشواهد المتوفرة حول إقبال السكان على الطب العلمي يكشف بسرعة أن أغلب العناصر التي تلجأ إلى خدماته تنتمي إلى فئة الأمراء والملوك والإداريين والمثقفين أو بصفة إجمالية ما يعرف بفئة الخاصة. وحتى يتأكد ذلك بوضوح فسنعمل على استعراض مجموعة من الشهادات.

إن معظم الأطباء في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط يعملون في قصور الأمراء والملوك ويختصون بهم كدليل على إقبال هؤلاء على خدماتهم[4]. وتظهر كل الشواهد الثقة الكبيرة التي يضعها الملوك والأمراء في الأطباء منذ القرن 4 هـ/ 10م، فكلما حصل لهم توعك مهما كان بسيطا كانوا ملجأهم ومغيثهم.

إلى جانب الملوك والأمراء نجد فئة مهمة من المحيطين بهم من وزراء وأعيان وعلماء تفضل الطب العلمي على غيره من أشكال العلاج، فمثلا رحل أحد أفراد الأسرة الأموية في الأندلس ويدعى محمد بن معاوية ويعرف بابن الأحمر (قبل 300هـ/912م) إلى المشرق ومنه إلى الهند لعلاج قروح في وجهه والتزم لطبيب

1- ابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة، مطبعة المدني، القاهرة، 1988، ج2، ص. 86 وعياض، المرجع السابق، ج 6، ص. 151-152.

2- البادسي، المقصد الشريف، المطبعة الملكية، الرباط، 1982، ص. 118-119.

3- انتشر مثل في الأندلس يقول: "خلق الله الدا، واخلق الدوا، وهو تعبير واضح عن الاعتقاد في العلاج واللجوء إليه عند الحاجة. الزجالي، المصدر السابق، ج 2، ص، 208.

4- انظر الجدول ف "الموقف من المرض"، ص. 89.

هندي بدفع نصف ثروته، وكانت كبيرة مقابل شفائه مما يعاني منه[1]. ولما شاخ الزاهد الفقيه ابن وضاح القرطبي (ت287هـ/ 900م) "دله الأطباء أن يروح نفسه، فكان يداعب ويضحك."[2]. والتجأ الوزير عبد الله بن بدر إلى الأطباء لعلاج ابنه من قروح خلال القرن 4هـ/ 10م[3]. وفي وصيته لأبنائه جعل ابن الخطيب الطب من العلوم التي تجب دراستها[4]. ويتحدث ابن مرزوق عن مرضه في فاس وتلمسان فيذكر أن الطبيب كان يزوره صباح مساء في بيته لعلاجه والإشراف على صحته[5]. وفي مرضه، استقبل أبو عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك زواره و"الطبيب بين يديه يتخذ له شرابا"[6].

تثبت هذه الشهادات أن الأمراء والمحيطين بهم (الخاصة) كانوا يقبلون بقوة على الطب العلمي ويثقون في إمكانياته، وهو أول ما يفكرون فيه عند الإحساس بألم أو الإصابة بمرض. وإذا كان هؤلاء يشكلون الزبناء الرئيسيين لهذا النوع من الطب، فإن ذلك لا يمنع مع كون بعض أفراد العامة يستفيدون من خدماته ويلجأون إلى رجاله.

فمنذ القرن 4هـ /10م، بدأنا نصادف بعض الإشارات التي تثبت اهتمام العامة بالطب العلمي. فالمستنصر الأموي يسمح لطبيبه أحمد بن يوسف الحراني بأن يعطي الفقراء والمساكين والمرضى من الأدوية التي يعدها في القصر. وكان الطبيب أبو الوليد الكتاني (ت 420هـ / 1129م) سخيا بعلمه يواسي به الفقراء والمساكين لذلك أحبته العامة. واشتهر أبو بكر ابن القاضي أبي الحسن الزهراوي بكونه "يطب الناس من دون أجرة ويكتب النسخ لهم"[7]. وفي سبتة، كان محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري (ت750هـ/ 1350م) يدرس الطب "ويدخل إليه أصحاب العلل والزمنى شيوخا وكهولا لحضور دولته الطبية"[8]. إن هذه الإشارات تثبت بوضوح أن الأطباء يخصصون جزءا من خدماتهم لعامة الناس، وإذا كان هذا يثبت إقبال العامة على الطب فتقديم الأطباء لخدماتهم مجانا يؤكد بالمقابل أن عدد المستفيدين منه سيظل محدودا جدا.

1- الحميدي، جذوة المقتبس، الدار المصرية، 1966، ص.89-90.

2- عياض، المرجع السابق، ج4، ص: 440.

3- ابن جلجل، طبقات الأطباء، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985، ص. 99.

4- المقري، أزهار الرياض، ج1، ص، 330.

5- ابن مرزوق، المسند الصحيح، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1981، ص. 490-491.

6- ابن الخطيب الكتيبة الكامنة، دار الثقافة، بيروت، ص.283.

7- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، دار الفكر، بيروت، 1956، ج3، ص.68 و72 و130.

8- بلغة الأمنية، ص.25.

وتضاف إلى تطوع الأطباء حالات أخرى يبحث فيها أفراد من العامة عن العلاج الطبي. وقد تمكنا من الحصول على بعض النصوص بداية من القرن 6هـ/ 12م.

ينقل التادلي عن أحدهم أن أختا له أصيبت ببرص فخصص لعلاجها عشرين دينارا وسافر بها إلى أطباء فاس قبل أن يفشلوا ويلتجئ إلى متصوف[1]، وفشلت جهود آخر في علاج الصرع على يد الأطباء بعدما كرر زياراتهم[2]. وقال أبو القاسم البلوي (ت 618هـ/ 1221م) متحدثا عن مرضه في مراكش: "يحضرني مهرة الأطباء للنظر في علاجي وتدبير علتي"[3]. فهذه النصوص تبين أن هناك رغبة في الاستفادة من خدمات الطب من قبل العامة، وتقديم استشارة الأطباء على غيرهم.

من كل ما سبق أعلاه يظهر بوضوح أن هناك إقبالا على الطب العلمي داخل المجتمع المغربي الأندلسي، لكن الفئة التي تستفيد منه تبقى محصورة في فئة الخاصة (حكام – إداريون - أعيان - علماء) دون أن يعني ذلك عدم وجود فئة من العامة؛ بالرغم من قلتها، تقبل على خدماته. وعندما نحاول أن نحدد أسباب ذلك نجدها أولا في عقلية المجتمع، فالعامة أبطأ في تغيرها وتقبلها للأشياء الجديدة، عكس فئة الخاصة المستعدة لتبنيها بسرعة، وثانيا في الطب نفسه، ذلك أن عدد الأطباء محدود جدا وأغلبهم يبحث عن خدمة الأمراء ويطلب أجورا مرتفعة، ثم ثالثا في المنافسة الشديدة من طرف باقي الأشكال العلاجية خاصة الطب الشعبي السهل المنال ثم المتصوفة انطلاقا من القرن 6هـ/ 12م.

أخيرا فالمرض يحرك مشاعر المريض، ويقوي عاطفته الدينية، ويجعله يفكر أكثر في نهايته وموته، فيعمل على التوبة والتخلص من كل تبعات الدنيا والزيادة من تعبده والعمل على ضمان مستقبل من لهم علاقة به وبحياته. فمثلا الحكم الربضي المشهور بقسوته "أخذته في العلة رقة فكان يسهر بالقرآن إلى أن توفي" عام 206هـ/821م[4]. وكان محمد الأنجري الأنجري السبتي (ت 803هـ/ 1402م) "يبعث إلى من وقع بينه وبينه كلام أو شيء فيتغافر معه ويبكي، ولم يزل ذلك دأبه في زمانته"[5]. وكان البعض عند المرض يهرع إلى المكان الذي يحب أن يموت فيه، كما حصل لمحمد بن عبيد الله بن حسين الكلبي ابن ميسون المالقي (ت 519هـ / 1124م) لما "مرض واشتد مرضه، فتكلف التوجه إلى مالقة بلده، فوصل إليها

1- التادلي، المرجع السابق، ص:269.

2- نفسه، ص : 232.

3- ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، دار الثقافة، بيروت، ج 6، ص. 385.

4- ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار النشر للجامعيين، ص، 77.

5- بلغة الأمنية، ص.46.

وقد اشتدت علته فتوفي"[1]. ويتوجه اهتمام المريض أيضا نحو من لهم علاقة به لضمان مستقبلهم، فأغلب الحكام عند مرضهم يعملون على تعيين خلفائهم[2]، وأفراد من عامة الناس يوصون بأبنائهم وأسرهم[3]. ويعمل الأعيان والأمراء على عتق عبيدهم وتمتيعهم بالحرية بحثا عن الأجر[4].

إن التوقف عند موقف المريض من مرضه أظهر لنا أن هناك ميلا عاما لتقبل المرض وتحمله على اعتبار أنه جزء من حياة الناس لذلك يعمل المريض على اتخاذ الاحتياط اللازم أولا، بمحاولة التخلص من ذنوبه السابقة والزيادة من عبادته والاطمئنان على مستقبله ومستقبل غيره ممن يرتبطون به ما دام الموت قادرا على مفاجأته بين الفينة والأخرى، فالمرض رديف الموت. وثانيا، محاولة البحث عن حل لهذا المشكل عن طريق العلاج بالرغم من اختلاف النوع المختار فالخاصة تميل نحو الطب العلمي، بينما تبحث أغلبية المجتمع (العامة) عن خدمات الطب الشعبي أو علاج المتصوفة أو الحامات الحارة دون الإعراض تماما عن الطب العلمي. ويشذ عن هذا الموقف حالات ترفض المرض وتتأفف منه ظهرت منذ بداية القرن 5 هـ/ 10م، وهذا يثبت بداية ظهور تغيرات في موقف المجتمع من المرض كان نجاح الطب العلمي؛ دون شك، مساهما فيه إضافة إلى ازدهار الحضارة والإقبال على الحياة وحب التمتع بها في ظل حكم ملوك الطوائف في الأندلس، وكذلك ظهور فئة من الزهاد وبعدهم المتصوفة الذين رفضوا العلاج واقتصروا على الدعاء منطلقين من ورعهم وتقواهم، وهذا التيار سيتقوى انطلاقا من القرن 6 هـ/ 12م. وأخيرا نشير إلى أن أهل المغرب والأندلس نظروا إلى المرض كعيب يثير خجل المريض وشماتة العدو لذلك عملوا على إخفائه وستره خاصة عن الأجانب. إذا كان هذا موقف المريض فكيف يعامل الوسط مريضه؟

2-نظرة المجتمع للمرض:

إن تتبع تصرفات المحيطين بالمريض سواء كانوا قريبين منه (الأسرة) أو بعيدين عنه نسبيا (الأصدقاء والجيران) يظهر بوضوح أنه يحظى بعناية كبيرة واحتواء مبالغ فيه أحيانا. ويحافظ المريض على دوره داخل مجتمعه يخالطه ويشاركه في كل شيء بالرغم مما قد يسببه ذلك من انتقال العدوى إلى الآخرين. وتتخذ معاملة الوسط للمريض صورا عديدة منها: التمريض داخل المنازل وتكفل الأسرة بالعناية بالمريض وعيادته المستمرة وتقديم المساعدة المادية والصدقة للفقراء من المرضى

1- ابن عبد الملك المراكشي، المرجع السابق، ج 6، ص. 331.
2- ابن عذاري، المرجع السابق، ج 2، ص، 77.
3- ابن الابار، الحلة السيراء، ج 2، ص. 364.
4- ابن حيان، المرجع السابق، ج 6، ص. 207.

وعزل المريض والتقزز منه ثم تمني موته ليتخلص من ألمه.

-التمريض في المنازل:

كان المرضى في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط عندما يحتاجون إلى التزام الفراش يبقون في بيوتهم وتتكفل الأسر بتقديم الرعاية اللازمة، لذلك نجد أن مختلف المؤسسات الطبية المنتشرة في هذه البلاد (دكاكين ومارستانات) لا تقدم هذا النوع من الخدمات وحتى المارستان فهو خاص بالغرباء، أما من له أسرة فهو يرفض اللجوء إليه بل ويتقزز الناس من دخوله كما يثبت نص أورده المراكشي[1]. فالتمريض بالبيوت هو أكثر من مجرد تصرف يخضع للصدفة، إنه موقف اجتماعي عميق التأصل يتماشى مع التماسك العائلي القوي الذي يعيشه هذا المجتمع. وقد احتفظت بعض المصادر بعدد مهم من الإشارات تهم هذا الموضوع[2]. والحالات المتوفرة كثيرة وتثبت كون الظاهرة واسعة الانتشار ومستمرة، فهي تهم كل أنواع الأمراض بما فيها الجذام، كما تمس كل الفئات الاجتماعية خاصة وعامة.

وإذا كان هذا التمريض يخدم المريض ويشعره بالأمان، فهو مقابل ذلك يخلف عواقب وخيمة وسط الأسر خاصة إذا تعلق الأمر بأمراض معدية كما يرد ضمنيا في المصادر. فمثلا أورد ابن القاضي عن أحدهم أنه "توفي من علة السل، وذلك في حدود سنة 707 أو 708 هـ/ [1307م]، وكان ثالث ثلاثة إخوة هو أكبرهم (...) ماتوا من علة واحدة في زمن قريب".[3] وتحدث ابن عباد عن آخر قائلا: "فقرح قرحا فاحشا وقرح كل مولود ولد له بعد ذلك"[4]. فالعدوى إذن كانت حاضرة ونتائجها وخيمة، ولكن لا مجال للتراجع عن التمريض في المنازل الذي هو تصرف اجتماعي أكثر منه عملية طبية.

-عيادة المرضى:

كلمة عيادة كما تعرف في معاجم اللغة مشتقة من عاد يعود بمعنى زار والمصدر العود والعياد والعيادة بمعنى زيارة المريض[5]، ويضيف ابن منظور أن العيادة ارتبطت بزيارة المرضى حتى صارت وكأنها مختصة بهم[6]. فالعيادة بذلك زيارة المريض في مرضه وفي محل تمريضه.

1- عند حديثه عن محمد بن أحمد بن رضى البكري أورد: " وتوفي بعض حفدته الذكور بها غريبا وحيدا بمارستانها [مراكش] " أنظر الذيل، ج 5، قسم 2، ص. 638.

2- الموقف من المرض، ص. 44. 45.

3- ابن القاضي، درة الحجال، ج 1، ص. 126.

4- ابن عباد، الرسائل الكبرى، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 891 د، ورقة 153 (وجه2).

5- الزبيدي، تاج العروس، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1972، ج 8، ص. 433.

6- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج 3، ص. ص. 319.

حظيت عيادة المرضى باهتمام كبير في المجتمع المغربي– الأندلسي، وصارت ترفع مكانة من يحافظ عليها خاصة إذا كان من أولي الأمر أو أعيان المجتمع، لذلك نجد بعض الحكام يستغلون موقعها في النفوس للتقرب من الرعية، فمثلا كان هشام الرضى ثاني حكام الأمويين في الأندلس (ت 180 هـ/ 797م) يمدح بأنه كان "يعود المرضى"[1]، وكان أبو الحزم ابن جهور "يعود المرضى جاريا على طريقة الصالحين"[2]. فأنت ترى أن هذا التصرف اعتبر عملا للصالحين والأولياء، وسيظل وزنه مرتفعا طيلة فترة العصر الوسيط.

وقد وضعت لعيادة المرضى آداب حددت في: زيارة المريض مرة كل ثلاثة أيام وقضاء وقت قصير معه والاختصار في الحديث معه والسؤال عن حاله[3].

ويزور المريض أصناف متعددة من الناس يأتي على رأسهم الأصدقاء والأقرباء والطلبة والأتباع والسلاطين وزملاء المهنة والعمل. وتتجاوز العيادة الأصدقاء إلى من لهم خلاف أو صراع أو حتى عداوة مع المريض. فهذا أحمد بن يحي بن يحي بن يحي الليثي (ت 297 هـ / 910 م) يتلقى زيارة أحد جيرانه الكبراء؛ وكان بينهما خلاف، في مرضه الذي مات منه[4]، وزار رجل مريضا كانت له معه دعوى قضائية حول حقل في مرضه[5].

وقد لا تكون العيادة شخصية بحيث تتخذ شكل رسالة نثرية أو قطعة شعرية يبعث بها العائد للمريض. وتحتفظ مصادرنا بعدد منها نذكر منها قصيدة لابن سهل يوجهها لحبيب مريض لم يتمكن من زيارته[6]، وأبيات للمعتمد للمعتمد أنشدها في أم الربيع التي مرضت ولم يزرها[7].

جرت العادة في المجتمع المغربي-الأندلسي أن يحمل العائد بعض الهدايا للمريض[8]. وعادة

1- المراكشي، المرجع السابق، ص. 33 والنويري، تاريخ المغرب الإسلامي، دار النشر المغربية، البيضاء، 1985، ص.77.

2- نفسه، ص. 91. ونفسه، ص.146.

3- قال الناظم:

حكم العيادة يوم بين يومين وأقعد قليلا كمثل اللحظ بالعين

لا تبرمن عليلا في مسايلة يكفيك من ذلك تسأله بحرفين

عني قول العائد للعليل: كيف أنت، شفاك الله .

نشد أحمد بن يحي بن أحمد بن سميق الطليطلي (ت 450 هـ / 1057 م) أبياتا في ذلك فقال:

إذا لقيت عليلا فاقعد لديه قليلا

ولا تطول عليه وقل مقالا جميلا

وقم بفضلك عنه تكن حكيما نبيلا

4- عياض، المرجع السابق، ج 4، ص.160.

5- نفسه، ج6، ص.115.

6- ابن سهل، الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988، 1988، ص. 39-40.

7- ابن بسام، المرجع السابق، ج 3، ص.43.

8- ما تزال هذه العادة مترسخة في المجتمع المغربي في الوقت الوقت الراهن، فلا أحد يزور مريضا دون أن يحمل معه

ما تكون شيئا يفتح شهية المريض، لكنها قد تكون موجهة لأسرته. فهذا عياض ينقل عن أحدهم قوله: "لقد عادني مرة فأخرج إلي نصف جبنة، وقال لي اعلم أنها لا تصلح للعليل ولكن كرهت أن آتيك دون شيء، ولم يكن عندي سواها فلتأكل به الخادم خبزها. وعادني مرة أخرى فأخرج إلي نصف سفرجلة."(قبل287 هـ/ 900م)[1]. وعبارات النص وتكلف العائد في الهدية يؤكد أن مهاداة المريض عادة مترسخة وواسعة الانتشار بل؛ ربما، أصبحت عرفا يثقل كاهل الأسر، ويثبت أيضا أن الهدية عادة ما توجه للعليل لتساعده على الشفاء كما يؤكد النص التالي: "حكى أنه أهدى له [ابن الجياب] الفقيه ابن قطبة رمانا ثم دخل عليه عائدا، فلما رآه قال له: يا فقيه نعم بالهدنة زمانك، أراد نعمت الهدية رمانك."(ت749 هـ/ 1349م)[2].

وتدور أثناء العيادة بين المريض والعواد أحاديث متعددة، يدور بعضها حول السؤال عن علته وحالته[3]، وبعضها حول التخفيف والترويح عنه[4]، وقد يحاول المريض التنصل من كل أخطائه السابقة ويشهد عواده على توبته وندمه أو يطلب منهم الدعاء له بالشفاء العاجل[5]. ويمتد الحديث أحيانا لاستحضار ذكريات جميلة تنسي المريض آلامه لبعض الوقت[6]. ويتطوع بعض الزوار فيقدم للمريض نصائح طبية ووصفات لعلاج مرضه[7].

أظهر تناول موضوع العيادة مدى أهميته في الموقف الذي يتخذه المجتمع المغربي – الأندلسي من المريض، وكذلك مدى تنظيمه منذ بداية التفكير في زيارة المريض حتى الخروج من بيته.

-التقزز من المرضى ورفضهم:

إذا كان المريض يستفيد من رعاية محيطه القريب والبعيد؛ وأحيانا بشكل مبالغ فيه، مما يشعره بالراحة والهدوء ويسهل شفاءه، فإن هذا لا يمنع من وجود تصرفات عدائية حياله بحيث يتحول مرضه إلى مصدر للسخرية والتنكيت وفي درجة أقصى للتقزز والرفض والإبعاد، بل إن السكان قد يبحثون عن مبرر شرعي باستصدار فتاوى فقهية تبيح عزله وإبعاده.

ويوفر كتاب "**أمثال العوام**" للزجالي عددا مهما من الأمثال التي تتناول بعض الأمراض والعاهات بالسخرية والهزل أو تظهر بعض

بعض الفواكه أو ورودا أو كل ما يمكن أن يروح عن المريض ويسعده.

1- عياض، المرجع السابق، ج 4، ص. 438.

2- المقري، نفح الطيب، ج 7، ص. 377.

3- عياض، المرجع السابق، ج 7، ص. 12 وج 3، ص.394.

4- ابن بسام، المرجع السابق، ج 2، ص. 621.

5- المقري، نفح الطيب، ج 7، ص. 395.

6- ابن بسام، المرجع السابق، ج 1، ص. 326 – 327.

7- ابن الخطيب، أوصاف الناس، مطبعة فضالة، المحمدية، ص. 123.

صفات أصحابها وخاصة منها: العمى والصمم والقرع والجذام والعرج، سنعمل على استعراضها.

- الأمثال الخاصة بالعمى[1] وتلخص الأمثال أهم خصال العميان وهي شدة الفضول والعجز عن تحديد القيمة الحقيقية للأشياء وشدة الفضول وارتكاب الكثير من الآثام والخطايا، والذكاء والحاجة إلى الصدقة في إشارة إلى احتراف الكثيرين منهم التسول.
- الأمثال الخاصة بالصمم[2]. وتؤكد على بلادة الأصم وعدوانيته.
- الأمثال الخاصة بالقرع[3]. وتظهر الأمثال الأمثال مدى فرار الناس من الأقرع وتجنبهم له بالرغم من ظرفه ولطفه وروحه المرحة، لأنه طول الوقت في حك وانشغال بعلته.
- الأمثال الخاصة بالعرج[4]. تسامح كبير مع الأعرج والاعتراف له ببعض الخصال.
- مثال عن الجذام[5]. "أقل للمجذام: تكل تكل المكشوف؟ قال: لن يزيد النحس ولا ينقص".
- مثال عن الحدب[6]. "أحدب هو أردب هو"
- مثال عن البكم[7]."أبكم هو أحكم هو"

يظهر من الأمثال أن المرضى وأصحاب العاهات كانوا محل سخرية واستهزاء من قبل المجتمع الأندلسي الذي لا ينسى أن يعترف بإمكانياتهم الخارقة التي لا يتوفر عليها الأصحاء[8].

ولا يتوقف هذا الموقف العدائي على الأمثال، بل إن المصادر تحتفظ ببعض الحالات الواقعية التي كان فيها المرضى مثار سخرية الآخرين. فمثلا عير أبو عبد الله القرطبي أبا زيد بن أبي العافية بجربه[9]. وفي تادلا، كان

1- الموقف من المرض، ص.60. أعمى ويمشي في الحرس. - الرقص قدام العمي، مجهودان لا يرى عمل/ أعمى هو، أثمى هو / صباح الأعمى للتين المدود / الانقر في بلاد العمي يسمى أبو العيون/ الأعمى والعرج ما عليهم حرج / إن كان هي صدقة العمي أولى بها / أعور أخير من أعمى/ أحول هو أتول هو/ أنقر هو أوقر هو.

2- نفسه، ص.61. الضراط مع الأصم نزاهة / القط الأصم، صح عليه وهو ما ينضم / الصم والاعدا تم.

3- نفسه، 61-62.اشكندخلن مع القرع نمشط رأس / رأس رأس بلا كيد، اقرع أخير من / اقرع كيف أصبحت؟ قال: مبتدي شر/ أول ولد نعملوه أقرع / أقرع هو أطبع هو.

4- نفسه، ص.62. أعرج هو أفرج هو /الأعمى والأعرج ما عليهم حرج.

5- نفسه.

6- نفسه.

7- نفسه،

8- لا زالت هذه الصورة منتشرة في المجتمع المغربي الحالي الذي لا يزال يروج بعض الأمثال المعبرة مثل:" ما يعرج ما يقرع إلا البلا المسلطة."

9- نفح الطيب، ج5، ص.62.

الزاهد أبو زكرياء يحي بن محمد الجراوي يخدم أحد الأعيان، وكان أقرع فلما أراد تقديم الماء لغسل أضياف له "أبى الأضياف أن يناولهم ذلك استقذارا له، فآلمه ذلك"[1]. وفي دكالة، مرض أحدهم و"انتفخت يده وقاحت ونتنت حتى أخرجه أهله وقومه من بينهم من شدة نتنه"[2].

ويتوسع الرفض ليتجاوز الأفراد المنعزلين إلى جماعات بأكملها، لذلك تتوجه نحو العلماء لاستصدار فتاوي لتبرير الإجراءات التي تعتزم اتخاذها. وتحتفظ "**فتاوي ابن رشد**" بحالتين من هذا النوع، تتعلق الأولى بإمام ظهر عليه الجذام فأرادت جماعته عزله، لكن الفتوى أباحت له البقاء في منصبه شريطة ألا يكون مرضه متفاحشا، والثانية تهم مبروصا يعمل بالعطارة بسبتة ويعمل المعاجن والأشربة للمرضى، ومثل الأولى فالشيخ يقول بالإباحة[3]. بالإباحة[3]. وأورد الونشريسي حالتين أخريين، حالة أعمى يبيع الزيت ومجذوم يدخل المسجد ويرد ماء القرية[4]. ويلاحظ أن اهتمام المستفتين يركز على مسألة العدوى (البرص والجذام) والنظافة (الأعمى). وما يلفت الانتباه أكثر هو موقف المفتين الذين لم يصدروا أحكاما قطعية واكتفوا فقط بالحديث عن الإباحة لتجنب الضرر، وهذا إن كان يؤكد على انعدام نصوص صريحة في الموضوع، فهو يثبت أن المجتمع المغربي – الأندلسي لم يصل بعد إلى تلك القسوة والصرامة في معاملة المرضى ويترك هامشا واسعا لتحركهم خاصة عندما تتكفل أسرهم برعايتهم. وتقتصر العينة التي تهمش على الفقراء والغرباء الذين لا أهل لهم يحمونهم ويمرضونهم لذلك يجمعون في أماكن خاصة.

-عزل المرضى: حارات الجذمى

توفر المصادر عددا من النصوص التي تشير إلى وجود قرى للمرضى بدون تحديد مما يدفع للاعتقاد بأن الأمر يتعلق بكل أنواعهم، ولكن القراءة الدقيقة لهذه النصوص ووجود نصوص صريحة تثبت أن عملية العزل تخص الجذمى فقط. وإذا كنا لا نعرف مصدر هذا التأكيد على هذا المرض، فإن كون المريض يتعرض لتعفن شديد في كل جسده، وانبعاث روائح كريهة منه، يجعله أكثر إذاية للناس ونقلا لعدوى المرض ولفتا للانتباه، وقد يضاف إلى هذا عادات موروثة عن العهد الروماني.

ولا نعرف بدقة متى بدأت عملية عزل المرضى في المغرب والأندلس، ولكن أقدم النصوص الموجودة بين أيدينا تثبت أنها كانت موجودة في

1- التادلي، المصدر السابق، ص.136.

2- الزموري، أخبار أهل طيط، ص.74.

3- ابن رشد، الفتاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، 1987، ج 2، ص. 883 – 4 و 1061.

4- الونشريسي، المعيار المعرب، ص. 421 – 422.

قرطبة منذ القرن 3 هـ/ 9م[1]، ثم انتشرت بعد ذلك في المدن الكبيرة في المنطقة. ويبدو أن عزل الجذمى لم يكن إجراء عاما وشاملا لكل السكان، ذلك أننا نصادف بعض الأشخاص؛ بالرغم من إصابتهم بهذا المرض، يستمرون في العيش وسط عائلاتهم. ولعل ذلك كان نابعا من مكانتهم الاجتماعية وتقبل الأسرة لهم ثم عدم تفاحش مرضهم. ومنهم محمد بن مروان بن ونان القرشي الاشبيلي (ق 4هـ / 10م) الذي "امتحن بعلة الجذام فلزم بيته إلى أن مات"[2].

وتخصص المدن الكبرى حارات للجذمى. وتعتبر قرطبة حسب النصوص المتوفرة أول المدن توفرا على حارة للجذمى وذلك منذ القرن 3هـ/ 9م. وكانت على الضفة اليسرى للنهر الكبير مقابلة للمدينة، وفي عهد الناصر ورغبة منه في إبعادهم نقلهم إلى منية عجب قبل عام 329هـ/939م[3]، وبعد ذلك تختفي كل المعلومات حولها، لكننا نرجح استمرارها حتى سقوط قرطبة في يد المسيحيين عام 636 هـ/ 1239م.

وكانت بمدينة طليطلة حارة للجذمى خلال القرن 5 هـ/11م، كان بها نزلاء كثر[4]. وعرف من أبواب غرناطة "باب المرضى" وهو إشارة إلى الجهة التي يوجد بها ربض الجذمى[5]. ويظهر من نص لابن الخطيب عند حديثه عن مالقة توفرها على حارة من هذا النوع[6].

في العدوة المغربية، تتوفر عدد من المدن على منعزلات للجذمى. فمدينة مراكش مزودة بحارة لهم تقع قبلي المدينة أمام باب أغمات، وكان يقيم بها عدد من المتصوفة ويزورها كثير منهم[7]. وفي فاس وجدت حارة الجذمى عند باب باب الكيسة من عدوة الأندلس (باب الخوخة) شرق المدينة منذ القرن 5 هـ/11م[8]، لكنها ربما ربما تكون أقدم من ذلك بكثير. وخلال الاضطرابات التي رافقت سقوط الموحدين وصعود المرينيين إلى السلطة انتقل الجذمى "وسكنوا بالكهوف التي بخارج باب الشريعة من أبواب عدوة القرويين"، ولما تولى يعقوب المنصور المريني نقلهم بطلب من السكان إلى كهوف باب الكوكب خارج باب الجيسة من

1- عياض، المصدر السابق، ج4، ص.439، ورد عنده عن ابن وضاح (ت 287 هـ/ 900 م) ما يلي: "فنويت زيارة إخوان لي في قرية المرضى".

2- ابن الفرضي، المرجع السابق، ج 2، ص. 38.

3- عياض، المرجع السابق، ج 6، ص. 87 و 90.

4- نفسه، ج8، ص.152-153.

5- الإدريسي، وصف إفريقية والأندلس، مطبعة النهضة، تونس، ص. 40 والقلقشندي، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915، ج5، ص. 214.

6- وجاء فيه: "كيف لا يتعلق الذام ببلد يكثر به الجذام، محلة بلواه آهلة، والنفوس بمعرة عدواه جاهلة." ابن الخطيب، معيار الاختيار، مطبعة أكدال، الرباط، 1977، ص. 53.

7- العمري، وصف المغرب، مجلة البحث العلمي، عدد1، 1964، ص.159 و ابن الزيات، التشوف، ص. 268 (انظر هامش الصفحة أيضا).

8- البكري، المغرب، ص.116.

عدوة القرويين عام 658 هـ/1259م[1]. وهناك سيستقرون حتى نهاية فترة الدراسة.

ووجدنا إشارة إلى حارة للجذمى في مدينة تازة عند باب الشريعة تعود إلى سنة 941هـ/1536م[2].

نعتقد أن هذه المدن ليست سوى أمثلة قدمتها لنا المصادر وأن هناك مدنا أخرى خاصة الكبيرة منها مثل: اشبيلية وبلنسية والمرية وسبتة وسلا، تحتوي على حارات أيضا للجذمى. لكن ما توفر من معلومات يعد كافيا لإظهار خصائص هذه الظاهرة ومدى انتشارها في المغرب والأندلس زمانيا منذ القرن 3 هـ/ 9 م وحتى نهاية العصر الوسيط، ومكانيا في أغلب المدن. وعزل المرضى أو عجز آخرين منهم لا يفيد تعرضهم للضياع والإهمال ما دام المجتمع يتكفل بإعالتهم واستمرارهم في الوجود بفضل صدقاته ومساعداته.

-مساعدة المرضى ماديا:

حرص المجتمع المغربي– الأندلسي على رعاية المرضى ومساعدتهم خاصة منهم الفقراء العاجزين أو المعزولين في أحياء الجذمى أو الموجودين في المارستانات بعد ظهورها (منذ ق6هـ/12م). وقد اعتبر المرضى من الأشخاص الذين يستحقون الصدقات كما يؤكد مثل شائع يقول: "إن كان هي صدقة، العمي أولى بها."[3]. ومن هذا المنطلق استفاد المرضى وخاصة منهم العميان والجذمى من أنواع كثيرة من المساعدات.

انتشرت في المغرب والأندلس عادة إطعام المرضى أطعمة تساعد في علاجهم، ونظرا لحرص الناس على ذلك وبذلهم كل الجهود لتحقيقه، أصبح مثل يتداول كلما ذكر هذا الموضوع: "سرق الخوخ ويطعمها للمرضى"[4]. ويتفاخر الناس بمن فيهم الحكام بهذه الخصلة، فمثلا كان أبو الحسن المريني يقول عن طفولته:" وكنت مهما رأيت مريضا في السكك، أسأله عن شهوته، فإذا أخبرني بها تحيلت في إيصالها إليه"[5].

وكان أفراد من المجتمع يوقفون الأحباس على المرضى في الحواضر الكبرى لضمان نفقاتهم وتغطية حاجياتهم. ففي قرطبة كان للجذمى مجشر محبس احتاج إليه الناصر الأموي فأخذه منهم بعوض كبير بعد موافقة الفقهاء[6]. وورد الحديث أيضا عن أحباس المرضى في نص فتوى لابن سهل[7]. وأورد ابن الزيات حادثة وقعت بين أبي الحسن بن حرزهم وأخيه بفاس، حيث هدد الأول الثاني

1- ابن أبي زرع، المرجع السابق، ص. 40-41.

2- حوالة أحباس تازة، فيلم رقم 134 في الخزانة العامة، الرباط، ص. 106.

3- الزجالي، المصدر السابق، ج2، ص.41.

4- نفسه، ص. 471.

5- ابن مرزوق، المرجع السابق، ص.128.

6- عياض، المصدر السابق، ج 6، ص. 87 و 90.

7- الونشريسي، المرجع السابق، ج7، ص.481.

بتخصيص نصيبه من تركة والده للجذمى[1] ليؤكد بكلامه انتشار عادة التحبيس عليهم في أوساط سكان مدينة فاس خلال القرن 6 هـ/ 12م. وكان الحكام يعتنون بالمرضى بتخصيص الأحباس لهم أيضا، فأبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر(ت635هـ/ 1138م) خصص صدقة جارية ل"ضعفاء أهل الحضرة [غرناطة] وزمناهم إلى اليوم"[2]. وكان أبو عنان يتصدق على المرضى على الدوام[3].

ويظهر أن المرضى والمحتاجين استغلوا هذا التعاطف فأصبحوا يتسولون بعرض عاهاتهم أو تصنع المرض، مما حرك المحتسبين للمطالبة بمنع هذه التصرفات. فهذا ابن عبد الرؤوف الكرسيفي يندد بذلك ويأمر بمنع "أصحاب الأورام والقروح البشعة، ومن يتعلق مصرانه من جنبه، والذي يصيح بوجع الحصا، والذي يظهر أنه مقعد، والذين يقرحون أيديهم ويوهمون الناس أن ذلك كله بلاء نزل بهم"[4]. دون أن يمنع ذلك المجتمع من السماح لبعض المرضى وخاصة العميان بالتسول أو ممارسة مهن أقرب إليه مثل القراءة على القبور.

- **تمني واستعجال موت المريض:**

إن عناية أفراد المجتمع بالمريض وشفقتهم عليه تجعلهم غير قادرين على تحمل رؤيته يتألم ويتوجع دون أي رجاء في العلاج، لذلك يتمنون له الراحة بالموت بما يشبه مفهوم الموت الرحيم المعاصر. ولا نجد في مصادرنا ما يدل على تدخلات مباشرة لإنهاء حياة المرضى وعذابهم، لكن يبدو أنهم وجدوا وسيلة ناجعة في دعاء الأولياء والصلحاء أحياء وأمواتا. ويحتفظ لنا الكتاني بكرامة لأبي جيدة أحمد اليزغيتي الفاسي (ت357 أو 358هـ/967 م–8م) جاء فيها أن رجلا كانت له ابنة أصابها مرض أعوزه علاجه فأتى إلى قبره وطلب الله أن يريحه منها في عافية، فاستجاب الله دعاءه ببركته فما أتت عشية ذلك اليوم حتى ماتت[5].

.تفسيرو اقعي للمرض (تحديد السبب)

كان الأطباء والعامة على حد سواء يميلون إلى تحديد أسباب واقعية لحدوث المرض والمتمثلة أساسا في الهواء (المناخ) والتغذية والجهد الزائد وقلة الحركة والانفعال القوي واختلال مكونات الجسد الأربعة

1- التادلي، المصدر السابق، ص.170. ووابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج 2، ص. 464 وابن عيشون، الروض العطر، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1997، ص.59.

2- ابن الخطيب، اللمحة البدرية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1978، ص، 43.

3- ابن بطوطة، تحفة النظار، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1997، ج 4، ص.199.

4- ليفي بروفنسال، ثلاث رسائل في الحسبة، مطبعة المعهد المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، 1955، ص. 113.

5- الكتاني، سلوة الأنفاس، طبعة حجرية، فاس، 1898، ج ج 3، ص. 92.

(النار/الحرارة . الأرض/البرودة . الهواء/اليبوسة. الماء/الرطوبة) إضافة إلى مس الجن والعين ودعاء المتصوفة[1]. وكما يلاحظ فهذه الأسباب كلها واقعية ومادية في مجملها وحتى ما يتعلق بالعناصر الثلاثة الأخيرة فلا يجب الحكم عليها بعقلية العصر الحالي بل بعقلية العصر الوسيط حيث تعتبر واقعا وحقيقة لا يشك فيها بناء على الحقيقة الدينية المهيمنة والموجهة.

نخرج من دراسة معاملة المجتمع للمريض بخلاصة أساسية وهي أن هذا المجتمع تقبل المرض ونظر إليه نظرة واقعية ومادية، وسعى إلى هزمه بالوسائل المتنوعة والمتوفرة له، واعتنى بمريضه وحماه من خلال تمريضه في المنازل وزيارته بشكل مستمر للتخفيف عنه، دون أن يعني ذلك انعدام الحالات المضادة.

3. سلوكات المجتمع زمان الوباء:

لا يأتي الحديث عن الأوبئة والطواعين في المصادر المغربية الأندلسية الوسيطة إلا عرضا ومن خلال إشارات مقتضبة وسريعة، وعادة ما يربط بينه وبين الجفاف والمجاعة، ويقتصر الحديث عنه على ذكر كثرة الموتى والعجز عن دفنهم إلا في حالات نادرة جدا شملت وباء مراكش عام 571هـ/1176م حيث تكلم ابن أبي زرع عن أعراض الوباء[2] والطاعون الأسود في الأندلس خاصة في غرناطة والمرية من خلال رسائل ابن الخطيب وابن خاتمة[3] التي تناولت الطاعون بشكل موسع ومن جوانب عديدة. وهذا الربط بين الوباء والمجاعة إضافة إلى التفسير الذي يعطى للوباء (المرض العام المقرون بكثرة الموت) وكون المجاعات تؤدي بدورها إلى كثرة الموتى يجعلنا نشكك في وجود عدد من الأوبئة التي تشير إليها المصادر. وللأسف فالدراسات الحديثة التي تناولت الموضوع لم تستطع التخلص من هذا الربط ولم تعط الفرصة لموضوع الوباء ليأخذ القسط الأوفر من جهدها[4]. وبالاعتماد على هذه النصوص

1. الموقف من المرض، ص.29.24.

2- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص.267.

3- ابن الخطيب (ت776هـ/ 1376م)، مقنعة السائل عن المرض الهائل، ملحق كتاب الطب والأطباء في الأندلس" لمحمد العربي الخطابي، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص.(187-188) وابن خاتمة أحمد بن علي، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، ملحق كتاب الطب والأطباء في الأندلس" لمحمد العربي الخطابي، ج2، ص.(161-186)، وابن هيدور، الأمراض الوبائية، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط، رقم9605.

4- بولقطيب الحسين، جوائح وأوبئة مغرب الموحدين، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002 والمزكلدي سميرة، المجاعات والأوبئة بالمغرب الوسيط (534هـ-776هـ/1139-1376م)، أطروحة دكتوراه من كلية الآداب ظهر المهراز من جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس موسم 2003-2004 ومزدور سميرة، المجاعات والأوبئة في المغرب الوسيط (588-927هـ/1192-1520م)، مذكرة ماجستير، من كلية الآداب بجامعة منتوري بالجزائر موسم 2008-2009 وخالد بلعربين

النادرة والفقيرة سنعمل على تحديد بعض السلوكات الاجتماعية التي تسود زمان الوباء.

-العلاج

لا يبدو أن علاج الوباء كان ناجعا وعادة ما يستسلم له من قبل العامة والفقهاء وحتى الأطباء مما جعل عدد الموتى كبيرا جدا[1]. فقد حصد وباء 189هـ/804م ثلث سكان إفريقية والمغرب والأندلس، ومات في وباء 288هـ/901م عدد لا يحصى من سكان الأندلس[2]. وفي وباء مراكش عام 571هـ/1176م، كان يموت في كل يوم ما بين مائة ومائة وتسعين وأكثر من العامة وفي قصور الموحدون ثلاثون شخصا يوميا ووصل مجموع الموتى ألف وسبعمائة قتيل[3]. ووصل عدد موتى الطاعون الأسود أرقاما قياسية في غرناطة ومالقة وبلنسية[4]. وكان نصيب الضعفاء منها كبيرا إذ يكثر الموت في أهل الفاقة والحاجة بتحالف المرض والجوع عليهم[5].

-الوقاية

اتجه أهل العصر الوسيط نحو الوقاية من الوباء بالعمل على إصلاح العناصر التي رأوها سببا لانتشاره وهي الهواء والماء والغذاء. فقد عملوا على **إصلاح هواء البيوت** باستعمال الطيوب الباردة والرياحين والفواكه ورش الخل وماء الورد والتبخير بالطرفاء والصندل والعرعر وقرن الماعز وتعليق النارنج والبصل والنعناع والتفاح وتقوية التهوية بفتح نوافذ في الجهات التي لا يوجد بها وباء وشم الروائح الطيبة، وإشعال النيران في ضواحي العمران، **واحترام الحمية** التي تقوم على أغذية باردة وجافة (عدس- فول- بقول- فواكه جافة) وخبز الحنطة المخمر والثوم والرمان الحامض وشرب أشربة مثل شراب البنفسج والطين الأرميني وأكل الكزبرة والحصرم (عنب غير ناضج) والليمون وحامض الأترج وتجنب اللحوم والأسماك والألبان والمرق والفواكه الرطبة، **والتزام الراحة والسكون والابتعاد عن الحمَام**[6].وكما هو واضح فهذه أشياء يمكن توفرها للأغنياء فقط أما عامة الناس الذين يعجزون حتى عن توفير القوت اليومي

المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد البزياني، دورية كان التاريخية (الإلكترونية)، عدد 9، يونيو 2009، ص.(19-29).

1- فتحة محمد، الوباء الجارف بالغرب الإسلامي، من كتاب "المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغارب"، عكاظ، 2011، ص93-95.

2- مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، ص.155 و182.

3- ابن عذاري، البين المغرب، قسم الموحدين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص.136 وابن أبي زرع، المرجع السابق، ص.267.

4- فتحة، المرجع السابق، ص.92.

5- ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص.167-168 ومدونة تاريخية من عهد الناصر، ص.50.

6- مزدور سميرة، المرجع السابق، ص.172-173.

فلا يمكنهم توفيرها مما يرفع عدد قتلاهم كما أشرنا إلى ذلك أعلاه. ويلجأ البعض إلى **نظام العزل** بقطع كل اتصال بأهل المدينة وهو نظام يحقق بعض النجاح كما فعل الزاهد أبو مدين السلوي الذي أغلق عليه باب منزله بالطين ففنيت المدينة بينما لم يفقد هو أي فرد من أفراد عائلته[1].

.دفن الموتى

حرص السكان في إطار التضامن الاجتماعي على دفن موتى الطاعون بالرغم من كثرتهم وقلة من يستطيع القيام بأمورهم وعاملوهم معاملة الشهداء حيث يدفنون في القبر الواحد عددا كثيرا من الناس من دون غسل ولا صلاة[2]. وقد يكون هذا من باب الوقاية وتجنب مزيد من تفشي الوباء.

- التوتر الاجتماعي والتكافل

لم تمنع الحالة الصعبة التي يكون عليها الناس قطاع الطرق من النشاط حيث يغيرون على المسافرين والتجار وجالبي الميرة[3]. ويخبرنا ابن حيان أن العلاقات الاجتماعية فسدت وفشا التباغض والتقاطع بين ذوي الأرحام والأباعد خلال وباء عام303هـ/913م[4]. والأكيد أن قلة القوت والحرص الشديد عليه قد جعل الجميع لا يفكر إلا في نفسه. كما أن كثرة الموات وخاصة في أوساط عائلات بعينها يؤدي إلى تغير في الملكية وتجمعها عند بعض الناس[5]. الناس[5]. وتعمل السلطات على حفظ الأمن بالاحتراز من اللصوص والقطاع ووضع كل الكلف عن الناس وتقديم المساعدات الغذائية وتوقيف كل نشاط عسكري[6]، حيث يسود العاصمة نوع من السكون والركود. كما كان الناس يتصدقون كثيرا في هذا الوقت خوفا من الموت وطلبا للأجر، فمثلا تجمع في يد قاضي مالقة أيام وباء 749هـ من الصدقات ذهب وفضة وحلي مما لا يوجد في بيت المال[7].

- حفظ الهوية

احتفظ ابن أبي زرع بتصرف نادر رافق وباء مراكش لعام 571هـ/1176م؛الذي تميز بكون الناس يموتون بشكل مفاجئ ومن دون أعراض المرض، حيث "كان الرجل لا يخرج من منزله حتى يكتب اسمه ونسبه وموضعه في براءة

1- فتحة، المرجع السابق، ص.94.

2- ذكر بلاد الأندلس، ص.182 وابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص.167-168.

3- ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص.109 وابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص.168.

4- نفسه، ص.124 وابن القطان، نظم الجمان، ص.226. ص.226.

5- فتحة، المرجع السابق، ص.97.

6- نفسه، ص.109 وابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص.167-168 وذكر بلاد الأندلس، ص.155

7-فتحة، المرجع السابق، ص.97.

ويجعلها في جيبه، فإن مات حمل إلى موضعه وأهله.[1]

حارات الجذمى في مختلف مدن الأندلس والمغرب الكبرى. لكن القرن 5هـ/11مشهد ظهور تغيرات كبيرة تمثلت في ظهور تيار يرفض المرض ويضجر منه وأغلب ممثليه من المستمتعين بالحياة، وتيار آخر يخفي المرض ويرفض العلاج خاصة من الزهاد والمتصوفة.

خاتمة

تقبل سكان المغرب والأندلس المرض بواقعية وآمنوا بإمكانية علاجه وبحث أغلب المرضى عن وسيلة علاج تختلف باختلاف موقعهم الاجتماعي والثقافي. واعتبر السكان المرض إنذارا إلاهيا بقرب الأجل فاستغلوا الفرصة للتوبة والزيادة من أعمال البر. أما المجتمع فالتزم بحماية مريضه باحتضانه في المنازل وعيادته وتوفير العلاج وتقديم الصدقات وتخصيص الأحباس للمعوزين والغرباء في

1- الأنيس المطرب، ص.267.

الطّاعون الأسود في القرن الثّامن والعلماء المسلمون:

الدّكتور حاج بنيرد

جامعة مولود معمري – الجزائر

الملخّص: البحث عرض وتحليل لآثار الوباء العامّ في القرن الثّامن الهجريّ القرن الخامس عشر الميلادي؛ أعظم الأوبئة في العصر الوسيط، ضرب العالم القديم من الصّين وآسيا الوسطى والأناضول والشّام والعراق وشمال إفريقيا وكلّ أوربا، ووصل إلى الجزر المنقطعة في البحار، كجزر صقلية وقبرص، حتّى سمّي بالطّاعون والموت الأسود، وساهم في تغيير الخريطة الدّيمغرافيّة للعالم، وكانت له آثار مدمّرة على الدّول والمجتمعات، يحاول هذا البحث كشف آثاره على العلماء المسلمين ومساهماته بالتّدوين والتّأليف واقتراح السّبل للخلاص منه، لذلك حاولت التّعريف بالمؤلّفات الكثيرة الّتي خصّصت له؛ وصفا له وعلاجا، ثمّ حاولت ذكر أهمّ العلماء المسلمين الّذين ماتوا بسببه، وقد حفلت كتب التّراجم بذكر الكثير من وفيات سنة 749هـ، ولاحظت أنّ أغلبهم هلكوا بسببه، ممّا يجعلنا نعتقد أنّ هذا الوباء كان أشدّ ضررا من نكبة بغداد سنة 656هـ، فهذه أُحرقت فيها الكتب، أمّا الطّاعون الأسود فكاد يفني من بقي من العلماء، وذكرنا شهادات عاينت ذلك، منها شهادة ابن خلدون، وبعد عرضنا لمسار هذا الوباء وطريق انتشاره، والعجيب أنّه ابتدأ من الصّين ثمّ انتشر شرقا إلى أنّ زحف على أوربا وشمال إفريقيا، وهو ما يشبه وباء كورونا كوفيد 19 في أيّامنا هذه سنة 2020م، وختمنا بذكر يوميات ابن كثير مع الوباء في دمشق.

The black tyrants of the eighth century and Muslim scholars:

Hadj BENAIRED

Summary: Research presented and analyzed the effects of the general epidemic in the eighth century AH, the greatest epidemics of the Middle Ages, hit the ancient world of China, Central Asia, Anatolia, North Iraq, North Africa and all of Europe, and reached the islands cut off at sea, such as the islands of Sicily and Cyprus, up to the poison This research attempts to reveal its effects on Muslim scholars and its contributions to the duplium and the adaptation and suggestion of ways to get rid of it, so I tried to define the authors The many that i devoted to him, a description of him and a cure, and then i tried to mention the most important Muslim scholars who died because of him, and the books of the tawam mentioned many of the deaths

of 749 Ah, and i noticed that most of them perished because of it, which makes us believe that this epidemic was more harmful From the Nakba of Baghdad in 656 Ah, these books were burned, but the black tyrants nearly destroyed the remaining scholars, and we mentioned testimonies that i saw that, including the testimony of Ibn Khaldun, and after we showed the course of this epidemic and the way of its spread, and the strange fact that it started from China and then spread East to the march on Europe and North Africa, which is similar to the epidemic of Corona Cofed 19 in our days in 2020, and we concluded by mentioning the diary of Ibn Kabir with the epidemic in Damascus.

المقدّمة: أثناء تعاملي مع كتب التّراجم، وتحديدا كتاب برنامج ابن جابر الوادي آشي، لاحظت أّن كثيرا من علماء برنامجه تُوُفّوا سنة 749هـ/1348م بسبب الطّاعون، وسمّيت سنة الفناء، وأكثرهم من تونس وحواضر الغرب الإسلامي، وكانت هذه بداية تساؤلاتي حول هذا الطّاعون الّذي هلك فيه كثير من العلماء، ولاشكّ أنّه كان جارفا، كما لاحظت أنّ كتب تراجم المشارقة قد ذكرت أنّ عدداً كبيرا من الأعيان والعلماء قضوا فيه، وبالتّالي فإنّ مساحة هذا الطّاعون شملت الغرب الإسلامي والمشرق أيضا، ومنه فنحن نتحدّث عن وباء عظيم، وتحدّثت عنه أيضا المصادر الغربيّة؛ وذكرت أنّه تسبّب في هلاك نصف أوربا وخاصّة فرنسا وإيطاليا وبريطانيا؛ وأطلقت عليه اسم الطّاعون الأسود la peste noire، ومنه يستدعي البحث عن أماكن انتشاره وبدايته ثمّ حركته ووصوله إلى الحواضر الإسلاميّة وحصده لكثير من العلماء والأمراء فضلا عن عامة النّاس، وأدّى إلى تغيير الخريطة الدّيمغرافيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة، يحاول هذا العمل البحث عن أسبابه ونتائجه، ومسار انتشاره، وتعامل العلماء معه، وبالتّالي النّظر في إنتاجهم الفكريّ، وفي هذا الصّدد وقفنا على مقامة ابن الوردي (ت749هـ) الّذي توفّي فيه، وقد ذكرها مختصرة في تاريخه، وعنوانه: (النّبا عن الوبا)، نقلها ابن الوردي في تاريخه[1]. ونقلها ابن شاهنشاه في تاريخه[2]، ونقلها ابن حجر بإسناده في كتاب (الماعون في فضل

[1] ابن الوردي، زين الدّين عمر بن المظفّر، تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدريّة، النّجف، العراق، 1969م، 2/338-340.

[2] - ابن شاهنشاه، أبو الفدا إسماعيل بن عليّ، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينيّة المصريّة، دت، 4/151-153.

الطّاعون)[1]، فيما ترك لنا فيها بعض الأشعار والآثار، بينما ألّف ابن حجر العسقلاني بعد ذلك كتاب (بدل الماعون في فضل الطّاعون)، وهو كتاب طبّ ودين، ولاشكّ أنّه تأثّر بهذه الحادثة الّتي سبقته، ولو أنّ زمانه شهد بعض الطّواعين، ولكنّه كانت أقلّ تأثيرا من الطّاعون الأسود أو الجارف. وفي الغرب الإسلامي وقفنا على ثلاث رسائل ألّفت بخصوص الطّاعون الأسود؛ وهي: وكتب فيه أيضا في الأندلس اثنان آخران؛ هما: أبو جعفر أحمد بن عليّ بن خاتمة الأنصاريّ رسالة عنوانها: (تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد)، والثّاني أبو عبد الله محمّد بن عبد الله المعروف بلسان الدّين ابن الخطيب (ت776هـ) رسالة عنوانها: (مقنعة السّائل في المرض الوافد). وفي الغرب أنجزت الكثير من الدّراسات العلميّة حول هذا الوباء منها كتاب الباحث الفرنسي جون نويل بربان -في كتابه (الطاعون La peste)، ، وفي هذا الصّدد نجد كتاب (Epidémies et crises de mortalitédu passé)، وهي مجموعة من الأبحاث والدّراسات قام بها مجموعة من الباحثين والأساتذة بفرنسا بجامعة بوردو، بتنسيق دومينك كاستاكس Dominique Castex وايزابيل كارترون Isabelle Cartron، في إطار فعاليات ملتقى علوم الإنسان سنة 2005م، ونشر الكتاب سنة 2007م.

- ما هي حدود تأثير الطّاعون الأسود؟ وما هي أماكن انتشاره؟ وما هي بداياته ومسار انتشاره، وما هي أسبابه ونتائجه؟ وما ردّة فعل العلماء المسلمين حينها تجاهه؟

وللإجابة على هذه التّساؤلات اقترحت مسار العمل التّالي:

- بيبليوغرافية الطّاعون الأسود.
- ردّة فعل العلماء المسلمين منه.
- بداياته ومسار انتشاره.

1- بيبليوغرافية الطّاعون الأسود: قامت عدّ دراسات في الفترة الأخيرة حول النّكبات والأوبئة في تاريخ العالم القديم والحديث، وفق مناهج جديدة ووفق مقاربات أنتروبولوجيّة وأركيولوجيّة وتستعين بالحفريّات والتّخصّصات البيولوجيّة وغيرها، وفي هذا الصّدد نجد مثلا كتاب (Epidémies et crises de mortalité du passé)، وهي مجموعة من الأبحاث والدّراسات قام بها مجموعة من الباحثين والأساتذة بفرنسا بجامعة بوردو، بتنسيق دومينك كاستاكس Dominique Castex وايزابيل كارترون Isabelle Cartron، في إطار فعاليات ملتقى علوم الإنسان سنة 2005م، ونشر الكتاب سنة 2007م.

وفي التّراث العربي نجد الكثير من الرّسائل والكتب، وفي الطّاعون الأسود نجد:

[1] - ابن حجر العسقلاني، الحافظ شهاب الدّين أحمد بن علي، بذل الماعون في فضل الطّاعون، تحقيق: أحمد عصام عبد القادر الكاتب، دار العاصمة، الرّياض، ط1، 1411هـ/1991م، 371-379.

- كتاب الطّاعون لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم المالقي (ت763هـ).

- كتاب (إصلاح النّيّة في المسألة الطّاعونيّة) لأبي عبد الله محمّد بن جعفر البلياني (ت764هـ).

- كتاب (تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد) لأبي جعفر أحمد ابن خاتمة الأنصاريّ (ت770هـ)، وهو إجابة عمن سأله عن الطّاعون الحادث في المرية بالأندلس سنة 749هـ في أسبابه وطرق الوقاية منه وعلاجه وإيراد الآثار الواردة فيه[1].

- كتاب (مقنعة السّائل في المرض الوافد) لأبي عبد الله محمّد بن عبد الله السلماني الغرناطي المعروف بذي الوزارتين لسان الدّين ابن الخطيب (ت776هـ)، وقد نشرها المستعرب الألماني ماركوس جوزيف مولر مع ترجمة إلى الألمانيّة في مجلّة أكاديميّة العلوم البافاريّة (مجلد 6 سنة 1863م، 1-35)، وترجمها إلى الإنجليزيّة المستعرب ميرهوف، وشرحها ابنه أبو محمّد عبد الله بن محمّد بن عبد الله السلماني الغرناطي (كان حيا سنة 769هـ)، وسمّاها ابن الخطيب رسالة في الطّاعون؛ ذكر فيها أعراض هذا الطّاعون وطرق الوقاية والعلاج منه.

- كتاب (تحقيق النّبا في أمر الوبا) لأبي عبد الله محمّد بن علي اللخمي الشقوري (كان حيا سنة 776هـ). وله كتب أخرى في صناعة الطب: (تحفة المتوسّل وراحة المتأمّل)، لها نسخة بالخزانة الحسنية بالرباط برقم: 2337، وكتابا في الأدوية سمّاه: (الجهاد الأكبر)، ومجربات الشقوري لها نسخة بالخزانة العامة بالرّباط برقم: د1035، ورقم: د1680، والخزانة الحسنية برقم: 6323.

- وله كتاب (تقييد النّصيحة) في هذا الوباء من أجل الوقاية منه وعلاج المصابين، وذكر أسبابه وأعراضه؛ يقول فيها: "سببه فساد مبثوث في الهواء المتنفّس فيه، فلذلك أمر الأطبّاء بإصلاح الهواء، وهو من آكد الأشياء، ولا يعرف الهواء والحاجة إليه الكثير من النّاس، وإنّما يعرفه من يعتريه أمر يضيّق نفسه من تعب شديد أو مرض في آلات التّنفّس، ثمّ إنّ هذا الفساد يقع في الأبدان ويؤثّر فيها تأثيرا عظيما حسبما شوهد منه"[2]، وخصّه بإصلاح الهواء وإصلاح الأبدان بالغذاء والدّواء، ولها نسخة مخطوطة بمكتبة المنوني،

[1] - انظر: لسان الدّين ابن الخطيب، أبو عبد الله محمّد بن عبد الله السّلماني الغرناطي، مقالة مقنعة السّائل عن المرض الهائل، تحقيق وتقديم: حياة قارة، منشورات دار الأمان ومطبعة الكرامة، الرّباط، ط1، 1436هـ/2015م، ص19. له عدّة نسخ مخطوطة: نسخة بالخزانة العامة بالرباط برقم: ك255، ونسخة بالإسكوريال بإسبانيا برقم: 1785، ونسخة بمعهد إحياء المخطوطات العربيّة بالقاهرة برقم: 44 طب، ونسخة بمكتبة بايزيد بإسطنبول.

[2] - ابن الخطيب، مقنعة السّائل، المرجع نفسه، ص22.

ربّما ضرّ عاشق معشوقا ومن البرّ ما يكون عقوقا وقال ابن الوردي قبل موته بيومين[1]:

ولستُ أخاف طاعوناً كغيري فما هو غير إحدى الحسنيين

فإن متُّ، استرحتُ من الأعادي وإن عشتُ، اشتفتْ أذني وعيني

بالرباط ، ونسخة بمكتبة الإسكوريال برقم: 1785، ونسخة بالمكتبة الوطنية بمدريد برقم: 5067.

- كتاب (المقالة الحكمية في الأمراض الوبائيّة) لأبي الحسن عليّ بن عبد الله ابن هيدور التّادلي (ت816هـ)؛ وذكر أنّ سبب الأوبئة هو إمّا فساد الهواء أو فساد الأغذية أو هما معا وهو الطّامّة الكبرى كما ذكر؛ وعنده هناك طريقتان للعلاج؛ وهما: الدّعاء وطلب الشّفاء، والطّبّ والعلاج، وله عدّ نسخ مخطوطة: نسخة بالخزانة الحسنية برقم: 9605، ونسخة بدار الكتب المصريّة برقم: 183 طب، ونسخة بمؤسّسة الملك عبد العزيز بالمغرب برقم: 364، ونسخة في خزانة محمّد المنوني[2].

- ولأبي علي عمر بن علي بن الحاج السّعيدي المالقي (كان حيا سنة 844هـ) مقامة أدبيّة عجيبة في ذكر الطّاعون والتّطبّب منه ذكرها المقري (أزهار الرياض، 1/125-132).

- مصنّف في الطّاعون لتاج الدّين السّبكي (ت771هـ)، وردّ عليها صلاح الدّين ابن أيبك الصّفدي (ت749هـ).

- كتاب الطّب المسنون في دفع الطّاعون لشهاب الدّين أحمد ابن أبي حجلة التلمساني (ت776هـ).

- كتاب (ما رواه الواعون في أخبار الطّاعون) لشمس الدّين محمّد بن محمّد المنبجي (ت785هـ)، وهو مصنّف في طاعون سنة 764هـ يشير الشقوري في أمر هذا الوباء إلى أنّه شاع التّأليف فيه من الأطبّاء؛ بقوله: "ولا يبعد أن يكون إخواننا الأطبّاء قد صنعوا مثل صنعنا وألّفوا كما ألّفنا"[3].

- دفع النقمة في الصلاة على نبي الرحمة، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن أبي حجلة التلمساني(ت776هـ)، مخطوط بالأسكوريال. وله كتاب الطب المسنون في دفع الطاعون، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن أبي حجلة التلمساني(ت776هـ)، مخطوط بالأوقاف العامة بطرابلس، ونقل عنه السيوطي.

[1] - ابن الوردي، زين الدّين أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر الشّافعيّ، ديوان ابن الوردي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الآفاق العربيّة، القاهرة، ط1، 2006م، ص281.

[2] - انظر: ابن الخطيب، مقنعة السّائل، مرجع سابق، ص24-26.

[3] - الشّقوري، أبو عبد الله محمّد بن عليّ اللّخمي، النّصيحة في الوباء، مخطوط، المكتبة الوطنيّة الإسبانيّة، رقم: 8/5067، 5و.

- ومن هذه الكتب الّتي ذكر ت هذا الطّاعون واختّصت به (النّبا عن الوبا) لابن الوردي (ت749هـ)، ولخّصها في كتابه في التّاريخ،

- تحقيق النّبا من أمر الوبا للطّبيب عبد الله بن محمّد اللّخمي الشّقوري طبيب الأندلس والمغرب في زمانه له عدّة رسائل في الطّبّ منها هذه الّتي تكلّم فيها عن الوباء الكبير الّذي عصف بالأندلس ودخل من المرية سنة 749هـ/1348م، وأوضح أنّ تلوّث الهواء بوباء الطّاعون هو الّذي يحمل هذا المرض من مكان إلى مكان، وأنّ تنقية البيوت ببخور الصّندل أو البلسم وكشفه لأشعّة الشّمس وحركة الهواء يفيد للوقاية من هذا الوباء[1].

- وقد نُشرت رسالة (مقنعة السّائل) للسان الدّين ابن الخطيب بدار الأمان بالرّباط سنة 2015م، بتحقيق حياة قارة، وكلتا الرّسالتين قدّمتا وصفا رائعا لتحرّك وباء الطّاعون ولنوعيتي الرّئوي والدّملي، وعلامان وأعراض كلّ منهما وسبل الوقاية منهما[2]، وقد نشرت في ثلاث رسائل (مقنعة السّائل عن المرض الهائل لابن الخطيب، وتحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد لا بن خاتمة، والنّصيحة للشقوري) تحقيق ودراسة: محمّد حسن، ونشرت سنة 2013م.

2- مشاهير الأعيان والعلماء ممّن قضوا في هذا الوباء: قال ابن خلدون: "ولم أزل منذ نشأت مكبّا على تحصيل العلم، حريصا على اقتناء الفضائل، متنقلا بين دروس العلم وحلقاته إلى أن كان الطاعون الجارف (سنة 749) وذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواي رحمهما الله"[3]. ويفهم من هذا بأنّ هذا الطّاعون غيّر خريطة العالم سياسيا واجتماعيا.

وقد ذكر لنا أصحاب التّراجم كثيرا ممّن توفّوا بالطّاعون وأعدادا كبيرة من العلماء والأعيان سنة 749هـ وبعضهم قد سمّاه بالطّاعون الجارف، ولاحظنا أنّ ذكر في أغلب كتب التّراجم بالمشرق والمغرب، فمّن توفّوا بتونس عبد المهيمن الحضرمي مسند فاس[4] على أنّ ابن قنفذ لم يذكر سبب وفاته. وذكر بعضا منهم بتونس؛ كالقاضي محمّد بن عبد السّلام الهواري شارح ابن الحاجب في الفروع، ومفتي تونس محمّد بن هارون شارح مختصري ابن الحاجب، والخطيب حسن بن علي والد

[1] - طه عبد المقصود، الحضارة الإسلاميّة –دراسة في تاريخ العلوم الإسلاميّة، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2004م، 924/2.

[2] - طه عبد المقصود، الحضارة الاسلامية، المرجع السّابق، 925/2.

[3] - ابن خلدون، عبد الرّحمن بن محمّد الحضرميّ الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، تحقيق وتعليق: محمّد بن تاويت الطّنجي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2004م/1425هـ، ص64، 65.

[4] - ابن قنفذ القسنطيني، أبو العبّاس أحمد بن حسن، الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1983، ص352.

المؤلّف. ويبدو أنّ ابن قنفذ لا يعلم بكلّ من ماتوا بالطّاعون في غير بلده، فقد ذكر محمود بن أبي القاسم أنّه مات بالقاهرة وتردّد في سنة وفاته؛ فقال: "فيها –أي 745هـ- أو في الّتي تليها"[1].

وقد وصف ابن كثير بعض يوميّات هذا الوباء، وأنّه لا يدخل بيتا إلا هلك أكثر أهله، وأغلبه من النّساء، وقد يتجاوز ضحاياه المائتين في اليوم الواحد[2].

ويقول ابن شاهنشاه: "وفيها –أي سنة 749هـ- في شهر رجب، وصل الوباء إلى حلب، كفانا الله شره، وهذا الوباء قيل لنا إنه ابتدأ من الظلمات، من خمس عشرة سنة متقدمة، على تاريخه، وعملت فيه رسالة سميتها، النبا عن الوبا"[3].

وقد خصّص الإمام الذّهبي في عقب ذكر سنة 749هـ طائفة من العلماء والأعيان ممّن هلكوا في الطّاعون الأسود؛ حيث قال: "وفي أواخر صفر من هذا العام (749هـ) كان الطاعون العام بأقطار البلدان، وامتد إلى أواخر المحرم من العام المقبل، فقيل: مات بالقاهرة ومصر في اليوم الواحد نحو أحد عشر ألف نفس. وأما دمشق فأكثر ما ضبط فيها في اليوم أربعمائة نفس. فممن مات من المشهورين بالقاهرة ومصر، العلامة شمس الدين محمد ابن أحمد بن لاحق المعروف بابن عدلان، عن بضع وثمانين سنة. درس بأماكن، وناب في الحكم عن الإمام تقي الدين بن دقيق العيد قبل السبعمائة، تخرج به أئمة، والإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد المؤمن بن اللبان الإسعردي مدرس قبة الإمام الشافعي، والإمام الأصولي شمس الدين محمود بن عبد الرحمن بن أحمد الأصبهاني الحافظ، والحافظ شهاب الدين أحمد بن أيبك بن عبد الله الدمياطي، والمحدث المفيد شرف الدين صالح بن عبد الله القيمري، وقاضي الإسكندرية الإمام جمال الدين محمد بن محمد بن سبط القيسي، وابنه القاضي جمال الدين، والقاضي جلال الدين محمد القزويني. وبحلب شيخنا الفقيه العلامة جمال الدين يوسف بن مظفر بن عمر ابن الوردي، وزاهدها الشيخ علي بن محمد بن نبهان الرقي الأصل الجبريني، وقاضيها شيخنا الإمام نور الدين محمد بن محمد بن محمد بن عبد القادر ابن الصايغ الشافعي. وبدمشق القاضي الإمام عز الدين محمد بن عيسى ابن الأقصرائي الحنفي نائب الحكم، وشيخنا شمس الدين محمد بن الصلاح الشهرزوري مدرس القيمرية، وخطيب دمشق البليغ تاج الدين عبد الرحيم ابن القاضي جلال الدين محمد القزويني، وولي بعده الخطيب جمال الدين محمود بن جملة، والحاكم

[1] - ابن قنفذ، الوفيات، المرجع نفسه، ص350.

[2] - ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، 1986م، ج14ص261.

[3] - ابن شاهنشاه، المختصر في أخبار البشر، مرجع سابق، 151/4.

العادل زين الدين عمر بن سعد الله بن النجيح الحراني ثم الدمشقي الحنبلي.. وأخوه السيف أبو بكر، حدث عن الفخر وجماعة. وشمس الدين محمد بن عبد الهادي المقدسي محدث الصالحية، حدث عن الفخر وغيره. والمعمر بهاء الدين علي بن العز عمر بن أحمد بن عمر الشروطي عن تسع وثمانين سنة.. توفي في المحرم، وفخر الدين عثمان بن عمر بن عثمان بن الحرستاني المؤذن، عن اثنتين وثمانين سنة.. توفي في ربيع الأول، والعدل بهاء الدين محمد بن الإمام شمس الدين محمد بن أبي الفتح البعلي ثم الدمشقي الحنبلي .. والقاضي تاج الدين عبد الخالق، والثقة شهاب الدين محمد بن أحمد بن هارون الساوجي الصوفي، عن نحو سبعين سنة.. والرئيس النبيل، عماد الدين محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن هبة الله ابن محمد بن يحيى أبو المعالي ابن الشيرازي الدمشقي، عن بضع وستين سنة.. وكان فيه شهامة توفي في شعبان، وشيخ الشيوخ علاء الدين أبو الحسن علي بن محمود بن حميد بن مؤمن القونوي ثم الدمشقي الحنفي مدرس القليجية، والقاضي الإمام العلامة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، صاحب ديوان الإنشاء بالشام كان، وصاحب كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، في عدة أسفار. ولد في شوال سنة سبعمائة، وتوفي يوم عرفة ... وأممٌ لا يحصيهم إلا الله تعالى"[1].

3- بداياته ومسار انتشاره: وصف ابن الوردي (ت749هـ) خطّ مسار الطّاعون في مقامته حوله، وهي: الصّين، الهند، السّند، بلاد أزبك، بلاد ما وراء النّهر (أفغانستان)، بلاد العجم، القرم، بلاد الرّوم، قبرص، جزر المتوسط، الإسكندريّة، القاهرة، الصّعيد، برقة، غزّة، عسقلان، عكا، القدس، صيدا، بيروت، دمشق، المزّة، بعلبك، حمص، حماة، أنطاكية[2]. وفي بلاد الشّام -بحسب ابن كثير- ابتدأ من بِلَادِ الْقِرْمِ، ثمّ بِلَادِ الْفِرَنْجِ، ثمّ قبرص، وغزة، وأخيرا دمشق.

وذكر ابن خاتمة أنه أوّل ظهوره بالأندلس كان بألمرية أول شهر ربيع الأوّل من عام تسعة وأربعين وسبعمائة/ أوّل شهر يونيو سنة 1847م، واستمرّ تمام فصلي الربيع وجميع فصلي الصّيف والخريف وجزءا من الشتاء؛ وهو وقت شهادة ابن خاتمة وتأليفه؛ وقال بأنّه علامات بداية انجلاء الوباء قد ظهرت في هذه المدّة.

ويذكر ابن بطوطة شهادته حوله ويسمّيه بالطّاعون الأعظم عندما كان بدمشق أواخر

[1] - الذّهبي، شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان، العبر في تاريخ من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمّد السّعيد زغلول، دار الكتب العلميّة، بيروت، دت، ج4ص149-153.

[2] - رائد عبد الرّحيم، الحضارة الإسلاميّة، مرجع سابق، ص1501، 1502.

شهر ربيع الثّاني سنة تسع وأربعين وسبعمائة؛ وهو نفس زمان بداية طاعون ألمرية، ويبدو من خلال ما ذكره ابن بطّوطة أنّ الطّاعون كان في زمان ذروته بينما كان في ألمرية في بداية انحصاره؛ حين يصف فزع النّاس وشروعهم في صيام ثلاثة أيّام مع الدّعاء والصّلاة؛ إضافة إلى إجراءات وقائيّة تتمثّل في غلق المطاعم بالأسواق، وقد وصل حينها عدد الموتى إلى ألفين في اليوم الواحد، بينما وصل عددهم في القاهرة ومصر بحسبه إلى أربعة وعشرين ألفا في اليوم الواحد[1]، وقد ذكر ابن حجلة التلمساني أنّهم أحصوا بالقاهرة بين شهري شعبان ورمضان نحو تسعمائة ألف وهناك من خرج عن هذا الإحصاء[2]، وقد حصد الطاعون العام الذي وقع في 749هـ أكثر المزارعين قبل أن يتسنى لهم حصد مزروعاتهم، فلما جاء وقت الحصاد خرج العسكر بغلمانهم إليه؛ ويشير الباحث الفرنسي جون نويل بربان -في كتابه الطاعون (La peste)- إلى هلاك 40 قرية مصرية من مجموع 2200 قرية. وفي طاعون 795هـ بالشام "خلت مدينة حلب وبلادها"، وفي طاعون 826هـ خربت في بلاد الشام قريات كثيرة[3].

وفي أوائل شهر ربيع الأوّل وقع الوباء بغزّة، وبلغ عدد الموتى ألفا في اليوم الواحد، وبحمص ثلاثمائة إنسان في اليوم الواحد[4].

ويصف ابن خاتمة انتشار الوباء في ألمرية بدقّة، فقد بدأ انتشاره بها حينها بالتّدريج من أوّل ربيع الأوّل/ يونيو إلى آخر جمادى الثّانية/ سبتمبر، ثمّ دخل بعد ذلك في مرحلة الذّروة وتسارع انتشاره بالمرية، وإلى زمن كتابة ابن خاتمة لكتابه كان قد دخل الوباء في مرحلة الانحصار، وذكر طريقة انتشاره في مدينة ألمرية؛ وأنّه انتشر أوّلا بمحلّة يسكنها الفقراء والمساكين والضّعفاء، ثمّ انتقلت العدوى إلى من يليهم من الأحياء في مسار دائري بأطراف البلد (أو ما يعرف بالضّواحي)، ثمّ انتشر وسط المدينة، فكان يأخذ كلّ يوم سبعين نسمة من سكان ألمرية وحدها، وهو رقم قليل بالقياس إلى باقي مدن أوروبا وشمال إفريقيا، فقد هلك بتونس ألف ومائتا نسمة في يوم واحد، وفي تلمسان أكثر من سبعمائة، وببلنسية نحو ألف وخمسمائة نسمة في يوم واحد، وبميورقة ألف ومائتان وخمسون

[1] - ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة (تحفة النّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، تحقيق: محمّد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1987م، 325/1، 326.

[2] - ابن حجر، بذل الماعون، مرجع سابق، ص380.

[3] - عبد القدوس الهاشمي، الطّواعين والأوبئة في التّاريخ الإسلاميّ، موقع الجزيرة الإخباريّ، https://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2020/3/31

[4] - ابن بطوطة، الرحلة، مرجع سابق، 179/4.

نسمة في يوم 25 من شهر ماي سنة 1348م[1]، وبمالقة ذُكر بأنّهم كانوا كلّ يوم يُعدّون مائة قبر بأكفانها، وقاموا بجمع الصّدقات والتّبرّعات لذلك الغرض سنة 750هـ بعد أن هلك الكثير من أهل مالقة بأمر القاضي محمّد بن أحمد الطّنجالي المالقي (ت753هـ)[2]. وأمّا عن مدن المشرق ومدن أوربا فيبدو أنّها قد كانت أكثر تضرّرا.

وقد ذكر ابن خاتمة اختلاف المتابعين لأمر هذا الطّاعون في مكان انطلاقه، وذكر عن بعض التّجّار النّصارى الوافدين على ألمرية أنّه ابتدأ من الصّين، ويعضّده ابن الوردي في المقامة؛ قال: ".. طاعون روّع وأمات، وابتدأ خبره من الظّلمات، يا له من زائر، من سنة خمس عشرة دائر، ما صين عنه الصّين، ولا منع منه حصن حصن، ..."[3]، ثمّ زحف غربا حتّى وصل إيران ثمّ تركيا، ومنها إلى أوربا وبلاد الشّام وشمال إفريقيا.

وهناك رأي آخر –بحسب ابن خاتمة- وهو أنّه ابتدأ من بلاد الحبشة (إثيوبيا)، ثمّ اتّصل بمصر وبلاد الشّام والمغرب ثمّ أوربا، وعلى كلا القولين فإنّ ريف الأندلس كان آخر محطّات تفشّي الطّاعون الأسود ثمّ مدن الأندلس، ولا شكّ أنّه قد انتشر في كلّ أنحاء العالم القديم، فقد كان جائحة أو طاعونا أسودا بحقّ كما قد وُصف[4]. نقلا عن مخطوط ابن خاتمة بالإسكوريال.

ثمّ شرع ابن خاتمة في وصف الموقع الجغرافي لمدينة ألمرية وأطعمة أهلها –الأسماك- وهوائها الرّطب؛ ممّا يسهّل تفشّي الوباء بحسبه. ومن أهمّ بؤر الطّاعون الأسواق فقد هلك كثير من أهلها، حتّى صار أهل المدن يخشون من دخول الغريب عليهم، ويحرصون على أن لا يدخل أحد إليهم طلبا للسّلامة، ومع ذلك فقد فشا في أغلب الأماكن وانتشر، ويظهر أنّ أغلب نقلة الوباء هم التّجّار وأهل الأسواق، كما نقلوا خبر هذا الطّاعون أيضا. وأفاد التّشريح أنّ المرض ينتهي في دم المريض إلى أن يتّصل بالقلب[5]، فيقذف المريض دما قبل أن يهلك. فيما هلك في هذا الطّاعون الحيوانات والأسماك أيضا، ولهذا يعتقد ابن خاتمة أن تناول الأسماك في ألمرية أحد أسباب تفشّيه، وينقل عن بعض التّجّار أنّ الأسماك في جهة تركيا قد طفت على السّطح ميّتا منفسخ الأجزاء.

وذكر لسان الدّين ابن الخطيب أنّ الوباء ظهر أوّلا بالصّين في حدود سنة أربع وثلاثين

[1] - لسان الدّين ابن الخطيب، مقنعة السّائل، مرجع سابق، ص43، 44.

[2] - النّباهي، أبو الحسن عليّ بن عبد الله الأندلسي، تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا)، لجنة إحياء التّراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1983م، 155-160.

[3] - ابن الوردي، الدّيوان، مرجع سابق، ص87-91.

[4] - لسان الدّين ابن الخطيب، مقنعة السّائل، مرجع سابق، 44، 45.

[5] - المرجع نفسه، ص49.

وسبعمائة على ذكره الرّحّالة والتّجّار كابن بطوطة وغيره، بسبب انتشار الجثث أجلت عنها حرب هناك، فتعفّنت بعد أن تقدّمها حريق نار عظيم على مساحة كبيرة، ففسد الهواء واجتمعت الأسباب، وفشا الوباء الغريب، فانتقل من بلد إلى بلد، يبدأ بالشّخص الضّعيف المناعة ثمّ تنتقل العدوى فيفسد هواء تلك البلد إلى أن يعمّ في جميعها، حتّى شمل أكثر العالم، ووصل الجزر المنقطعة وسط البحر حتّى هلك سبعة أعشار من البشر، "ولم يتقدّم فيما اتّصل بأولي الاطّلاع من تواريخ الأمم خبر وباء بلغ مبلغه .. واستئصاله أهل البيت والقرية على سبيل واحدة، يتعلّق بالنّاس تعلّق النّار بالحلفاء والهشيم بأدنى ملابسة من إلمام بمريض، أو بمباشرة ثوبه وآنيته ..."[1].

وبالتّالي فقد استمرّ هذا الوباء نحوا من خمسة عشر سنة. ويشار إلى أن رسالة ابن الوردي في الطاعون، والتي تنتمي إلى أدب المقامات، أيضا، تعدّ بحسب المحققين والمؤرخين، وثيقة عن مظاهر الطاعون وأشكال الإصابة به، في تلك المرحلة، كما أنها تعدّ تصويراً دقيقاً لما مرت به المنطقة، بعدما طُعنت بالطاعون، حيث أكد ابن الوردي، في رسالته، أن الطاعون ضربها خمسة عشر سنة متواصلة، وهي مدة الوباء، يمكن لها أن تفني شعوبا بأكملها، وهو تعبير استعمله الإخباريون العرب، عن طواعين الشام وما تركته بأهلها الذين كادوا يفنون، بسببه[2].

وفي فرنسا كان أوّل ظهوره بتولوز سنة 747هـ/1347م، والّتي فقد نصف سكانها، ومقاطعة نورماندي فقدت الثّلث، وفتك في أوربا بخمسة وعشرين مليونا، ولجأ إلى الكنائس واضطهاد اليهود باعتبارهم سبب البلاء وغضب الرّبّ، وانتقل الطّاعون إلى الأناضول، ثمّ إلى الشّام وبلاد المسلمين سنة 749هـ/1349م، ووصل إلى معظم جهات المعمورة[3].

وقال ابن حجلة التلمساني أنّه "لم يسلم منه في هذا العام من مدن الأرض كلّها غير مدينة النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم-"، وقال بأنّه هلك فيه نصف العالم الحيواني من بشر وطير ووحوش[4]. وقال ابن حجر أنّه: "ابتدأ من أوّل السّنة، فلم يزل يتكاثر إلى شهر رجب، فعظم

[1] - المرجع نفسه، ص76، 77.

[2] - عهد فاضل، شاعر عربيّ تحدّى الطّاعون بقصيدة فكانت آخر ما ألّفه، https://www.alarabiya.net/ar/culture-and-art/2020/02/08/

[3] - الحاج قاسم محمّد، محمود، البيئة والأوبئة في التّراث الطّبّي العربيّ الإسلامي، دار ماشكي للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الموصل، العراق، ط1، 1441هـ/2020م، ص97، 98.

[4] - ابن حجر، بذل الماعون، مرجع سابق، ص380.

في شعبان ثمّ في رمضان، ثمّ تناقص في شوّال، وارتفع في ذي القعدة"[1].

ابن كثير والطّاعون الأسود: وصف ابن كثير بعض يوميات هذا الطّاعون ومسار انتقاله فيما شهده؛ فيقول: " وتواترت الأخبار بوقوع البلاء في أطراف البلاد، فذكر عن بلاد القرم أمر هائل وموتان فيهم كثير، ثم ذكر أنه انتقل إلى بلاد الفرنج حتى قيل إن أهل قبرص مات أكثرهم أو يقارب ذلك، وكذلك وقع بغزة أمر عظيم، وقد جاءت مطالعة نائب غزة إلى نائب دمشق أنه مات من يوم عاشوراء إلى مثله من شهر صفر نحو من بضعة عشر ألفا"، ولجأ النّاس إلى الدّعاء والتّوسّل بالطّاعات والنّوافل وخاف أهل دمشق من دخوله إليهم، وتضرّعوا لأجل ذلك، ويبدو أنّه قد انتشر الوباء في دمشق في شهر ربيع الأوّل بعد نحو شهرين من بلوغه غزّة ونواحيها، ويبدو أنّ الطّاعون قد بلغ ذروته في شهر ربيع الثّاني وجمادى الأولى بدمشق، ويضيف ابن كثير: "وفي هذا الشهر أيضا كثر الموت في الناس بأمراض الطواعين وزاد الأموات كل يوم على المائة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وإذا وقع في أهل بيت لا يكاد يخرج منه حتى يموت أكثرهم، ولكنه بالنظر إلى كثرة أهل البلد قليل، وقد توفي في هذه الأيام من هذا الشهر خلق كثر وجم غفير، ولا سيما من النساء، فإن الموت فيهم أكثر من الرجال بكثير كثير، وشرع الخطيب في القنوت بسائر الصلوات والدعاء برفع الوباء من المغرب ليلة الجمعة سادس شهر ربيع الآخر من هذه السنة، وحصل للناس بذلك خضوع وخشوع وتضرع وإنابة، وكثرت الأموات في هذا الشهر جدا، وزادوا على المائتين في كل يوم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وتضاعف عدد الموتى منهم، وتعطلت مصالح الناس، وتأخرت الموتى عن إخراجهم، وزاد ضمان الموتى جدا فتضرر الناس ولا سيما الصعاليك، فإنه يؤخذ على الميت شئ كثير جدا، فرسم نائب السلطنة بإبطال ضمان النعوش والمغسلين والحمالين، ونودي بإبطال ذلك في يوم الاثنين سادس عشر ربيع الآخر، ووقف نعوش كثيرة في أرجاء البلد واتسع الناس بذلك، ولكن كثرت الموتى فالله المستعان. وفي يوم الاثنين ثالث والعشرين منه نودي في البلد أن يصوم الناس ثلاثة أيام وأن يخرجوا في اليوم الرابع وهو يوم الجمعة إلى عند مسجد القدم يتضرعون إلى الله ويسألونه في رفع الوباء عنهم، فصام أكثر الناس ونام الناس في الجامع وأحيوا الليل كما يفعلون في شهر رمضان، فلما أصبح الناس يوم الجمعة السابع والعشرين منه خرج الناس يوم الجمعة من كل فج عميق، واليهود والنصارى والسامرة، والشيوخ والعجائز والصبيان، والفقراء والأمراء والكبراء والقضاة

[1] - ابن حجر، بذل الماعون، مرجع سابق، ص385.

من بعد صلاة الصبح فما زالوا هنالك يدعون الله تعالى حتى تعالى النهار جدا، وكان يوما مشهودا. وفي يوم الخميس عاشر جمادى الأولى صلى الخطيب بعد صلاة الظهر على ستة عشر ميتا جملة واحدة، فهول الناس من ذلك وانذعروا، وكان الوباء يومئذ كثيرا ربما يقارب الثلاثمائة بالبلد وحواضره فإنا لله وإنا إليه راجعون .وصلى بعد صلاة على خمسة عشر ميتا بجامع دمشق، وصلى على إحدى عشر نفسا رحمهم الله. وفي يوم الاثنين الحادي والعشرين منه رسم نائب السلطنة بقتل الكلاب من البلد، وقد كانت كثيرة بأرجاء البلد وربما ضرت الناس وقطعت عليهم الطرقات في أثنا الليل أما تنجيسها الأماكن فكثير قد عم الابتلاء به وشق الاحتراز منه، وقد جمعت جزءا في الأحاديث الواردة في قتلهم، واختلاف الأئمة في نسخ ذلك، وقد كان عمر ﷺ يأمر في خطبته بذبح الحمام وقتل الكلاب ونص مالك في رواية ابن وهب على جواز قتل كلاب بلدة بعينها، إذا أذن الامام في ذلك للمصلحة. وفي يوم الاثنين الثامن والعشرين منه توفي زين الدين عبد الرحمن بن شيخنا الحافظ المزي، بدار الحديث النورية وهو شيخنا، ودفن بمقابر الصوفية على والده. وفي منتصف شهر جمادى الآخرة قوي الموت وتزايد وبالله المستعان، ومات خلائق من الخاصة والعامة ممن نعرفهم وغيرهم رحمهم الله وأدخلهم جنته، وبالله المستعان. وكان يصلي في أكثر الأيام في الجامع على أزيد من مائة ميت فإنا لله وإنا إليه راجعون، وبعض الموتى لا يؤتى بهم إلى الجامع، وأما حول البلد وأرجائها فلا يعلم عدد من يموت بها إلا الله عز وجل رحمهم الله آمين... وفي يوم الجمعة ثامن شهر رجب صلي بعد الجمعة بالجامع الأموي على غائب: على القاضي علاء الدين ابن قاضي شهبة، ثم صلي على إحدى وأربعين نفسا جملة واحدة، فلم يتسع داخل الجامع لصفهم بل خرجوا ببعض الموتى إلى ظاهر باب السر، وخرج الخطيب والنقيب فصلى عليهم كلهم هناك، وكان وقتا مشهودا، وعبرة عظيمة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وفي هذا اليوم توفي التاجر المسمى بأفريدون الذي بنى المدرسة التي بظاهر باب الجابية تجاه تربة بهادرآص، حائطها من حجارة ملونة، وجعلها دارا للقرآن العظيم ووقف عليها أوقافا جيدة، وكان مشهورا مشكورا رحمه الله وأكرم مثواه. وفي يوم السبت ثالث رجب صلي على الشيخ علي المغربي أحد أصحاب الشيخ تقي الدين بن تيمية بالجامع الأفرمي بسفح قاسيون، ودفن بالسفح رحمه الله، وكانت له عبادة وزهادة وتقشف وورع ولم يتول في هذه الدنيا وظيفة بالكلية، ولم يكن له مال بل كان يأتي بشئ من الفتوح يستنفقه قليلا قليلا، وكان يعاني التصوف، وترك زوجته وثلاثة أولاد رحمه الله... وفي يوم الاثنين ثاني عشره بعد أذان

الظهر حصل بدمشق وما حولها ريح شديدة أثارت غبارا شديدا اصفر الجو منه ثم اسود حتى أظلمت الدنيا، وبقي الناس في ذلك نحوا من ربع ساعة يستجيرون الله ويستغفرون ويبكون، مع ما هم فيه من شدة الموت الذريع، ورجا الناس أن هذا الحال يكون ختام ما هم فيه من الطاعون، فلم يزدد الامر إلا شدة، وبالله المستعان. وبلغ المصلى عليهم في الجامع الأموي إلى نحو المائة وخمسين، وأكثر من ذلك، خارجا عمن لا يؤتى بهم إليه من أرجاء البلد وممن يموت من أهل الذمة، وأما حواضر البلد وما حولها فأمر كثير، يقال إنه بلغ ألفا في كثير من الأيتام، فإنا لله وإنا إليه راجعون... واستهل شهر شعبان والفناء في الناس كثير جدا، وربما أنتنت البلد، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وتوفي الشيخ شمس الدين بن الصلاح مدرس القيمرية الكبيرة بالمطرزيين، يوم الخميس ثالث عشر شعبان وفي يوم الجمعة رابع عشر شعبان صلي بعد الصلاة على جماعة كثيرة، منهم القاضي عماد الدين بن الشيرازي، محتسب البلد، وكان من أكابر رؤوساء دمشق ...".

وفي سنة 750هـ: "وفي هذه السنة ولله الحمد تقاصر أمر الطاعون جدا ونزل ديوان المواريث إلى العشرين وما حولها بعد أن بلغ الخمسمائة في أثناء سنة تسع وأربعين، ثم تقدم ولكن لم يرتفع بالكلية، فإن في يوم الأربعاء رابع شهر المحرم توفي الفقيه شهاب الدين أحمد بن الثقة هو وابنه وأخوه في ساعة واحدة بهذا المرض، وصلي عليهم جميعا، ودفنوا في قبر واحد رحمهم الله تعالى".

وتلت الطّاعون فوضى وأعمال انتقاميّة من الانتهازيّين الّذين أضرّوا بالنّاس زمن الطّاعون؛ فقد قضي على عدد من الأمراء منهم نَائِبِ السَّلْطَنَةِ بدمشق الأمير سيف الدّين أَرْغُونَ شَاهْ وسيف الدين الجي بغا العادلي نائب طرابلس وفخر الدّين إياس نائب حلب. وَفِي أَوَائِلِ شَهْرِ جُمَادَى الْآخِرَةِ جَاءَ الْخَبَرُ بِمَوْتِ نَائِبِ حَلَبَ سيف الدين قطلبشاه فَفَرِحُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِمَوْتِهِ وَذَلِكَ لِسُوءِ أَعْمَالِهِ فِي مَدِينَةِ حَمَاةَ فِي زَمَنِ الطَّاعُونِ "وفي ليلة السبت بين العشاءين سادس عشره دخل الجيش الذين خرجوا في طلب ألجي بغا المظفري، وهو معهم أسير ذليل حقير، وكذلك الفخر إياس الحاجب مأسور معهم، فأودعا في القلعة مهانين من جسر باب النصر الذي تجاه دار السعادة، وذلك بحضور الأمير بدر الدين الخطير نائب الغيبة، ففرح الناس بذلك فرحا شديدا، ولله الحمد والمنة فلما كان يوم الاثنين الثامن عشر منه خرجا من القلعة إلى سوق الخيل فوسطا بحضرة الجيش، وعلقت جثتهما على الخشب ليراهما الناس، فمكثا أياما ثم أنزلا فدفنا بمقابر المسلمين"[1].

[1] - ابن كثير، البداية والنّهاية، مرجع سابق، 14/268-260.

- الخاتمة: عرفت البشريّة منذ القديم الكثير من الأوبئة والجوائح الّتي كادت أن تفنيها، وبلا شكّ كانت لها آثار مدمّرة على الدّول والمجتمعات، وغيّرت البُنى الديمغرافيّة، وقد فتح وباء الكورونا كوفيد 19 أو الحمّى التّاجيّة في هذة السّنة قرائح الباحثين وجعلوها موضوعا لأبحاثهم ودراساتهم، وفي صفحات التّاريخ الإسلامي ذكر واعتناء بها من قبل العلماء المسلمين تأريخا وتوصيفا ومحاولات واقتراحات لعلاجها والتّغلّب عليها، منذ زمن الصّحابة أيّام طاعون عمواس سنة 18هـ، إلى جائحة الكورونا كوفيد19 أيّامنا هذا، وأعتقد أنّ الطّاعون الأسود في القرن الثّامن الهجريّ يبقى من أعنفها وأشدّ فتكا وأوسعها انتشارا، وعمّ مشارق الأرض ومغاربها، واستمرّ بما يناهز خمسة عشر سنة، فتذكر بعض الدّراسات أنّه أفضى إلى هلاك نحو نصف أوربا، وقد شمل هذا الوباء العالم الإسلامي شرقا وغربا، ووصفت بعض كتب التّراجم في بعض المدن كالقاهرة أنّ الضّحايا تجاوزوا الآلاف يوميا في وقت ذروة الوباء، وقد امتلأت كتب التّراجم في وفيات سنة 749هـ بوفيات الكثير من الأعيان والعلماء والأدباء بما يستحيل حصره، وبالتّالي فآثاره في المسلمين مضاعفة بفقدهم للكثير من نخبهم السّياسيّة والعلميّة والأدبيّة.

ساهم العلماء المسلمون في التّأريخ لهذا الوباء بذكره في مصادر التّاريخ والتّراجم والطّبّ وحتّى الفقه، وقد خصّصت له الكثير من المؤلفات فضلا عن الّتي ذكرته، وقد ساهم علماء الأندلس بقسط كبير، أمثال: ابن خاتمة الأنصاريّ (ت770هـ)، و الأديب لسان الدّين ابن الخطيب (ت776هـ) ، والطّبيب الأندلسيّ أبي عبد الله الشّقوريّ (776هـ)، وشهاب الدّين أحمد ابن أبي حجلة التّلمسانيّ (ت776هـ)، ومن المشارقة مصنّف في الطّاعون لتاج الدّين السّبكي (ت771هـ)، وردّ عليها صلاح الدّين ابن أيبك الصّفدي (ت749هـ)، ويعدّ اين الوردي من أعظم أدباء القرن الثّامن الهجريّ ومن ضحايا الطّاعون قد ترك مقامة بديعة في وصفه ومسار انتشاره، وهلع النّاس منه، وترك أبياتا فيه من آخر ما نظم في حياته.

تكاد تتّفق المصادر على أنّ حياة هذا الطّاعون استمرّت خمسة عشر سنة، وأنّه شمل كافّة المعمورة، أمّا في العالم الإسلامي فاستمرّ سنة واحدة وهي سنة 749هـ وبداية 750هـ، كما تكاد تتّفق على أنّ بدايات هذا الوباء كانت في الصّين بسبب حرب هناك؛ أدّت إلى تعفّن الهواء والغذاء بسبب كثرة الجثث، ثمّ انتقل غربا وزحف على المعمورة عبر الهواء، على أنّ هذه المرحلة شهدت أيضا حروبا في أوربا وخاصّة فرنسا وبريطانيا، وهي الأكثر تضرّرا من الطّاعون الأسود، وبالتّالي قلّة الغذاء وما يصحبه من ضعف جهاز المناعة مع البرودة وهي البيئة المثلى لانتشار

الطّاعون، كما أنّ هذا الوباء يصيب الجهاز التّنفّسي حتّى يصل إلى الشّرايين، وينتهي بقروح ونزيف وهلاك المصاب.

ساهم العلماء المسلمون في إيجاد الحلول للأوبئة، وكانوا السّبّاقين إلى إجراءات العزل الصّحّي، وتعقيم الهواء بالرّياحين والعطور للقضاء على فساد الهواء، وهي الإجراءات الّتي لم يضف لها العلم الحديث شيئا في القرن الحادي والعشرين بخصوص تعامله مع جائحة الكورونا كوفيد19 أو الحمّى التّاجيّة.

لاحظنا وجود نقاط مشتركة كثيرة بين الطّاعون الأسود في القرن الثّامن الهجري والخامس عشر الميلادي وبين جائحة الكورونا في القرن الخامس عشر الهجريّ الحادي والعشرين الميلادي، سواء من حيث مصدره ومسار انتشاره، أو من حيث أسبابه ونتائجه، أو من حيث طريقة التّعامل معه ووسائل مكافحته.

-

ISSN:2707-8183

المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية

مجلة محكمة

تصدر عن الاتحاد الدولي للمؤرخين للتنمية والثقافة والعلوم الاجتماعية

العدد العاشر تشرين الاول اكتوبر 2020

يتضمن العدد ملفان

الملف الاول: ابحاث ودراسات عن الاوبئة في العصور الاسلامية

الملف الثاني: دراسات عن الامراض والاوبئة خلال القرن التاسع عشر

من اعمال المؤتمر الدولي للاتحاد الدولي للمؤرخين وبالتعاون مع اللجنة الوطنية العر اقية للتربية والثقافة والعلوم جامعة سيدي محمد بن عبدالله وجامعة سليمان الدولية الذي عقد تحت عنوان

الاوبئة والامراض في التاريخ .. تجارب ودروس

10-11 حزيران 2020

محتويات العدد العاشر

	الباحث	الموضوع	الصفحة
1	المحتويات	المحتويات	
2	اللجنة العلمية وهيئة التحرير	اللجنة العلمية وهيئة التحرير	1-2
3	السياسات وقواعد النشر	السياسات وقواعد النشر	3-8
4	أ.م. د. حسين إبراهيم محمد الجبراني	طاعون عامي (750-850هـ/1349-1446م) في الاندلس والمغرب و أثره على الحركة العلمية ((في ضوء المصادر التاريخية الاندلسية والمغربية))	9-26
5	الدكتورعبد القادر سليماني	الأوبئة في المشرق الإسلامي (من القرن 4هـ/10م الى القرن 6هـ/12م)دراسة تاريخية وإحصائية من خلال المصادر	27-54
6	د. زهرة الثابت	الطاعون وباء من خلال بعض المصادر الإسلامية	55-70
7	د. أحمد محمد محمد عوض الله مشالي	الطواعين و أثرها في سقوط دولة الموحدين وقيام دولة بني مرين.	71-80
8	د.عوض عبد الجليل أبوبكر محمد د.أحمد محمد أحمد مركز	تاريخ الطواعين في عصر دولة الخلافة الإسلامية الراشدة (طاعون عمواس نموذجاً 18هـ/639م)	81-110
9	الدكتورمحمد حقي/كلية الأداب	سلوكات ومو اقف أهل المغرب والأندلس من الأمراض والأوبئة في العصر الوسيط	111-130
10	الدّكتورحاج بنيرد	الطّاعون الأسود في القرن الثّامن والعلماء المسلمون:	131-146
11	أ.م.د. سحر السيد ابراهيم السيد جامعة القصيم	تعاطي الشعوب مع الأوبئة والطواعين العصور الوسطى (المسببات وطرق العلاج)	147-198
12	فتيحة غديري	عنوان المداخلة : تمثلات الأوبئة والأمراض في المخيال الإغريقي القديم من خلال الكتابات الأدبية القديمة .	199-222
13	أ.م.د الاء حماد أ.د حسين جبار شكر	آراء الاطباء والعلماء بوباء الطاعون من خلال كتاب ما يفعله الاطباء والداعون بدفع شر الطاعون للعلامة مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي(ت 1033هـ/ 1623م)	223-232
14	د. ربيع عوادي	رصد الرحالة المغاربة لأثر الأوبئة بالمشرق العربي خلال القرن التاسع عشر	233-256
15	د.عبد القادر العبوي	وباء الكوليرا زمن الحرب الجيش الفرنسي بين شراسة المقاومة اليزناسنية وخطر انتشار الوباء (1859م)	257-280

	أ.م.د. صبا حسين مولى	الاوبئة والامراض التي اجتاحت العالم في القرن التاسع عشر	281-290
	د. منير كلخة.جامعة محمد الأول، وجدة، المملكة المغربية	دور الأوبئة والأمراض في التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالمغرب خلال القرن 19م. مقاربة سوسيوتاريخية.	291-300
	د. سمية سالم الشعالي	أنتشار الأمراض و الأوبئة بولاية طرابلس الغرب 1835.1934م أبان العهد العثماني الثاني و العهد الإيطالي .	301-312
	د. سيدي محمد رامي	تأثير الأمراض والأوبئة على المشروع الاستعماري في الجزائر خلال القرن 19م	313-332
	سعيد إدحمان	" مساهمة الأوبئة وأزمة الأقوات في التفاوتات الطبقية بالمغرب الحديث"	333-346
	عبدالعزيز بودرة	الطاعون والطب الكولونيالي بالمغرب خلال القرنين 18م و19م"سياسات المخزن وتدابير المجلس الصحي"	347-360
	محمد المنتفع	ذاكرة الأوبئة بالمغرب وارتباطاتها المجالية خلال القرن 17م	361-376

هيئة التحرير واللجنة العلمية الاستشارية

رئيس التحرير

الاستاذ الدكتور ابراهيم سعيد البيضاني

نائب رئيس التحرير

الدكتور عثمان برهومي تاريخ تونس

مديرة التحرير

الدكتورة وفاء سمير نعيم اجتماع مصر

الهيئة العلمية الاستشارية

- الأستاذ الدكتور ناهدة حسين علي الاسدي تاريخ العراق
- الأستاذ الدكتورة جنان عبدالجليل همونديي تاريخ العراق
- الأستاذ الدكتور ميلاد مفتاح الحراثي علوم سياسية ليبيا
- الأستاذ الدكتور حاجي دوران اجتماع تركيا
- الأستاذ الدكتور حسين جبار شكر تاريخ العراق
- الأستاذ الدكتور محمد سالم الطراونة تاريخ جامعة السلطان قابوس
- الأستاذ الدكتور علي علام تاريخ المغرب
- الدكتور لحسن اوري تاريخ المغرب
- الدكتور حاتم الصديق محمد احمد تاريخ السودان

تعاطي الشعوب مع الأوبئة والطواعين العصور الوسطى (المسببات وطرق العلاج)

أ.م.د سحر السيد ابراهيم السيد
جامعة القصيم

المستخلص

يتناول هذا البحث نظرة الشعوب وتعاطيهم مع الأوبئة والطواعين من خلال المسببات وطرق العلاج ، مع توضيح الفرق بين الطاعون والوباء ، ثم رصد لأهم أسباب الأوبئة والطواعين حيث كان هناك نظرتان مختلفتان الأولى متعلقة بالأسباب الدينية، وهي نظرة العلماء والفقهاء والتي ترجع أسباب الأوبئة إلى كونها عقاب من الله للإنسان على ما اقترفه من ذنوب ، كذلك هي شهادة للمؤمن وعذاب للكافر ، والثانية النظرة الطبية والعلمية التي ترجع أسباب الأوبئة إلى عوامل طبيعية أولها هو فساد الهواء الناتج عن الزلازل والفيضانات والقحط والجفاف ، وما يعقبهما من تلوث للبيئة، وتأثير تغير مناخ الفصول في حدوث الأوبئة، وأسباب أخرى فلكية وفيها إشارة إلى تلوث الهواء بالأشعة الكونية الساقطة على الأرض من السماء من خلال سقوط الشهب أو اقتران بعض الأجرام والكواكب السماوية وعلاقتهم بالأرض ، تأثير نجم الثريا على حركة الحياة على الأرض، وأخيرا الأسباب الواقعة بيد الإنسان وتعززها البيئة والمناخ خاصة فترات الحروب والصراعات والتلوث البيئي في بعض المدن التي اتصفت بأنها مدن موبوءة مثل المدن المزدحمة بالسكان والمدن الساحلية، ثم طرق العلاج وهي الطرق الطبية المعتمدة على الدواء والغذاء ، والأدوية الفاعلة والمجربة في علاج الأوبئة ،الغذاء الفاعل في مقاومة الأوبئة والأمراض ، ثم طرق الوقاية من خلال تطهير البيئة وتفعيل التباعد الإجتماعي والعزل الطبي للمرضى ، وطرق العلاج أيضا المستخدمة في أوربا ، ثم الإشارة إلى آثار الأوبئة على المجتمعات في المشرق وفي أوربا التي كان للأوبئة تأثيرات جذرية عليها، وأعتبر الموت الأسود في أوربا نهاية لمرحلة العصور الوسطى بما حمله من تغير لنفوذ الكنيسة ، والنظام الإقطاعي وبداية التحرر للفلاحين والعمال وظهور الطبقة البرجوازية والنهضة الأوربية الحديثة .

الكلمات الإفتتاحية : الأوبئة – الطواعين – الموت- طرق العلاج – التلوث – البيئة

cities crowded with population and coastal cities, then medical treatment, which were also divided into medical methods based on medicine and food from proven medicines in treating epidemics diseases as well as cleansing the environment ,a social separation and isolation The medical treatment of patients, in Europe, then the effects of epidemics on societies in the East and Europe that had epidemics radical effects considered that the black death in Europe was the end of the Middle Ages stage with its features of the influence of the Church The feudal system, the beginning of the emergence of the emancipation of the peasants and the makers, the emergence of the bourgeois and the modern European

The begging woards: epidemics- plagues- death - The medical treatment- population- environment

Peoples' treatment with epidemics and plagues of the Middle Ages (Causes and The medical treatment)

Abstract

This object treat of the people's view to epidemics and plagues in the medieval ages through the causes and medical treatment, There were two different perspectives , related to religious causes, which think that the causes of the epidemics is a punishment from God for the human because his sins, and the second was the medical and scientific talk about natural factors,that was the corruption of the air resulting from earthquakes, floods and droughts, and the pollution of the environment, Then the effect of changing the climate of the seasons and the pollution by cosmic rays falling on the earth from the sky,then talks about the periods of wars and conflicts, as well as environmental pollution and some cities are described as epidemic cities such as

مقدمة

توقع العلماء منذ زمن إجتياح العالم جائحة وبائية ناتجة عن فيض من [1]، وقد شهد العالم خلال السنوات الماضية أنواع متعددة من فيروس كورونا المستجد، أو كورونا (أكليل) سمي بذلك : لأن مشاهدته تحت الميكروسكوب يعطي شكل مجسم يخرج منه نتوءات على شكل أكليل ، ومنه كورونا سارس الذي يصيب الجهاز التنفسي ويدمره ويصعب علاجه ، والذي ظهر في الثامن والعشرين من شهر فبراير عام 2003م، وكان مصدره هونج كونج [2]، ثم إنتشر في تايوان، والصين، وسنغافورا، وظل الأمر لمدة أربعة أشهر لمعرفة مسبب المرض، الذي إنتقل ليصيب الإنسان آتيًا من الحيوانات البرية الصغيرة التي يجري تناولها كطعام في مقاطعة جوانجدونج الصينية[3].

الفيروسات التي ستنتقل إلى الإنسان من الحيوان وقد يكون هذا الحيوان قرد من أفريقيا، أو جرذ من الصين، أو خفاش من ماليزيا، وسينتشر في العالم خلال ساعات عن طريق السفر والإنتقال بحلول يوليو عام ٢٠٠٣، تم وقف الانتشار العالمي للفيروس، الذي كان ينتشر في الأساس عبر المسافرين بالطائرات المصابين بالعدوى، وتوقف تفشي المرض الجديد، الذي أطُلِق عليه اسم « سارس » ، وهو اختصار لعبارة بالإنجليزية تعني المتلازمة التنفسية الحادة [4] ، عند رقم يقترب من ٨٠٠٠ حالة مرضية ، و ٨٠٠ حالة وفاة، كان من الممكن أن تكون الخسارة أكثر فداحة بمراحل لولا تكاتف الجهود الدولية للحد من انتشاره، وهناك الفيروس المنتشر في العالم الآن وهو فيروس كورونا كوفيد-19، هو مرض معد يسببه آخر فيروس تم إكتشافه من سلالة فيروسات كورونا، وهو نوع جديد من فيروسات كورونا لم ترصده الأبحاث العلمية قبل ظهوره ، وتفشيه في مدينة ووهان الصينية في ديسمبر 2019، وقد

[1] ديقيد كوامن ، الفيض أمراض الحيوانات المعدية ، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي ، عالم المعرفة ، المجاس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ، 2014 ، ح1 ، ص 11.

[2] - رودولف ساراتشي ، علم الأوبئة ، ترجمة أسامة فاروق ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة 2014 ،ص14

[3] - تقع جنوب الصين ، علي بحر الصين ، من المناطق المزدهرة صناعيا ومتاخمة لهونج كونج

[4] - سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر ،عودة الموت الأسود، ترجمة فايقة جرجس، مطبعة هنداوي، المملكة المتحدة ، 2017 ، ص 11

تحوّل كوفيد-19 الآن إلى جائحة تؤثر على العديد من بلدان العالم.

تتمثل الأعراض الأكثر شيوعاً لمرض كوفيد-19 في الحمى والسعال الجاف والتعب. وقد يعاني بعض المرضى من الآلام والأوجاع، و احتقان الأنف، وألم الحلق، والإسهال. وعادة ما تكون هذه الأعراض خفيفة وتبدأ تدريجياً. ويصاب بعض الناس بالعدوى ولكن لا تظهر عليهم سوى أعراض خفيفة جداً، ويتعافى معظم الناس (نحو 80%) من المرض دون الحاجة إلى علاج في المستشفى، وتشتد حدة المرض لدى شخص واحد تقريباً من كل 5 أشخاص يصابون بعدوى كوفيد-19 حيث يعانون من صعوبة في التنفس. وترتفع مخاطر الإصابة بمضاعفات وخيمة بين كبار السن، والأشخاص الذين يعانون من مشاكل طبية، مثل ارتفاع ضغط الدم أو أمراض القلب والرئتين، أو داء السكري، أو السرطان. ولكن أي شخص يمكن أن يُصاب بعدوى كوفيد-19 المصحوبة بأعراض شديدة. وحتى الأشخاص المصابين بأعراض كوفيد-19 الخفيفة جداً يمكن أن ينقلوا الفيروس إلى غيرهم. ويجب على جميع الأشخاص المصابين بالحمى والسعال وصعوبة التنفس الحصول على العناية الطبية، أياً كانت أعمارهم.[1]

وبالرغم من انتشار الأوبئة على مر التاريخ الإنساني فلم يخلو عصر من العصور من موجات متتالية من الأوبئة التي تصيب البشر ويتسع نطاقها ليشمل دولا وشعوبا عديدة ، إلا أنه غاب عن العالم قبل العصور الحديثة الأسباب الحقيقية وراء تلك الأوبئة، وطرق إنتشارها، وذلك بسبب إرتكانهم إلى التفسيرات الدينية، وعدم وجود علم يختص بدراسة الأمراض ومسبباتها، مما نتج عنه قصور في فهم الأمراض وأبعادها فيما يخص الزمان والمكان، بالرغم من وجود بعض المحاولات لكشف حقيقة المرض من قبل أطباء المسلمين كالرازي[2]، وابن سينا[3] ، وابن النفيس [4] ، والتميمي [5]، التي أرجعت انتشار الأوبئة إلى عوامل عدة أهمها هو فساد الهواء الذي يحمل

---

[1] - موقع منظمة الصحة العالمية ، https://www.who.int/ar/emergencies/diseases/novel-coronavirus-2019

[2] - ابي بكر محمد بم زكريا الرازي ت 213هـ

[3] - ابن سينا، الشيخ الرئيس علي بن الحسين(ت 428هـ)

[4] - ابن النفيس : علاء الدين أبو الحسن علي بن أبي الحزم القرشي الدمشقي (ت687) ،

[5] - التميمي ، ابو عبدالله محمد بن أحمد التميمي المقدسي (ت 370هـ)

مسببات المرض وهو ما اعتبر إشارة مبكرة للجراثيم والبكتيريا المسببه لكثير من الأمراض، فكان كتاب التميمي (مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من الوباء) سابق لعصره في الحديث عن تلوث البيئة، و محاربة الأمراض عن طريق الوقاية منها بإصلاح الهواء والبيئة، أما عن طرق علاج الأوبئة فنجد أنها لاتبعد كثير عن الطرق المستخدمه الآن أولها : تقوية الجهاز المناعي ببعض المأكولات والمشروبات وتجنب الأخرى ، كذلك عزل المرضى، وإجتناب التعامل معهم مثلما تحدث ابن سينا، وابن الخطيب[1] ، في جدوى العزل في منع انتشار المرض، ولكن يبدوا أن إرشادات الأطباء في تلك العصور، ونصائحهم لم تكن كافية لنشر الوعي بين الشعوب لمحاربة الأوبئة، والتقليل من حجم الخسائر التي خلفتها، فكان تعاطي الشعوب مع الأوبئة مخالفا لأراء الأطباء بل كان يعزز من انتشار الوباء ، هذا بالإضافة إلى الفراغ السياسي من قبل الدول في التعامل مع تلك الأزمات فيما يتعلق بتقديم العلاج للمرضى، أو فرض إجراءات صارمة للحد من انتشار الوباء، بل إن بعض أوامر الدولة للناس بكافة طوائفها من النساء والاطفال والرجال بالخروج إلى الصحراء والتجمع للتضرع إلى الله كان يزيد الأمر سوءا، وقد تعاطت الشعوب في مصر والشام والمغرب الإسلامي مع الأوبئة المتكررة بشكل أساسي ومجمع عليه أنها عقاب من الله للبشر على ما أقترفوه من ذنوب وآثام ، وهي دعوة لتخلي عن تلك المسببات بالإقلاع عنها والقضاء عليها ، ولذلك لا نجدها تتفاعل كثيرا مع الأسباب الطبية سواء في طرق العلاج أو في الوقاية من المرض ، وهو ما كان يزيد من حجم الكارثة ، ويأتي على عمران مدن وقرى بأكملها .

تعريف الوباء والطاعون والفرق بينهما .

وقد تم تعريف الأوبئة والطواعين التي إنتشرت في العصور الوسطى عن طريق أعراضها ومسبباتها فقد عرف االطاعون بأنه : بثور أو ورم مع إلتهاب شديد ، ويصير ما حوله أخضرا أو أحمرأ أو أسودا ، وكلها رديئة خطرة خاصة ما كان أسود منها[2]، ويكون حدوثه من مادة ردئية تتجمع في

[1] - ابن الخطيب: ابي عبد الله من بن عبد الله بن الخطيب التلمساني ت 776 هـ ،

(2) – ابن سينا ، القانون في الطب، وضع حواشيه محمد أمين، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1999 ، الطبعة الأولى ، ج3، 189 ، ص 165 ، ابن حجلة : أحمد بن يحي بن بكر (ت776هـ)، دفع النقمة في الصلاة على نبي الرحمة ، مكتبة الاسكوريال ، أسبانيا ، المخطوطات العربية ، رقم 510 ، ق 41 ، مجهول مخطوط ،الرسالة المشفية في الامراض السوداوية ، مخطرط بدار الكتب القومية ، طب تيمور رقم 1806 ، ق 11

العضو، ويتغير ما يليه، ويصل للقلب فيحدث إغماء وخفقان القلب وقئ[1]، وهو من الأمراض شديدة الخطورة خاصة إذا إنتشر، وكان الهواء رديئا وقد يكون مع حمى ويحدث ورم في المناطق الرخوة وتحت الأبطين [2]، وكان ذلك تعريف عام يشترك فيه الوباء والطاعون .

وقد عرف الرازي **الطاعون** [3] :" بأنه ورم حار يظهر في الأربيات والإبط ويقتل في أربعة أو خمس أيام ، وأقلهم شرا الأحمر إلا أنه يقتل، ولا يكاد ينجو من الأسود والأخضر أحدا كذلك في الحصبة والجدري وسائر البثور " [4]، والطاعون الأسود أكثرهم خطرا[5]، لذلك سمي الطاعون الذي انتشر في أوربا بالطاعون الأسود[6] .

وعرفه لسان الدين بن الخطيب بعد وباء عام 749/ 1348 م فيقول :" هو مرض حاد حار السبب ، سمي المادة ، يتصل بالروح بدءا بواسطة الهواء، ويسري في العروق فيفسد الدم، ويحيل الرطوبات إلى السمية، وتتبعه الحمى ونفث الدم، أو يظهر خراج من جنس الطواعين "[7]، وهنا يشير ابن الخطيب إلى نوعين من الأوبئة النوع الأول وهو الطاعون الدموي الذي تتبعه الحمى في الظهور ، والنوع الثاني وهو الدبلي [8] أو الورمي الذي يصحبه ظهور الأورام ، وكلاهما ناتج عن فساد الهواء الذي يؤدي إلى فساد الدم .

الوباء : هو مرض يصيب الناس في زمن واحد ، وبآفة واحدة ، ويكون مخالف لغيره

---

[1] - نجيب الدين محمد بن عمر السمر قندي (ت 619 هـ) الأسباب والعلل ، مخطوط بجامع وينبي اسطنبول ، ق 199

[2] - السرمري ، ابي المظفر جمال الدين بن محمد بن مسعود، ت 776 ، ذكر الوباء والطاعون ،علق عليه شوكت رفقي ، دار المحبة دمشق ،2004 ، ص25 ، الانصاري: زين الدين الحافظ زكريا بن محمد ت 926 هـ ، مخطوط تحفة الراغبين في بيان الطواعين ، دار الكتب القومية، حديث تيمور ، رقم 141 ، ورقة 4 ، ابن ابي حجلة ، المصدر السابق ، ق 41

[3] - ابي بكر محمد بم زكريا الرازي ت 213هـ ، الحاوي في الطب ، مراجعة وتصحيح محمد اسماعيل ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى 2000، المجلد السادس ص 2516

[4] السيوطي : عبد الرحمن بن كمال الدين أبي بكر بن محمد سابق الدين خضر الخضيري ت 911 ، رسالة ماروا الواعون في أخبار الطاعون ، مخطوطات تيمور رقم 165 ، ق 6 ، ابن ابي حجلة ، ق 41

[5] - ابن سينا، القانون ، ج3، ص 166

[6] - فاطمة الزهراء ، رسالة ماجستير ،وباء الطاعون (الموت الأسود) بأوربا الاتينية خلال القرن الرابع عشر الميلادي ، جامعة الجزائر ، 2015 ، ص46

[7] - ابن الخطيب: ابي عبد الله من بن عبد الله بن الخطيب التلمساني ت 776 هـ ، مقنعة السائل عن المرض الهائل ، تحقيق حياة قارة ، دار الأيمان الرباط ، الطبعة الأولى 2015، ص 65 ، احمد السعداوي ، الطاعون في المغرب الإسلامي في مواجهة الطاعون الأعظم والطواعين الذي تلته القرنين 8-9 ، مجلة أجراس العربية ، العدد 1، عام 1995 ، ص 14

[8] - وهو كل ورم في داخله موضع تنصب إليه المادة ، ابن ابن النفيس ، الموجز ، ص 281

من الأوقات ويكون ناتج عن فساد الهواء ، وبذلك يكون الوباء أعم من الطاعون فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعون [1]

وقد تم تصنيف ثلاث طواعين إنتشرت في العصور الوسطى ، وأطلق عليها جميعا مسمى الوباء أو الطاعون وهم : الدبلي[2] الغددي (speticaemic)، و الرئوي (bubonic)، والتعفني (pneumic) ، ويمكن التمييز بينهم بأعراضهم وطرق انتقال العدوى، وفترة حضانة كل منهما، وتأثيرها في خطف الأرواح[3]، هذا بالإضافة إلى نوع رابع ذكره بن حجر وابن المبرد وهو طاعون كان يشبه الجذام و يصيب الأطراف وتتآكل معه وكان مميت أيضا[4]

أولا : الرئوي(bubonic)[5] : وقد أطلق عليه المسلمون الحمى الوبائية [6]، وقد يأتي مصاحبا للطاعون الدبلي، وكان أكثر انتشارا في في أوربا [7]، وسمي بالوباء النزفي حيث كانت علامته نزيف الأنف ، ويحدث نتيجة لهبوط حاد في درجة حرارة الجسم فتنتقل العدوى للرئتين يصحبة سعال عنيف وتصلد الرئتين ويشعر معه المريض بعدم القدرة على التنفس، ومن ثم جفاف الحلق، واللسان، وتظهر الدمامل، والخراريج أعلى، وأسفل الزراعين ثم بثور سوداء متفرقه في أنحاء الجسد[8] ، ثم يحدث إزرقاق سريع للجسم ، ويبصق المصاب دما فيكون علامة على الموت المحقق لتمزق عروق الرئة ، وهو من أخطرأنواع الطواعين وأشدها فتكا ولا يكاد ينجو منه أحد[9]، وينتقل من شخص إلى أخر عبر الرزاز، ومن أعراضه إرتفاع درجة الحرارة، والإعياء الشديد، والرجفة،

---

[1] - الخطابي ، الأغذية ، ص 163

[2] - الأورام الدبلية هي أورام أكبر من الأورام الدملية في الحجم ، وعندما تنضج تصبح خراجا ، النجيب السمر قندي، المصدر السابق ، ق 199، سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر ، عودة الموت الأسود، ص 168

[3] - روبرت .س. جوتفريد ، الموت الأسود جائحة طبيعية وبشرية في عالم العصور الوسطى، ترجمة وتعليق ، أبو أدهم عبادة أبو كحيلة ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 2017 ، ص 33

[4] - ابن حجر ، بذل الماعون ، ص108، ابن المبرد ، فنون فنون المنون ، ص50

[5] - سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر ، عودة الموت الأسود ، ص 32

[6] - القرشي : محمد بن عبد الرحمن العثماني القرشي الدمشقي ت 800 هـ، مخطوط شفاء القلب المحزون في بيان مايتعلق بالطاعون ، مخطوط بمكتبة اسطنبول ، رقم 258 ، ق7 ، يوحنا ورتبات ، مقال في الطاعون ، مجلة المقتطف ، المجلد 23، اغسطس 1899، ص606

[7] - J.f.c..MD. the epidemics of the middle ages, translated by B.G.Babg otian,London 1859, p35 Hecker

[8] - Ibid, p31

[9] - يوحنا ورتبات ، المرجع السابق ، 608

وآلام العضلات ، والمفاصل، والغثيان، وآلام الحلق والبلعوم، والاضطرابات الذهنية، كما أنه يسبب ألمًا شديدًا في الصدر، وحمى، ويسبب أيضا بقعا حمراء على جلد الإنسان، ثم تتحول إلى بقع سوداء مرعبة، ويشعر المريض بالصداع والبرد في الأطراف، وسرعة ضربات القلب، وسرعان ما يحدث نزيف تحت الجلد، ثم يبدأ الجهاز العصبي في الانهيار فيدخل الإنسان في الغيبوبة، ثم تتوالى الأعراض سريعًا، حتى يفارق الشخص الحياة[1]، وكانت أغلب الطواعين يغيب فيها عقل الإنسان لكن أختلف عنها الوباء الذي انتشر في القاهرة عام 833هـ ، فكان المصاب يعقل الإصابة فيتحسر على نفسه ويوقن بهلاكه[2].

ثانيا : طاعون الغددي أو الطاعون الدبلي (The Bubonic plague):[3]

ويعني التورمي لكثر الأنتفاخات فيه وهو أقل الأنواع فتكا، ولكنه الأكثر شيوعا، وكان يطلق عليه في أوربا الطاعون الشرقي [4]، وحضانة المرض به ست أيام ويظهر في شكل أورام وبثور تظهر في الفخذ، وأسفل البطن وفي الصدر، وخلف الأذن وفي اليدين، والرجلين والعنق[5]، وأضرها ما يظهر تحت الإبطين وفي الجبين [6]، ويحدث بعدها نزيف تحت الجلد، ومن ثم تظهر الخراريح[7] التي تتأكل تتأكل معاها الخلايا، وتؤدي إلى اضطراب

(1) -، فاطمة الزهراء ، الوباء في أوربا ، ص 45

(1) - القرشي ، شفاء القلب المحزون ، ق7

(2) - ابن حجر : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي علي بن محمد بن محمد بن علي العسقلاني ت852هـ ، بذل الطاعون في فضل الطاعون، تحقيق احمد عصام عبد القادر، دار العاصمة الرياض ، ص 357 ، المقريزي : تقي الدين العباس أحمد بن على بن عبد القادر ت 845 ، السلوك لمعرفة دول الملوك ،تحقيق محمد عبد القادر، دار الكتب العلمية بيروت 1997 ، ج 7، 153، ابن المبرد ، فنون المنون ، ق 107

[3] - ، ابن سينا ، القانون ، ص 165، النجيب السمرقندي، الأسباب ، ق 198 ، مقدمة كتاب ابن حجر بذل الطاعون ، ص 22

[4] - سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر ، المرجع السابق ، ص211، Hecker , op,cit ,p33.

[5] ابن النفيس ، القانون ، ج 3، ص165

(6) ، ابن المبرد ،: جمال الدين يوسف بن حسن بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي المقدسي ت 909 هـ ، مخطوط فنون المنون في الوباء والطاعون نسخة إلكترونية بمكتبة الأستاذ الدكتور محمد بن تركي التركي وهي عن النسخة الأصلية بمكتبة أحمد الثالث بتركيا رقم 3591 ، ق 110

[7] - فهو الموضع الذي به ورم وتنصب إليه المادة ويكون حارقا ينغمس معه الإصبع ، ابن النفيس ، الموجز ، ص281

في الجهازالعصبي[1]، ووكان أقل الطواعين ضررا، وفي بعض الأحيان لا يصحبه حمى، وأشدهم خطرا ما صحبته الحمى، كما يكون أشدها خطرا ما تقع أورامه في الجهة اليسرى من الجسم[2]، وقد شملهما الوباء الذي انتشر في العالم عام 749/ 1348 .[3]

ثالثا: الطاعون الدموي أو التعفني[4] (The Septicamic plague) :

هذا النوع هو نادر الحدوث لكن أشدهم فتكا فالنجاة منه منعدمة وأكثرهم سمية ولا يعلم طريقة إنتقاله حيث يسبب تسمم الدم، ويحدث طفح جلدي عام، ويسبب أضرار بالغة بالقلب وباقي الأعضاء الحيوية حيث يتضخم فيه الطحال ، ويحدث ألم في الغدد دون تورم ،ويؤدي إلى نزيف في الأوعية الدموية[5]، فتظهر نفخات سوداء ،أو ضاربة في الحمرة، كأنها تفقيع ناري في الجسد مع التهاب وحرارة ثم تنفجر تلك النفخات، وتخلفها نقط سوداء، وكثيرا ما تتورم المواضع حولها ويموت المصاب خلال ساعات من الإصابة به [6]، كما أنه يشبه الدبلي حيث يحدث طفح جلدي خلال ساعات، وقد استمرت هذه الطواعين في حصد في الأرواح في موجات متتابعة من الطواعين خلال العصور الوسطى.[7]

ويتضح من التعريفات السابقة أن الطاعون الذي كان أكثر انتشارا في المشرق هو الطاعون الدبلي الذي تصاحبه ظهور الدمامل والخراريج والبثور، وأعراضه أعراض الحمى الوبائية أو المحرقة بجميع خواصها مثل نفس الدم وظهور الخراريج فيما خلف الأذن والأبطين أو الأربيتين[8]، كما كانت نسبة الشفاء منه هي وسط بين الأثنين حيث كانت نسبة الشفاء في الدموى منعدمة وفي الرئوي نادرة [9]، وقد يصاحب الطاعون الدبلي حمى وقد لا يصاحبه ، كما كان هناك أنواع للدمامل والخراريخ بعضها مدور والأخر طولي مثل الخيار[10]، وعادتا ما كانت تظهر في الأفخاذ ، بعضها في حجم الفولة أو الحمص أو العدس أو

---

(1) - روبرت ، الموت الأسود ، ص 36، فاطمة الزهراء ، الوباء في أوربا ، ص 45

(2) ابن المبرد ، فنون المنون ، ق 109

(3) - روبرت ، الموت الأسزد ، ص 35 ، فاطمة الزهراء ، الطاعون في أوربا ، ص 47

4 - ابن سينا ، القانون ، ص 79، يوحنا روتبات ، مقال الطاعون ، ص 608

(5) روبرت ، الموت الأسود ، ص 36 ، يوحنا روتبات ، المرجع السابق نفسه

6 - المقريزي ، السلوك ، ج7 ، ص205

(7) - فاطمة الزهراء ، الطاعون في أوربا ، ص 47

(8) - ابن الخطيب ، مقنعة السائل ، 66 ، ابن المبرد ، فنون المنون ، ق 15، Peter Stephanie true, the black death ,new York ,p 30

(9) ابن الخطيب ، مقنعة السائل ، 66 ، ابن المبرد ، فنون المنون ، ق 30

(10) - القرشي ، شفاء القلب ، ق35

أقل وكلما صغرت البثور كانت أكثر خطرا حيث أن الدمامل الكبير تنفجر في النهاية[1]، النهاية[1]، وفي أوربا كان حجم الدمامل مابين مابين التفاح والبيض، أو أقل بالإضافة إلى ظهور البثور صغيرة الحجم المتقيحة على باقي الجسد.[2]

بالرغم أن الكتابات التي خلفتها تلك العصورعن الأوبئة والطواعين لم تتيح لنا بصورة واضحة الفرق بينهما إلا أن هناك خط واضح فاصل بين الأثنين، يمكن استخدامه لتمييز بين الوباء والطاعون، وهو الربط بين حديثين للرسول (صل الله عليه وسلم) أولهما وهو حديث البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله صل الله عليه وسلم "لا يدخل المدينة المسيح ولا الطاعون" [رواه البخاري] [3]، والثاني وهو تعريف الطاعون فقال (صل الله عليه وسلم) : "الطاعون شهادة لأمتي، ووخز أعدائكم من الجن[4]، غدة كغدة الإبل تخرج في الآباط والمراق، من مات فيه مات شهيدًا، ومن أقام فيه كان كالمرابط في سبيل الله، ومن فرَّ منه كان كالفار من الزحف"[5]، وفي حديث آخر قال : (صل الله الله عليه وسلم) "ستهاجرون إلى أرض الشام فتفتح عليكم، ويكون فيكم داء كالدمل، أو كالجمرة يأخذ بمراق الرجل يستشهد الله فيه أنفسكم ويزكي به أعمالكم"[6]، وقال : (صل الله عليه وسلم) " أتاني جبريلُ علَيهِ السَّلامُ بالحُمَّى والطَّاعونِ ، فأمسَكْتُ الحُمَّى بالمدينةِ ، وأرسلتُ الطَّاعونَ إلى الشَّامِ ، فالطَّاعونُ شَهادةٌ لأمَّتي ورحمةٌ لَهُم ورِجسٌ علَى الكافرينَ "[7]، وكان أول طاعون بالإسلام طاعون عمواس[8] عام 17 هـ ، وقيل عام 18 18 هـ ، وكان عبارة عن قروح تظهر على

---

(1) - ابن المبرد ، فنون المنون ، ق 110

(2) – سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر، عودة الموت الموت الأسود، ص25 Hecker ,op,cit ,p33

(3) - ابو عبد الله بن اسماعيل البخاري (256 هـ) كتاب كتاب صحيح البخاري ، دار بن كثير ،دمشق 2002 ، كتاب الطب، (رقم: (5731)، ص1452

(4) - لذلك كانت تطلق عليه العرب رماح الجن ، ابن المبرد ، فنون المنون ، ق 15

(5) ابن حجر ، بذل الماعون، ص 96

(6) - القرشي ، شفاء القلب المحزون ، ق 7

(7) - الطبري ، ابي جعفر بن جرير الطبري (224 هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف مصر، ج 4 ، ص 60-64

(8) - وهو موضع في الشام يسمى مواس واضيف له عام عام بعد ذلك وادغم فأصبح عمواس ، ابن حجر ، بذل الماعون ، ص 213 ، الانصاري ، تحفة الراغبين ، ورقة 6 ، السيوطي ، رسالة في الطاعون ، ورقة14 ، البسطاوي، زين الدين عبد الرحمن بن علي أحمد الحنفي (858 هـ) ، مخطوط وصف الدواء في كشف آفات الوباء، مخطوط دار الأسكوريال ، المخطوطات العربية ، رقم 1253 ، 350، ورقة 6

الجسم [1]، ووقع في عهد سيدنا عمر بن الخطاب[2]. وقد نبأ به الرسول (صل الله عليه وسلم) أنه سيقع في المسلمين بعد فتح القدس[3]، ويقال طاعون شيرويه في العام 6 هـ زمن الرسول عليه الصلاة والسلام وكان في المدائن [4]، وعلى ذلك يكون يكون المقصود بالطاعون هو الطاعون الدبلي الذي كان أوسع انتشارا [5]، وأطلقت عليه أوربا الطاوع الشرقي ، والذي اثبت العلم الحديث أنه ينتقل من القوارض ، والبراغيث للإنسان وكانت فرصة النجاة منه أكبر من النوعين الآخرين، والذي ثبت أنه لم يدخل المدينة قط [6]، أما باقي أنواع الأوبئة ومنها الطاعون الرئوي، والدموي أو التعفني ، وهي أقل انتشارا لكن أكثر خطرا على حياة الإنسان بحيث بالكاد ينجو منهما أحد خاصة الدموي ، كما أن الأوبئة تشمل الجدري، والحصبة ، والجذام ، والكوليرا ، وغيرهم هي التي يمكن أن يطلق ق عليها الأوبئة التي تعم العالم ومنها مكة والمدينة ، وهذا ما أشار إليه السيوطي في حديثه عن الفرق بين الوباء والطاعون بأن الوباء مرض عام، وأن الطاعون أخص من الوباء فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعون[7] ، وأن المدينة لا يدخلها الطاعون ولكن دخلها الوباء في زمن سيدنا عمر بن الخطاب ، وكذلك عند هجرة المسلمين إليها كان فيها الوباء،[8]، والوباء هنا كان مرض الحمى الذي كان يموت فيه الناس موتا زريعا[9]. وقد أطلق المسلمون عليه اسم الموتان وذلك نسبة لحديث الرسول (صل الله عليه وسلم) الذي ذكر الطعن والطاعون، والبعض الآخر نسبة إلى الطاعون الدبلي، والموت السريع حيث كان البعض يخر صريعا دون أن تظهر عليه أي من أعراض تلك الطواعين الثلاث.

ولكن تم الخلط بينهما في العصور الوسطى والإسلامية حيث تم إطلاق مصطلح الطاعون، أو الوباء على كل الامراض التي تفتك بالناس جملة في وقت، وزمن واحد وبأعداد كبيرة، ولكن بعد حدوث الوباء الأعظم عام 748 هـ /1349 م

(1) - ابن المبرد ، فنون المنون في كشف الوباء والطاعون ، ق8

(2) الأنصاري ، تحفة الراغبين ، ق 9، السيوطي ، مارواه الواعون ، ق 11، البسطاوي ، المصدر السابق ، ق7

(3) - ابن المبرد ، فنون المنون ، ورقة 13

(4) ابن حجر ، بذل الطاعون ، ص 351

(5) ابن ابي حجلة ، مخطوط دفع النقمة في الصلاة على على نبي الرحمة ، ق42

(6) ابن مبرد ، فنون المنون ، ق 110

(7) -ابن اي حجلة، دفع النقمة ، ق42

(8) - ابن حجر، بذل الماعون ، ص 104 ، السيوطي ، مارواه الواعون ، ق 8 ، الانصاري ، تحفة الراغين ، ورقة5

(9) - ابن المبرد ، فنون المنون ، ق 10

، بدأ التفريق بينهما خاصة لدى بن حجر [1]، وابن ابي حجلة [2]، وكذلك التفريق بين أسباب كل منهم ، حيث ذكر سبب واحد لوقوع الطاعون وهو وخز الجن ، وفي طريقة الوخز حاول الكثير من الفقهاء تفسيرها وتوضيح إماكنية وقوعها وأوجه الشبه والعلاقة بين الوخز في الطعن والطاعون [3]، أما عن باقي الأوبئة فقد جعلوا لها سبب واحد وهو فساد الهواء والبيئة .

الطواعين والأوبئة تجتاح العالم

أشتهر في أوربا والعالم في العصور الوسطى جائحتان وبائيتان كانتا نذيرا بعصور متتالية من الطواعيين ، الأولي عام 541 في عهد جستنيان (527-565[4])، وسمي بطاعون جستنيان ، وقد عم أوربا، وبلاد الشام، ومصر، ووسط أسيا، وجنوبها في حين نجى شرقها منه ، ثم أعقبها موجات مترددة من الأوبئة في أعوام 580م /588م / 590م ، وأعوام أخرى في القرن السابع الميلادي ، وكان في أصله من الطاعون الدبلي [5]، أما الجائحة الثانية فكانت في عام 749 هـ / 1348 م ، وظلت ثلاث سنوات تحصد في سكان العالم فكانت أشد من سابقتها، حيث أتت على ثلث سكان العالم أو يزيد [6]، فكان الوباء يظهر في مكان ويختفي بعد أربعة أشهر ليظهر في مكان آخر، وهو ماعرفت بالموت الأسود، أو الوباء الأسود في أوربا، وفي المشرق بالفناء الكبير، والوباء الكبير، وقد أعقبها موجات متتالية من الطواعين حتى عام 1700م [7]، ففي أروبا ظهر في أعوام 1360 م/ 1382 م / 1373 م [8] ، في حين قل قل تدريجيا في أوربا الغربية خاصة في المناطق الريفية عنها في المناطق الحضرية [9]، وهذا يفسر بأحد أهم عوامل القضاء على الوباء وهو الحد من انتشاره من خلال التباعد والعزل الإجتماعي الذي يتوفر في الريف عنه في المدن.، وقد قضى هذا الوباء

---

[1] - ابن حجر، بذل الماعون ، ص 102

[2] - ابن ابي حجلة ، دفع النقمة ، ق 41 ، السعدي ، المغرب الإسلامي ، ص 12

[3] - ابن المبرد ، فنون المنون ، ص 30

[4] - محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ الأمبراطورية البيزنطية ، دار المعرفة الجامعية 2002 ، ص 51

[5] - روبرت ، الموت الأسود ، ص 37

[6] - المرجع السابق نفسه

[7] سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر ، المرجع السابق ، ص 174، Elliott Lanne, the medieval medicine and plague,(,crabtree publishing),p8

[8] Hecker ,epidemic, p 33

[9] – روبرت ، المرجع السابق، ص 67 ، سكوت ، سوزان ، الملاجع السابق ، ص 207

على 24 مليون انسان في أوربا [1]، كما أتى على ثلث سكان المشرق الإسلامي أو يزيد ، وقد ضرب هذا الوباء العالم ثمان مرات في الفترة مابين 1427/1347، وقد كان أغلب الموتى من الأطفال والنساء العبيد والضعفاء، وظل يضرب المشرق الاسلامي حتى عام 1840م .

وقد أختلفت أعراضه في أوربا عنها في الشام ومصر ففي أوربا إنتشر الطاعون النزفي أو الرئوي حيث إلتهاب الحلق وإرتفاع درجة الحرارة وصلد الرئتين[2] ، أما في المشرق فقد كان الطاعون الدبلي حيث ظهور أورام في الأباط أو في العنق وخلف الأذن أو في الأربيتين إلى جانب الطاعون الرئوي وظلت توابعه في سنوات متتالية خلال القرون التالية حتى القرن التاسع عشر الميلادي [3]، وقد كانت حركة النقل والتجارة وقوافل الحج والعمرة من العوامل الهامة في نقل الأوبئة وانتشارها ، علاوة على عوامل اخرى بيئية وإجتماعية سنذكرها لاحقا .

وقد أسرف المؤرخون في الحديث عنه نتيجة شيوعه وآثاره على العالم ، حيث أنه إنتشر في الصحراي، وبين الجبال ، وكان من الأوبئة النادر التي وصلت لتلك المناطق وقد أجمع عدد من المؤرخين أن بدايته كانت ببلاد الخطا بالصين عام 734 هـ / 1334 م [4]، ثم وصل سمرقند، وإيران، وآسيا الصغرى، ومنها إلي القسطنطينية وسواحل إيطاليا، ثم إلى جنوب فرنسا، ومنها إلى الأندلس ، وجزيرة أيبيريا ، ثم جزر البحر المتوسط ومنها إلى شمال افريقيا[5]، وهناك رأي أخر يقول أنه إنتشرمن الصين إلى الهند والسند، وبلاد أزبك، وبلاد ماوراء النهر ، وافغانستان وخراسان وشبه جزيرة القرم ، وبلاد الروم وقبرص وجزر البحر المتوسط إلى شمال أفريقيا، وبلاد الشام .[6]

وثالث يذكر أن مبدأ انتشار هذا الوباء كان بلاد الحبشة، وإنتقل منها الي الديار

---

(1) - شلدون واتس ، الاوبئة والتاريخ ، ترجمة أحمد عبد الجواد ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، الطبعة الأولى 2010 ، ص 65

(2) - جيوفاني بوكاشيو ، الديكامرون ، ترجمة صالح علماني ، المدى العراق ، الطبعة الأولى 2009 ، ص 40، روبرت ، الموت الأسود ، ص 41

(3) - علي عبد الله السبعاوي ، الأوبئة والكوارث الطبيعية وأثرها في العصر المملوكي ، جامعة آل البيت ، كلية الآداب والعلوم والإنسانية ، 2015 ،ص 125، فاطمة الزهراء ، الوباء في اوربا، ص47 Hecker ,epidemic,p34

(4) - أحمد السعداوي ، المغرب الإسلامي ، ص 4 ، ابن الخطيب ، مقنعة السائل ، ص 44

(5) – ابن الخطيب ، مقنعة السائل ، ص 44 ، فاطمة الزهراء ، المرجع السابق ، ص47

(6) - رائد عبد الرحيم ، رسالة النبا عن الوباء لزين الدين بن الوردي ت 749 دراسة نقدية ، مجلة جامعة النجاح للابحاث ، مجلد 25 (4) 2010 ، ص 7

المصرية، ثم إلى الشام، ومن الشام إلى باقي أنحاء العالم ذكره ابن خاتمة[1]، وقد إنفرد به عن باقي الذين تكلموا عن بداية هذا الوباء[2].

وفي كيفية وصوله إلى أوربا أنه في صيف عام 1347 إعتلت الفئران، المصابة بالطاعون الدبلي متن السفت التجارية الجنوية، في البحر الاسود في ميناء كافا[3] ثم مرت السفن خلال الدردنيل ورست في صقلية ثم بدأ وباء الطاعون في الانتشار منها إلى أنحاء أوربا ، وقد تلته عدد من الطواعين والأوبئة في سنوات متعاقبة إلا انها كانت أقل فتكا منه وأقل انتشارا ويحدد الحسن الوزان[4] أن تلك الطاواعين كان لها دورة تتكرر كل عشرة أعوام، أو خمسة عشر عاما ، أو خمس وعشرين عاما.

ويبدوا أن تلك الدورة كانت تمثل فترة الحصانة ضد المرض، حيث كان المصابون بالمرض يحصلون على مناعة ضده يستمر فعلها خلال تلك السنوات وأن تكراره وعودته يكون إنعكاس للوباء في القوارض خاصة الجرذان السوداء والحشرات، المسؤولة عن انتشار الأوبئة خاصة الطاعون الدبلي، حيث تصبح بؤرة ، ومستودع للوباء تحتفظ به لفترة طويلة من الزمان[5]، وتكون سببا في حدوث موجات موجات متتالية من الطواعين فحتى بعد هلاكها فإن الجيل التالي لها في جحورها، وأماكن معيشتها يصبح ناقلا للوباء فيعادو الظهور مرة أخرى بعد فترة من الزمن[6]، في المنطقة الوبيئة أو المناطق المجاورة [7]، كما كان يحدث في أمراض وبائية أخرى مثل الجدري والحصبة التي يأخد الناجون منها مناعة وحصانة ضد المرض [8]، فقد أشار البعض ومنهم ابن سينا أن ظهور الحشرات، والقوارض بصورة واضحة على

---

[1] - ابي جعفر أحمد ابن الحسن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري (ت770 هـ) ، مخطوطة تحصيل غرض القاصد في المرض الوافد ، ذكرت محققة كتاب ابن الخطيب ، مقنعة السائل بعض من مشاهدات ابن خاتمة في هذا المخطوط .من ص 43- 50

(2) - نقلا عن كلام ابن خاتمة ، في الكتاب المحقق لابن الخطيب ، مقنعة السائل ، ص44

[3] - في عام ١٢٦٦ ، شيَّد أهل جنوة مدينة كافا (يُطلق عليها الآن فيودوسيا) في القرم وأصبحت الميناءَ الرئيسي لسُفنهم التِّجارية العظيمة، سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر ، عودة الموت الأسود ، ص 238

(4) - ليون الأفريقي ، الحسن بن محمد الوزان الفاسي ، وصف أفريقيا ، ترجمة محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ،بيروت ، الطبعة الثانية ، 1953 ، ص152

(5) روبرت ، الموت الأسود ، ص 37

(6) - المرجع السابق ، ص 35

(7) - ابن الخطيب ، مقنعة السائل ، ص 73 ، السعداوي المغرب ٱلاسلامي ، ص 4 ، روبرت ، الموت الأسود ، ص 31

(8) - روبرت ، الموت الأسود ، ص33

سطح الأرض، بحيث تصبح مزعجة وكأنها ثملة يكون ذلك علامة على قدوم الطاعون [1]، وقد رصد ذلك في وباء وقع في الهند في العصر الحديث عام 1871 م ، حيث كانت تخرج الجرذان دون خوف أمام الناس وهي ترتعش حتى تموت ويكون ذلك بداية لمرض أهل البيت[2] ،و في بعض الأحيان كان يقع الوباء في الحيوانات فقط مثل الخيول ، أوالإبل ، أو الدجاج فقط دون الإنسان [3]، وفي أحيان أخرى تعم الإنسان و الحيوان.[4] الحيوان.[4]

العوامل المسببة للأوبئة والطواعين

أولا : العوامل الطبيعية

يتضح من كتابات من تحدثوا عن الأوبئة والطواعين خاصة في العالم الإسلامي أنهم قد فطنوا مبكرا إلى انتشار الجراثيم في الهواء هو السبب الأول في انتشار الأوبئة، وهو ما عبروا عنه ب (فساد الهواء)، ولم يقصروا عامل فساد الهواء كتفسير خاص بالطاعون، ولكن أطلقوه كسبب عام في وقوع جميع الأمراض التي تأخذ شكل الوباء من حيث انتشاره وكثرة عدد الموتى بداء واحد مثل الجدري والحصبة والجذام، وغيرها من الأمراض التي تأخذ شكل الوباء، وقد وجدت أسباب كثيرة لفساد الهواء منها ما هو متعلق بالعوامل الطبيعية التي تكون وراء تلوث البيئة ، ومن ثم فساد الهواء، وأرجعوا ذلك إلى إقتران ظهورها بالأوبئة والطواعين بوقوع تلك الظواهر، الزلازل ، فقد اقترن الزلزال الذي وقع في الإمبراطورية البيزنطية والمناطق المجاوره [5]، بوقوع الوباء الاسود، وتفسير ذلك هو خروج أبخرة من باطن الأرض تفسد الهواء [6]، كذلك وقع زلزال في يناير من عام 1348م، وضرب اليونان وإيطاليا، وخرب كثير من القرى والمدن[7]، والظاهرة الثانية هي الفيضانات التي تخلف مواد عضوية تتحلل فترتفع أبخرتها لتفسد الهواء [8]، وتأتي على المحاصيل

---

(1) -ابن سينا، الشيخ الرئيس علي بن الحسين(ت 428هـ) ، القانون في الطب، وضع حواشيه محمد أمين، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1999 ، الطبعة الأولى ، ج3، 89 ، ابن النفيس ، الموجز، ص286، روبرت ، الموت الاسود ، ص 74 ، علي السيد علي، الوباء الأسود مقارنة بين الشرق والغرب، مجلة الدراسات التاريخية ، 1985 ، ص190

[2] - يوحنا ورتبات ، المصر السابق، 609

(3) - فتحي سالم، المرجع السابق ، ص6

[4] - جيوفاني ، الديكاميرون ، ص45

(5) - يوحنا الآسيوي ، تاريخ الكنيسة ، ترجمة صلاح محجوب ،المشروع القومي للترجمة ، الكتاب الثالث ، ص 88

(6) - إلياس بن ابراهيم الاندلسي ، مجنة الطاعون والوباء ، مكتبة شستربيتي مخطوط 3676 ، ق 5

[7] Hecker , op ,cit ,p 43

-

(8) - ابن المبرد ، فنون المنون ، ص50 ، ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص178

الزراعية، وتتسبب في فساد الحبوب بمخازن الغلال [1]، و تكون سبب في هلاك الشعوب بالمجاعات[2]، وقد وقع في الصين فيضانات نتيجة لأمطار فيضية في عام 1343م، هلك فيها الإنسان والحيوان حتى خلت الصين من أهلها [3]، وكان ذلك مقدمة مقدمة لظهور الوباء الاسود لما أعقبه من تحلل وجيف للجثث، وانتشار نتنها ومن ثم تلوث البيئة، ومصادر المياه من أنهار وآبار، وعلى عكس الفيضانات تحدث موجات من الجفاف، والقحط تسبق الطاعون أو تزامنه أو تتلوه [4]، يكون لها نفس تأثير الفيضانات حيث تعز فيها الأقوات والسلع الغذائية، وتقع فيها المجاعات، وما ينتج عنها أيضا من انتشار الموت في الإنسان والحيوان ، وما يشمله من تعفن للجثث وفساد الهواء وتلوث البيئة والمياه .

ومن العوامل الطبيعية الأخرى التي أشار لها الأطباء إرتباط تغير مناخ الفصول بظهور بعض الأمراض [5]، وهو ما أثبته العلم الحديث، ففي الصيف تنتشر الملاريا والكوليرا والدوسنتاريا نتيجة إرتفاع درجة الحرارة ، ويتكاثر البعوض الناقل لهذه الامراض كذلك في الشتاء ينشط فيروس الانفلوانزا [6]، وقد كانت أغلب الطواعين تقع في الربيع وترتفع بدخول الصيف خالفها طاعون عام 833 هـ، حيث وقع في القاهرة في الشتاء وإرتفع في الربيع، كذلك في أوربا كانت أغلب الطواعين تقع في نهاية الصيف وبداية الخريف، حيث لوحظ أن الطواعين تنتشر عندما تصل نسبة الرطوبة في الهواء إلى 70 %[7]

كما إن إختلال المناخ وخروجه عن طبعه الذي خلق له كان سببا في ظهور الأوبئة، ومن أمثلته أن الله جعل الربيع معتدل

---

(1) - - البدليسي : إدريس بن حسام الدين علي (930 هـ) ، مخطوط الإباء عن مواقع الوباء ، مكتبة الأسكوريال ، المخطوطات العربية رقم 2758 ، ق16

(2) ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت 808 هـ) ، كتاب العبر في ديوان المبتدأ والخبر ، تحقيق خليل شحادة ، دار الفكر ، بيروت ،2001 ، ، ج 2 ، ص 11

(3) - المقريزي ، ج4 ، ص82 وقد اجتمع على فرعون وقومه في زمن نبينا موسى الطوافان والطاعون Hecker , op,cit ,p 43.

(4) - أبن المبرد ، فنون المنون ، ق 110

5 ابن سينا ، القانون ، ج3 ، ص 89

(6) - شلدون واتس ، الاوبئة والتاريخ ، ص 15 ، منال أحمد ابراهيم ، المجاعات في مصر والشام في العصر المملوكي، جامعة اليرموك ، 1998 ، ص123 ، الحسين بولقضيب ، جوانح وأوبئة المغرب عصر الموحدين،منشورات الزمن ، 2001 ، ص 35 ، روبرت، الموت الأسود ، ص 29

(7) - روبرت ، الطاعون الأسود ، ص37 ، تزامن مع الطاعون في أوربا استمرار هطول الأمطار وإرتفاع الرطوبة ، سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر ، عودة الموت الأسود ، ص42

والصيف حارا يابسا والخريف معتدلا والشتاء باردا فأي تغيير في مناخ أحد الفصول يحدث تأثير على المخلوقات فلكل فصل من هذه الفصول من الخواص النافعة فحر الشمس هام لنضج الثمار والرياح لواقح الاشجار، والأمطار ضرورية لنمو النبات، فكل شيئ خلقه الله له خواص نافعة في وقته إذا وقع في غير وقته أصبح ضار للإنسان وللبيئة [1]، فكان يتزامن مع الاوبئة فساد المناخ كأن يأتي الربيع حارا يابسا رياحه كلها جنوبية، ليس معتدلا كعادته فكان إرتفاع درجة الحرارة تسارع في انتشار الوباء، وزيادة الوفيات[2]، فقد مات أغلب السكان في دمشق في وباء عام 749 هـ / 1348 م بعد هبوب رياح سوداء أظلمت معها السماء، ثم إنقلعت مخلفة وراءها أكثر الناس مرضى بالوباء [3]، [3]، كذلك تكون فترات أنتقال الفصول وتغير درجات الحرارة وزيادة نسبة الرطوبة من عوامل انتشار الأمراض[4]، فتوصلت ملاحظات علماء المسلمين إلى أن كل شئ له خواصه النافعة، فإذا تغير حال تلك اللأشياء وقعت الأمراض فهناك الضار كالسموم والحشائش السامة، وقد تقتل هذا الحشائش السامة حيوانات ويعيش عليها حيوانات اخرى.[5]

وقد إرتكزت نظرية التميمي في كتابه (مادة البقاء في دفع فساد الهواء والتحرز من الوباء)على إصلاح البيئة وتوفير سبل الوقاية من الأمراض لتصبح البيئة النظيفة، والخالية من عوامل التلوث والفساد هي حائط صد أمام انتشار الأمراض و الأوبئة ، فكان من أوائل من تحدثوا عن تلوث البيئة وأثرها في فساد الهواء الذي وضع له أيضا عدة أسباب منها تقلبات فصول السنة بصفة عامة، وما

---

(1) - القرشي ، شفاء القلب المحزون ، ق 7 ، ابن المبرد ن فنون المنون ، ق 25، السرمري ، ذكر الوباء والطاعون ، ص ، 26

(2) – ابن النفيس ، المصدر السابق ، ص 286، فتحي سالم ، الوباء واثر على مدينة القاهرة ، مجلة كلية التربية ، الموصل ، المجلد 12، العدد 4، سنة 20013 ، ص 6

(3) المقريزي ، تقي الدين العباس أحمد بن على بن عبد عبد القادر ت 845 ، السلوك لمعرفة دول الملوك ،تحقيق محمد عبد القادر، دار الكتب العلمية بيروت 1997، ، ج 4 ، ص 85 ، ابن المبرد ، فنون المنون ، ص 105

4 - التميمي ، ابو عبدالله محمد بن أحمد التميمي المقدسي المقدسي (ت 370هـ) ، مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء ، تحقيق يحي شعار، المنظمة العربية للعلوم والثقافة ، الطبعة الأولى ، عام 1999 ، ص 50

5 - السرمري ، ذكر الوباء والطاعون ، ص ، 26 كالبيش كالبيش فأنه غذاء للسمان رغم سميته وهو نبات هندي ونبات الدلب يموت منه الخفاش وهو نبات ينمو في اليمامة من جزيرة العرب ، المرجع نفسه ، مجهول ، رسالة في الطاعون ، ق 5

ينتج عنها من إختلاف في درجات الحرارة وإرتفاع في نسبة الرطوبة ومن هبوب رياح جنوبية خاصة المدن التي تجاورها الأنهار ومواضع الغدران والمياه الراكدة التي تكون عامل في فساد الهواء هذا علاوة على أبخرة النفايات، ومجاري الصرف الصحي وجيف الحيوانات[1]، فيكون وجود الأنهار، والمستنقات، وأماكن المياه الراكدة، حول المدن وأبخرتها المتصاعدة سببا في فساد الهواء.[2]

ثانيا : العوامل الفلكية :

كما أشار علماء الإسلام إلى العلاقة بين العوالم السماوية والعوالم الأرضية وأن كل حركة أو ثبات للأجرام السماوية يتصل بحدث ما على سطح الارض فطلوع الشمس، وما يتبعه من حرارة وضوء يتبعة تأثيرعلى حياة الأحياء بصفة عامة خاصة عملية الإنبات، فقد ذكر ابن النفيس[3]، أن هناك علاقة بين انتشار الأوبئة وبين الشهب والنجوم الساقطة على الأرض من السماء، كما يذكر ابن القيم تأثير نجم الثريا، وموقعه، وعلاقته بالأرض الشمس والقمر بانتشار الأمراض [4] ، كما أشار ابن الخطيب إلى أن الكواكب، وحركتها لها دور في نشر الوباء[5] ، وذكر ابن حجر وابن سينا سينا أيضا أن سبب وقوع الاوبئة كثر الشهب ونزول المطر وهبوب الرياح الجنوبية في الصيف لا في الشتاء [6]، وقد سلم الأطباء بدور تلك الأشعة الواصلة للأرض من السماء بوقوع الأوبئة، ويمكن أن يكون ذلك هو المقصود به الآن تلوث الأرض بالأشعة الكونية.

وقد شبه الأوربيين الوباء بالدخان الساقط من السماء، وبالدخان السام الساقط من الشهب ، و بالبخار الخارج من الشهب من ثم أرجعوا سبب انتشاره إلى إلتقاء عطارد والمريخ والمشترى الساعة الواحدة ظهرا يوم 20 آذار مارس، بحيث يؤدي هذا الإقتران بين زحل والمريخ والمشترى إلى انتشار كتلة من الأشعة الكونية الصادرة عنها نتيجة لإختلاف تكوين تلك الكواكب [7]، وهو أمر غير

---

(1) - التميمي ، مادة البقاء ، ص 50

2 - مزود سمية ، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط ، جامعة منتوري ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الجزائر ،2009 ، ص 119/118

(3) - ابن المبرد ، فنون المنون ، ق24 ، ابن النفيس ، الموجز في الطب ، ص 286

4 - ابن القيم الجوزية : شمس الدين ابي عبدالله ابي بكر أيوب (751 ه) ، زاد الميعاد في هدي خير العباد ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة، بيروت 2009، ص 603 ، مجهول ، رسالة في الطاعون ، ق 6

5 - مقنعة السائل ، ص65

6 -بذل الطاعون ، ص90 ، القانون في الطب، ج3 ، ص89 ، مجهول ، رسالة في الطاعون ، ق6

(7) روبرت ، الموت الأسود ، ص 73 ، Hecker , epidemic ,p 80

إعتيادي للكواكب يؤدي إلى سخونة الهواء [1]، كما قال الطبيب سيمون دي كوفينو [2] أن من يقف في محيط تأثير كوكب عطار أشر الكواكب، وأكثرها عداوة سيصاب بالطاعون ،[3] كما تؤدي تلك الأشعة إلى ولادة مادة فاسدة بين القلب والرئتين ، وذهب إلى ذلك طبيب إيطالي يدعى جانتل فوليجانو (foligano)[4]، ومن قبله ابن سينا الذي جعل تأثير تلك الأشعة يعود إلى طبيعة الأجسام والأبدان فبعضها تؤثر فيه هذه الأشعة فيكون لديه قابلية للإصابة بالأمراض، والبعض الأخر لدية مناعة لمقاومة الأمراض[5]، بل أن الأجسام القوية والصحيحة تصير أفضل حالا بعد الوباء لأنها تتغلب عليه، وكانت بعض النساء الحوامل يسقطن أثناء الوباء ، واذا ولد يكون سقيما ويموت في الأغلب بالطاعون[6]

ثالثا : عوامل يتحالف فيها الإنسان مع البيئة

الحروب والصراعات :

وهذه العوامل تقع بيد الإنسان وتعززها البيئة والعوامل المناخية فقد أنتشرت الأوبئة في أوقات الحروب ، وذلك بسبب كثرة القتلى فكانت جثث قتلى المعارك تترك أحيانا حتى تتحلل و تجيف وتنتن ريحها[7] ، فتحملها الرياح إلى الأنهار والآبار والبحار والبحيرات فتتلوث البيئة وتعم الأوبئة والأمراض ، بل وتكون عرضة لأن تنهشها الحيوانات والطيور [8] ،فينتقل إليها الوباء أيضا [9]، وقد شهد العالم الإسلامي فترات لانتشار الأوبئة المصاحبة لغزوات المغول والصليبيين [10]، فيذكر وليم الصورى أن الوباء الذي ضرب الصليبيين في أنطاكية عام 491 هـ/ 1097 م ، كان من ضمن أسبابه المجاعات التي تعرض لها الصليبين داخل أسوار أنطاكية عندما حاصرهم الأمير السلجوقي كربوقا[11] ، فأضطروا إلى

---

(1) – شلدون ، الأوبئة والتاريخ ص 78- 53

2 - سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر ، عودة الموت الأسود ، ص 30

(3) - زيغريد هونكة شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فاروق بيضون ، دار الجيل بيروت ، الطبعة التاسعة 1993 ، ص 276

(4) - روبرت ، الموت الأسود ، ص 173

5 - القانون في الطب ، ج3 ، ص 88

6 - مجهول ، رسالة في الطاعون ، ق6

(7) – ابن حجر ، بذل الماعون ، ص101، ابن المبرد ، فنون المنون ، ق 24، ابن النفيس ، المصدر السابق ، ص 285

8 - عبد الغني عبد الفتاح زهرة ، عادات المصريين عن الكوارث في العصر المملوكي، مجلة الإستواء، عدد خاص ، 2017 ، ص147

(9) - جيوفاني ، الديكاميرون ، ص45

10 - الحازمي ، ناصر محمد علي ، الحركة العلمية الطبية في الشام زمن الحروب الصليبية ، رسالة دكتوراه ، جامعة ام القرى ، 2006 ، ص 110

11 - أمير تركماني من أمراء ألب ارسلان ، كان أميرا للموصل

أكل الخيول والحمير الهزيلة والكلاب والقطط والفئران [1]، ويبدوا أنه كان وباء التيفوس[2]، وقد كان أكثر القتلى من النساء النساء ومات فيه خمسون ألف امرأة في وقت قصير، وقد أرجع وليم الصوري انتشار الوباء إلى فساد الطعام الذي سببته الأمطار الغزيرة التي هطلت على معسكر الجيش الصليبي إضافة لسؤ التغذية جراء حدوث مجاعة قبيل الوباء، وهو ما أدى بالجنود إلى شرههم للطعام بعد الجوع فكان سبب في انتشار المرض والموت بينهم [3]، ، كما وقع أيضا أثناء حصار الفرنج لدمشق سنة 543هـ / 1148 م ، حيث إنتشر بدمشق بسبب كثرة القتلى بين الطرفين .[4]

كما تفشى الوباء بمدينة دمياط بعد وقوع المجاعة بها نتيجة حصار الأفرنج عام 615هـ/ 1218 م أثناء الحملة الصليبية الخامسة على مصر[5] حيث إنتشر الوباء بين صفوف الحملة وكان عبارة عن آلام تصيب الأرجل والأقدام فيظهر سواد على الجلد وفساده كذلك في اللثة والأسنان[6]، وقد انتقل إلى داخل المدينة فأنتشر الوباء وصحبة مجاعة أيضا، ثم تكرر الأمرعام 647هـ/ 1249 م، أثناء الحملة الصليبية السابعة على دمياط[7] ، حيث وقع وباء بين صفوف الجيش وتشابهت أعراضه مع الوباء الذي أصاب الجيش الصليبي في الحملة الصليبية الخامسة، وهو تغير لون جلد القدم إلى اللون الأسود، وظهور بقع سوداء ، وورم اللثة، وقد عمل الجرائحين على إزالت هذه الاورام [8]، وقد إزداد هذا الوباء نتيجة للحصار الواقع عليهم من قبل المسلمين، وقد ذكر حسن الوزان في كتابة

---

[1] - محمد حمزة صلاح ، الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر ، الجامعة الإسلامية ، كلية الآداب ، غزة 2009 ، ص 108

[2] - ارتبط هذا النوع من الوباء بالحروب والمجاعات عبر التاريخ ، ويعد سببه الى انعدام النظافة والاماكن المكتظة، وأعراضه شبيه بالطاعون الرئوي

[3] – وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1991 ، ج 1 ، ص 330 ، ساريوس بن المقفع ، تاريخ مصر من مخطرط البطارقة ، ص 88

[4] - الحازمي ، الحياة الطبية ، ص 114، محمد حمزة صلاح ، المصدر السابق ، ص 112

[5] - المقريزي ، السلوك ، ج1، ص308 ، بن واصل جمال جمال الدين محمد بن سالم (697هـ) مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ،تحقيق حسين ربيع ، ج4، ص23 ، جليلة حسن أحمد، حسن عوض الكريم ، رسالة ماجستير الصراع الأيوبي الصليبي وأثره في سقوط الدولة الأيوبية ، جامعة شندي، 2010 ، ص 74/

[6] - محمد حمزة صلاح ، المرجع السابق ، ص 138

[7] - ابن اياس: محمد بن إياس الحنفي (ت) بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى ، مركز تحقيق التراث، القاهرة ، 1983 ، ج1، ص 279 ، جليلة حسن ، المرجع السابق ، ص 135

[8] – محمد حمزة صلاح ، المرجع السابق ، ص 137/ 138

138

وصف أفريقيا وباء سماه (داء الأفرنج)، أو الزهري الفظيع له نفس أعراض الوباء الذي انتشر بين جنود الصليبين أثناء الحملة الصليبية السابعة بأوجاعه وبثوره وقروحه وهذا الداء انتشر في المغرب بعد هجرة اليهود من أسبانيا إلى المغرب وإنتقل لأهل المغرب ولم يكن معروفا لديهم قبل ذلك[1]، وفي العصر الحديث كان الوباء وانتشاره بين الجنود الفرنسيين أثناء حصار نابيليون بونابرت لعكا من أسباب تراجعه عن الحصار إنسحابه والعودة إلى مصر عام 1233 هـ/ 1799 م كما شهدت فترة الإجتياح المغولي عدد من الأوبئة والطواعين كان سببها كثر جيف جثث القتلى الناتجه عن الغزو المغول في عام سقوط بغداد 656هـ ، التي استبيح القتل فيها أربعين يوما حتى خلت من أهلها، وأمتلئت شورعها بتلال من جثث لآلاف القتلى، وسقط عليها المطر الذي زاد من تعفنها وأنتنت وأختلط بها الذباب ووصلت إلى المياه التي تلوثت وساهمت في انتشار الأمراض، كما حمل الرياح نتنها الى بلاد الشام فوقع الوباء ، والغلاء، والفناء، والطعن والطاعون على الناس في ذلك العام[2]

كما كانت زيادة الرطوبة وارتفاع درجة الحرارة اللذين يؤديان إلى زيادة التعفن وتحلل الجثث و تجيف ويحملها الهواء إلى البحار والانهار [3] ومن ثم فساد الهواء ([4])، قد يصل هذا التلوث إلى مياه الآبار[5] ، كما حدث في حمص عام 589 هـ فعمها الوباء وهلك فيه كثر من سكانها [6]، وقد عرفت طرق الحاج بتلوث مياه الآبار مما كان يتسبب في موت الألاف منهم حبث كان الحج أيضا من عوامل نشر الأوبئة، ومن طرائف ما ذكر عن فساد الآبار أن ادعى رجل نصراني لإبى غرس الدين بن شاور أن

---

[1] - الحسن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص88 ، الحسين بولقضيب ، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن ،2001، ص62

[2] - - ابن كثير : الحافظ عماد الدين اب الفدا إسماعيل إسماعيل القرشي (ت774 هـ) ، البداية والنهاية ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مركز هجر للطباعة والنشر ، 1997 ، ج17، ص 362

[3] ابن النفيس : علاء الدين أبو الحسن علي بن أبي الحزم القرشي الدمشقي (ت687) ، الموجز في الطب ، تحقيق يحي مراد ، ص 290 ، ابن المبرد، فنون المنون ، ق22

[4] - منال أحمد ابراهيم ، المجاعات في مصر والشام في في العصر المملوكي ، ص 119

[5] - البدليسي : إدريس بن حسام الدين علي (930 هـ) ، ، مخطوط الإباء عن مواقع الوباء ، مكتبة الأسكوريال ، المخطوطات العربية رقم 2758 ، ق16

[6] الدوداري : أبو بكر بن عبدالله بن أيبك (713هـ) ، كنز الدرر وجامع الغرر تحقيق أولرخ هارلمان ، المركز الألماني القاهرة ، 1970 ، ج 7 ، ص121

آبار الرملة قد حاضت ولذلك إنتشر المرض بين الناس وعليه أن يحضر ماء من قرية عابود إحدى قرى فلسطين ويصبه فيها حتى يزل فسادها لأن الابار فيها إناث وذكور [1]

المدن المزدحمة والساحلية :

وقد تشابهت كل الأوبئة التي إجتاحت العالم في عدة أمور، منها التقارب الشديد في وقوع هذه الطواعين في سنوات متوالية ، أو متباعدة لفترات تصل إلى خمس أعوام، أو خمس عشرة عاما على أكثر تقدير، وكذلك كانت هناك مناطق عرفت بانتشار الوباء بها، أو أنها مناطق وبيئة مثل الشام ، خاصة مدن مثل دمشق، وحلب، والقدس، وغزة ، مصر خاصة القاهرة ، والأسكندرية [2]، وأحيانا يشمل الصعيد والريف ، يمكن تفسير ذلك في ضوء الإزدحام السكاني في هذه المدن الكبرى وكثرة النفايات وتعفنها ومن ثم فساد الهواء [3] ، وقد عبر عن ذلك الشاعر ابن نباته حين قال :

سر بنا عن دمش يا طالب العيش فما للمقام للمرء رغبة
رخصت أنفس الخلائق بالطاعون فيها في كل نفس حبة [4]

فقد صنفت بعض المدن بمدن الوباء مثل القاهرة فقد ذكر في مقدمة كتاب الاوبئة والتاريخ مقولة لرحالة أوربي في القاهرة فقال :" القاهرة والطاعون كان الطاعون سيد المدينة طوال فترة إقامتي فيها، وظهر الخوف في كل مكان فقد كانت أوفر حظا من اوربا تحت بلوى هذا النوع مدن الموت نصبت الخيام، وعلقت المراجيح لتسلية الاطفال في عيد المسلمين غير عابئين بالموت" إلكسندر كينجلاك – اوثن، وقد أجمع من كتب عن هذا الوباء أن القاهرة قد رسمت وجسدت له صورة واضحة حيث كان يبدأ بالنساء والأطفال والضعفاء من الباعة [5] .

---

(1) - علي عبد الله السبعاوي ، الأوبئة والكوارث الطبيعية وأثرها في العصر المملوكي ، جامعة آل البيت ، كلية الآداب والعلوم والإنسانية ، 2015 ، ص 83 ، منال ابراهيم ، المجاعات في مصر، ص119

(2) - رائد عبد الرحيم ، رسالة النبأ، ص15 ، منال ابراهيم ، المرجع السابق ، 123

(3) - ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت 808 ه) ، المقدمة ،تحقيق خليل شحادة ، دار الفكر ، بيروت ،2001 ، ص 375 ، ابن القيم الجوزية : شمس الدين ابي عبدالله ابي بكر أيوب (751 ه) ، زاد الميعاد في هدي خير العباد ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة، بيروت 2009، ص 603 ، روبرت ، الموت الأسود ، ص 174

(4) - المقريزي ، السلوك ، ج4 ، 93

5 - شلدون واتس ، الأوبئة والتاريخ ، ص55

وقد ورد عن التميمي أسباب كون هذه المدن بيئة جيدة للوباء منها مجاورة المدن للبحار ووجود الأنهار الكبيرة بها حيث يحدث وقت الفيضانات إرتفاع لنسبة الرطوبة علاوة على ما تحمله الفيضانات من مواد عضوية تتحلل وتنتج غازات تسمم للهواء ،تعرض المدن للرياح الجنوبية وهي رياح تأتي من أفريقيا وتكون رياح رطبة وحارة وهي عوامل تساعد على انتشار الوباء[1]

كما كان إزدحام تلك المدن بالسكان والغرباء والتجار والرحالة يعززمن إنتقال العدوى، ومن ثم انتشار الوباء ، فقد ذكر ابن الخطيب، أن انتشار الطواعين والأوبئة يعود إلى نمط الحياة والبيئة الجغرافية [2] ، فقد سلمت بعض المناطق و لم يصل إليها الوباء الشامل الذي عم سكان العالم في عام 749/ 1348 م ، مثل الصحاري وأهل الخيام وحتى السجون بالرغم أن المسجونيين كانوا فيها بالإلاف [3] مع ذلك فقد نجوا جميعا بفضل الإنعزال وعدم الإختلاط .

كما عملت بعض الصحاري في المغرب على عزل بعض المناطق من وصول الاوبئة ، كذلك عملت سلاسل الجبال كعائق طبيعي لوصول الاوبئة لبعض المناطق[4]، فقد كان أهل الخيام والبدو في الصحراء بمعزل عن الوباء، فلم يصل إليهم إلا في حدود ضيقة، لذلك كانت تلجأ كثير من القبائل إلى الصحراء، والإنعزال عن المدن فرار من الوباء ، وقد نجت قبائل كثيرة من الوباء بإلتجائها إلى الصحراء بعيدا عن فساد الهواء والعدوى من المناطق الوبيئة، كما فعل الزاهد أبو مدين السلوي الذي أغلق عليه باب منزله بالطين ففنيت المدينة بينما لم يفقد هو أي فرد من أفراد عائلته[5] ، والإنتقال من المناطق والوبيئة إلى إلى المناطق الخالية من الوباء كان يساعد في انتشاره [6]، وقد ذكر المؤرخون أن الطواعين لم تكن تنقطع في عصر بني أمية لذلك كانوا يخرجون إلى الصحراء، والبادية حتى ينتهي الوباء، وقد أتخذ هشام بن عبد الملك الرصافة منزلا له وقت الوباء .[7]، وقد

---

[1] - التميمي ، مادة الوباء ، ص 50

[2] - لسان الدين بن الخطيب ، مقنعة السائل ، ص 74

[3] – المرجع السابق ، ص 75 ، السعدي ، الأوبئة في المغرب ، ص 22

[4] - السعدي، المرجع السابق، ص11 ، شالدون ، الأوبئة والتاريخ ، ص 15

[5] - الخطيب ، مقنعة السائل ،ص 68

[6] السعدي، الطاعون في المغرب ، ص 12

[7] ابن حجر ، بذل الطاعون ، ص 214 ، السيوطي ، مارواه الواعون ، ص 14

ذكر دكتور يوحنا ورتبات[1] أن كتب الهند القديمة كانت تأمرهم بالخروج إلى الصحاري والغابات المجاورة حين يروا الفئران تسقط من أسقف المنازل فذلك علامة على انتشار الوباء، حيث يقضون حياتهم في الإغتسال والصلاة لا يعودون إلى المدن حتى تأتيهم الغربان في أكواخهم [2]، فيعودون حين إذ إلى المدن ، مع تطهير المنازل وتبخيرها قبل السكن بها.

فالمدن عادتا ما ترضخ بالنفايات وبقايا الطعام ، وما تسببه من روائح تلوث الهواء ومجاري المياه والآبار، وكذلك روائح التي تصدر عن المجاري الصحية ، وجيف الحيوانات وما يتنج عنها من غازات ملوثة للهواء خاصة إذا هبت الرياح الجنوبية فتحمله من مكان إلى أخر .[3]

لذلك كان يعزف الناس في زمن انتشار الأوبئة عن سكن المدن ويخرجون إلى الصحراء، كما أمر عمر بن العاص الناس في طاعون عمواس التفرق في الجبال والشعاب، حيث أن إجتماعهم بمثابة الحطب للنار وبالفعل كان إنتهاء الوباء بتفرق الناس وإنعزالهم عن الإختلاط ، رغم رفض بعض الصحابة إتباع هذا الأمر الذي إعتبروه فرارا من الطاعون [4]

كما ذكر ابن خلدون أن كثر العمران وإزدحام المدن بالسكان كان وراء انتشار الأمراض والأوبئة [5] ، وأعتبر أن الوباء كان وراء خراب انهيارها بعض الدول وضعفها، بل وسقوطها البعض الأخر[6]، وأن نمط حياة المدن وما يعتريه من قلة للنشاط البدني وزيادة في إستهلاك الأطعمة والأغذية والركون إلى الدعة والراحة سبب ضعف الصحة البدنية لسكان المدن وضعف مقاومتهم للإمراض، في حين يتمتع سكان البادية بالصحة والنشاط وقلة الأمراض [7]، [7]، ولا يخفى على أحد أن العرب كانوا يفضلون قضاء أطفالهم لسنواتهم الأولى في البادية بعيدا عن وخم مناح الحضر، لذلك كان ينعزل الأغنياء في المشرق الإسلامي في مزارعهم، وبساتينهم حتى إنتهاء الوباء، كذلك الإقطاعيين في أوربا ينعزلون في إقطاعتهم والعباد والزهاد في صوامعهم مما كان له أثر كبير في نجاتهم [8].

[1] طبيب أرمني ولد بسوريا عام 1826 ، الخطيب ، معجم المؤلفين ، الأطباء، ص 403

[2] - يوحنا ورتبات ، المرجع السابق ، ص 609

[3] - التميمي ، مادة البقاء ، ص50

(4) - بن ابي حجلة ، دفع النقمة ق55

(5) – ابن خلدون ، المقدمة ، ص 372 ، روبرت ،الموت الأسود ، ص 30

(6) - يمكن أن يكون ذلك إشارة إلى سقوط القسطنطينية والاندلس وبعدهم دولة المماليك

(7) - ابن خلدون ، المقدمة ، ص 520

(8) – ابن خلدون المصدر السابق ، ج 1، ص 282

وكان أغلب الموت في هذه المدن الوبيئة من العبيد والاطفال والنساء والغرباء [1] ، وقد فسر ابن الخطيب و ابن خاتمة موت النساء والاطفال لزيادة الرطوبة في اجسامهم، وهنا عامل الرطوبه هو من مغذيات الوباء[2]،، كما يمكن الإشارة هنا إلى المناعة الذاتية في مواجهة الأمراض، أما بالنسبة للغرباء فقد ارجع ذلك لأن أهل تلك المدن قد إعتاد أهلها على الأوبئة والهواء الفاسد خاصة في أعوام التي يحدث فيها ترددات الوباء بحيث يكون هناك مناعة لدى أهلها أما الغرباء فلا يستطيعون مقاومة تغير المناخ بالنسبة لهم[3]، ومن الممكن أيضا أن يكون هناك سبب آخر أن يكون الغرباء حاملين للوباء ، كذلك العبيد كانوا أول حصاد الوباء فيكثر الموت فيهم وتكسد أسواقهم ويحجم الناس عن شرائهم لسرعة موتهم[4]، كما أن الوباء يحصد الضعفاء والفقراء أولا، وذلك بسبب عاملي سوء التغذية ، وكذلك البيئة الملوثة [5]

ومثلما كان انتشار الاوبئة في الشام ومصر، كان لصيقا بالمدن والمناطق المزدحمة بالسكان[6]، بحيث أصبحت تلك المدن بمثابة بؤر للوباء، مثل دمشق، وحلب، والقدس، والقاهرة، كان لصيقا أيضا بالمناطق الساحلية[7] حيث اشتهرت غزة والأسكندرية ومدينة مرية ومواني أيطاليا وطنجة وغيرها من المناطق الساحلية، و بأنها تصبح بؤرة للأوبئة والطواعين [8] وقت انتشارها، فيذكر الصفدي في تذكرته أن الطاعون بدأ بغزة أولا ثم إلى بيروت وإنتقل منها إلى الشام[9] ، كما ذكر بن الوردي في رسالته أن الطاعون بدأ بغزة [10] ، ثم انتقل منها إلى الشام ، كما أنتقل من ميناء جنوة جنوب أيطاليا إلى نواحي ايطاليا ومنها إلى أوربا ، وذكر ابن خاتمة أن أول المدن التي وصل إليها الوباء في الأندلس مدينة مرية الساحلية ، ويفسر ذلك بسبب إمتداد سواحلها مع البحر المتوسط شرقا وغربا وجنوبا كما إنها تتميز بطول سواحلها ورطوبة الهواء ، وكثر المستنقات والأودية التي تحبس المطر الذي

(1) - المقريزي ، السلوك ، ج 7 ، ص 348 ، القرشي ، شفاء القلب ، ق50 ، ابن المبرد ، فنون المنون ، ق 110

(2) ابن الخطيب ، مقنعة السائل ، ص 77

(3) ابن الخطيب ، المصدر السابق ، 75 ، منال ابراهيم ، المجاعات في مصر، ص 14

(4) - المقريزي ، ج7 ، ص 360

5 - يوحنا ورتبات ، الطاعون ، ص 609

(6) - ابن خلدون ، المقدمة ، ص 373

7 - سوزان ، عودة الموت الأسود ، ص 188

(8) - التميمي ، مادة البقاء في إصلاح فساد الهواد ، ص 50

(9) - ابن المبرد ، فنون المنون ، ق 105

(10) – رائد عبد الرحيم ، رسالة النبأ عن الوبا، ص 25

يؤدي إلى زيادة الرطوبة[1]، كذلك توفر عوامل إنتقال الوباء من حيث قدوم السفن التجارية التي تحمل وسائل نقل الوباء من الجرذان الحاملة للوباء أو التجار، والغرباء اللذين أصابهم الوباء، وأرجع إليهم بن خاتمة سبب إنتقال الوباء إلى الأندلس فقد كان يؤرخ لبداية الوباء في كل مدينة بأول شخص غريب وفد إليها لذلك سماه المرض الوافد[2]

كذلك كان وصول الوباء إلى أوربا عن طريق مرفأ مسينا [3]، حيث وصل في عام 749هـ/1347 م أسطول جنوي كان يحمل طاقمه الوباء فماتوا جميعا بعد وصولهم إلى الميناء لكن قام بمهمة نقل الوباء الجرذان التي إنتشرت في انحاء المدينة بمجرد دخول السفن إلى المرسى، ومن المدينة إنتقل إلى القرى المجاورة [4]، ومنها إلى إلى جميع نواحي أوربا.

كما أن هناك أسباب أخرى جعل من المدن الساحلية موطنا للوباء هو إطلالها على البحار التي تموت فيها ألاف الأسماك والكائنات البحرية بفعل الوباء وتطفوا على سطح الماء وبكميات ضخمة وترمي بها الأمواج على الساحل وقد تحللت أجسادها وانتن ريحها وعم فسادها الهواء وانتقل إلى المدن الساحلية .[5]

رابعا : التفسيرات الدينية للأوبئة والطواعين

تعاطى رجال الدين وعامة الشعوب مع الأوبئة في العالم الإسلامي والاوربي بشكل مختلف عن الأطباء والعلماء فقدم رجال الدين تفسيرات دينة لوقوع الأوبئة، والطواعين، وإرجاعها إلى أسباب دينية، وأخلاقية ، تم تداولها على مر العصور في أن الله يرسل الأوبئة والطواعين لتكون للكافرين عذابا[6]، وللمؤمنين رحمة وشهادة

(1) – ابن الخطيب ، مقنعة السائل ، ص 65

(2) - سمي بذلك لأنه يمكن التأريخ للمرض بأول شخص شخص دخل إلى المدينة ، ابن الخطيب ، مقنعة السائل ، ص48، كما أطلق الرازي أيضا على الجدري والحصبة أنها من الأمراض الوافدة لأنها تأتي مع الرياح الجنوبية التي تأتي في الصيف وتصيب من يغفل عن إخراج الدم الفاسد، الحاوي ، ص 2517

(3) - الميناء الرئيسي لجزيرة صقلية ، علي السيد علي الوباء الأسود، ص 157، يوحنا ورتبات ، مقال الطاعون ، ص607

(4)- روبرت ، الموت الأسود ، ص19

Stephanie , the black death , p 11

(5) - ابن الخطيب، مقنعة السائل ، ص 49

(6) - ذكر ابن المبرد أنه يقع بسبب الحرب بين الجن من المسلمين والكفار ، فإن الجن المسلم يطعن الكافر

وشهادة ، وعن السيدة عائشة أنها سألت رسول الله (صل الله عليه ووسلم) عن الطاعون فقال: "أنه كان عذابًا يبعثه الله على من يشاء، فجعله الله رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع الطاعون، فيمكث في بلده صابرًا، يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر الشهيد" [رواه البخاري]،[1] وقال:(صل الله عليه وسلم) "الطاعون شهادة لأمتي، ووخز أعدائكم من الجن، غدة كغدة الإبل تخرج في الآباط والمراق، من مات فيه مات شهيدًا، ومن أقام فيه كان كالمرابط في سبيل الله، ومن فرَّ منه كان كالفار من الزحف".[2]

كما أن ظهور الأوبئة والطواعين علامة على انتشار المعاصي فقال: رسول الله (صل الله عليه وسلم)قَالَ: "يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ[3]، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ"[4].

ولذلك ربطت دولة الموحديين[5] بين حدوث الاوبئة والكوارث الطبيعية، وبين الخروج على تعاليم الدين وطالبت الناس بالرجوع إلى الدين والإقلاع عن المعاصي، وما تؤول إليه من فساد أخلاقي، ومجتمعي فقد إنتشرت المعاصي، والغش التجاري، والظلم الإجتماعي، والسياسي[6]، حتى قيل: " إذا كثر الطاغون ظهر الطاعون" [7] ، ولذلك أنكر الفقهاء العدوى وإنتقالها لأنه مقدر على الإنسان ، لكنهم عملوا بتحذير

والجن الكافر يطعن المسلم ، فنون المنون ق 17 ، ابن حجر ، بذل الماعون ، ص 141

[1] - المصدر السابق ، ، كتاب الطب، (رقم: (5731)، ص1452

[2] - الأنصاري ، مخطوط تحفة الراغبين ، ورقة 4

[3] – الاشرف قايتباي : سيف النصر الدين قيتباي (ت 901 هـ) ، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، مخطوط ، ق 9

[4] - ابن حجر، بذل الماعون ، ص124 ، ابن نجيم ، رساله في ضبط ، ق3

[5] - اسسها اتباع محمد بن تومرت في المغرب الإسلامي وعاصمتها مراكش (1121- 1269)

[6] – القرشي ، شفاء القلب المحزون ، ق10، السيوطي، مارواه الواعون ، ق 15 ، رائد عبد الرحيم ، رسالة النبا في الوباء، ص11، المقريزي ، السلوك ، ج4، ص 80 ، الحسين بولقضيب، المرجع السابق ، ص 36

[7] - البدليسي : الإباء عن مواقع الوباء ، ق 19 ، ابن حجر ، بدل الطاعون ، ص 365

الرسول (صل الله عليه وسلم) من الاختلاط أو الخروج والدخول من المناطق الوبيئة [1].

كما إعتقد المسيحيون في أوربا أن الأوبئة أرسلها الله كعقاب للبشرعلى آثامهم ولذلك ذهب الكثير منهم للتوبه والإعتراف بذنوبهم والإقلاع عنها [2]، وأنها غضب السماء كما إنتشرت حركة السياطون وهم اناس أعلنوا توبتهم وإقلاعهم عن المعاصي، فأخذوا يجوبون شوارع ألمانيا معلنيين عن توبتهم يضربون أنفسهم بسياط بها مسامير فتخترق جلودهم وتسيل منها الدماء، وتأتي النساء بخرق من القماش تجمع بها الدماء لتتمسح بها ظنا منهن أنها تشفي من الأمراض وإمتدت حركة السياطون فعمت أرجاء أوربا وقد أصبحت حركة شبه منظمة تخرج في مواكب تتبعها النساء ويحملون الصلبان ويرددون ترانيم حول المسيح وآلامه، بحيث أنهم إحتلوا مكانة دينية كبيرة عوضا عن رجال الكنيسة بسبب تصديهم لهذه الأزمة وجمع الناس حولهم [3].

طرق أنتقال العدوى :

استخدم لسان الدين ابن الخطيب مفهوم الوباء نتيجة العدوى حيث اتيحت له فرصة متابعة أمراض مثل الكوليرا والطاعون والجدى وهورالمفهوم الذي إنتشر في أوربا العصور الوسطى خاصة إنه حضر وباء عام 1348/749 [4]، ونشر رسالة رسالة هامة [5] عام 1348م عن الوباء، وطرق العدوى، وانتشارها فكان إكتشاف طرق العدوى، سبب في مكافحة هذه الأمراض والحد من انتشارها ، وهو أحد أفضال العرب على العالم [6]، فقد حدد سبل نقل العدوى عن طريق الملامسة ، أو المتعلقات الشخصية للمريض كأدوات الحلاقة والملابس، وقرط الأذن ، وأواني الطعام ، وبذلك ينتقل المرض من شخص لأخر ومن عائلة لأخرى ومن مدينة لأخرى ، ولذالك طالب بعزل المريض والأسرة المصابة، والمدينة المصابة ، بل وأشار إلى حظر السفن الآتيه من البلدان الخارجية ، ويدل وعي أهل الأندلس بطرق إنتقال وانتشار العدوى إلى تأريخهم لدخول الوباء إلى بعض المدن بدخول الغرباء بحيث كان يؤرخ في كل بلدة بداية الوباء بدخول أحد

(1) - السعداوي ، الطاعون في المغرب ، ص17

(2) سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر ، المرجع السابق ، ص 52، Elliott, op.cit,p12 ,

(3) - روبرت ، الموت الأسود ، 119

(4) - شلدون واتس ، الاوبئة والتاريخ ، ص31

(5) – ابن الخطيب ، مقنعة السائل في المرض الوافد ، 75

(6) - زيغريد هونكة ، شمس العرب ، ص 275

الغرباء إليها لذلك سموه بالمرض الوافد [1]، فكان دخول أحد النصارى قادما من جزيرة ميورقة إلى المرية سببا في انتشار الوباء بها [2]، وبالرغم من ذلك لم يكن الوعي كافيا للحد من انتشار الوباء ، [3]، فقد شوهد في أسواق المرية بالأندلس من كان يبيع متعلقات، وملابس الموتى فكان سبب هلاكهم .[4]

ويبدوا أن كتابات أطباء الاندلس قد وصلت إلى أوربا وكانت من الإجراءات الإحترازية التي بدأ الناس في أوربا تعمل بها، وهي عدم مخالطة المريض أو أستخدام أي من متعلقاته الشخصية علاوة عزل المرضى [5]،في الأمكان المخصصة لمرضى الجذام، في حين كان هناك بعض السلوكيات التي قام بها فلاحين في فرنسا تحد من انتشار الوباء وهو عدم التعامل مع الغرباء ومنع أي أحد من الخروج، والانتقال خارج القرى أو الدخول إليها ، كذلك دفن الموتى ومتعلقاتهم الشخصية أو غسل الممتلكات الشخصية بالجير الابيض بل أن المنازل المصابة في مدينة تورين بفرنسا كانت تحرق .[6]

وفي إيطاليا عام1374 أمر برناردو فيسكونتي طاغية ميلانو بغزل مدينة ريجيونيل إميليا عن من حولها بالجنود التي تبعد 150 كيلو متر عن ميلانوا، ولم تكن تلك الاجراءات كافية لمنع وصو ل الوباء إلى ميلانو ، كما مارست الكنيسة أنواعا من العزل على مرضى الجذام والبرص في مناطق مخصصة لهم بعيدا عن الأحياء فكان يوضع المريض في حفره ثم يقذف بالتراب ثلاث مرات من قبل رجال الكنيسة ، في إشارة منهم لتوديع الحياة ، وكان يضم إلى مناطق العزل تلك المصابون بالطاعون أيضا .[7]

وبالرغم من ذلك فقد وجد في أوربا عوامل أخرى لأنتقال الوباء حيث أن أغلب الفقراء ومتوسطي الحال الذين كانوا يموتون في الوباء لايجدون من يقوم بدفنهم بل لايعلم أحد بموتهم إلى بعد أن تنتشر رائحة الجثث المتعفنه والتي تكون السبب في إنتقال الوباء إلى المئات من الجيران ، أو في أضعف الأحوال فأنهم يخرجون الجثث من المنازل خوفا من العدوى ويلقونها أمام

[1] - والأمراض الوافدة هي التي تعم كثير من الناس في زمن واحد ويكون سبب المرض واحد وهو فساد الهواء ، مجهول ، مخطوط رسالة في الطاعون ، جامعة الملك سعود ، رقم 5699 ، ق 4

[2] – ابن الخطيب ، مقنعة السائل ، 45

[3] - زيغريد هونكة ، شمس العرب ، 267

[4] – ابن الخطيب ، مقنعة السائل ، ص48

[5] – ابن الخطيب، مقنعة السائل ، ص 45-48

[6] روبرت ، الوباء ألسود ، ص 177

[7] - زيغريد هونكة ،شمش العرب ، ص 274

المنازل[1] حتى الصباح عسي أن يقوم أحد بحملها ودفنها، هذا بالإضافة إلى من كان يمرض لا يجد من يخدمه بل من الجائز أن يموت وحيدا، فقد تركت المرأة زوجها الأب ابنة والأم أولادها فكل شخص كان ينجو بنفسه بعيد عن من أصابة المرض ، فكان من الممكن أن يتم تقليل أعداد الموتى إذا وجد المرضى من يرعاهم [2]، وخاصة من النساء فقد كانت بعض النساء ترفض أن تعالج من قبل الأطباء الذكور بسبب ما يقتضيه العلاج من كشف أجزاء من أجسادها مثل البطن والأفخاذ موضع الإصابة [3]، لكن بعد الوباء وتركهن وحيدين وحيدين من قبل ذويهن لجأن إلى إستجار رجال لرعايتهن في مقابل المال أو استقبلن الأطباء من الرجال خوفا من الموت ، و كان ذلك سبب في إلحاق العار بمن شفيت منهن بعد ذلك [4]، حيث كن يقدمن أي شيء شيء يطلب منهن في مقابل تلك الرعاية [5]

كما أرجع الأطباء في أوربا إنتقال العدوى من عين المريض حيث أن المخ يدفع بالمادة كريهة الرائحة والسامة إلى الأعصاب فتستقر في العين مسببه آلاما شديدة وعندما يبصرها الأنسان يصاب بالطاعون [6]، لذلك كان يطلب من المرضى تغطيت أعينهم قبل إجراء الفحص عليه [7] ، حيث أن مجرد التحديق في عين المصاب بالطاعون ينقل الطاعون [8] ، رغم أستهجان هذا الأمر في أوربا بعد ذلك [9]

طرق الوقاية و العلاج :

بدأ التقدم العلمي والتكنولوجي في العلوم البيلوجية ، وعلم الميكروبيولوجي، بإكتشاف الميكروب المسبب للكوليرا عام 1883 م على يد الطبيب الالماني روبرت كوخ [10]، ثم اكتشاف طرق إنتقال العدوى عام 1894 م [11]، وبالرغم من ذلك يعجز العلم الحديث أيضا عن مواجهة الفيروسات المستجدة لفترة من الزمن، ويتم محاربتها والتصدي لها عن طريق رفع مناعة الجسم باستخدام فيتامينات مثل (C / K) حيث تصبح المناعة الذاتية هي السلاح الوحيد في مقاومة الفيروسات ، وهذا، ما كان يفعله

---

[1] - سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر ، عودة الموت الأسود ، ص 29

(2) - بوكاشيو ، الديكاميرون ، ص 43 ، سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر ، عودة الموت الأسود ، ص 29

(3) Elliott,op.cit,p 26

-

(4) - بوكاشيو ، المرجع السابق ، ص45

[5] سكوت ، سوزان ، المصدر السابق ، ص 30

(6) - روبرت ، الوباء الأسود ، ص 175

(7) - زيغريد هونكة، شمس العرب 275

(8) - روبرت ، الوباء ، الأسود ، ص 175

(9) op,cit, p 15 Hecker,

(10) – روبرت ، المرجع السابق ، ص 56

(11) - شلدون واتس ، الاوبئة والتاريخ، ص 27

علماء وأطباء المسلمين حيث تركوا الكثير من المؤلفات التي تدل على وعيهم بأهمية الغذاء في رفع المناعة الذاتية لجسم الإنسان في مقاومة الأمراض عن طريق تحديد الأطعمة التي تصلح لأن يتناولها الإنسان، والتي يتجنبها نظرا لأثرها الضار على صحة الإنسان خاصة فترة المرض وهي ما سموها بالحمية [1] ، وإستخدام الدواء عندما يعجز الغذاء على الشفاء [2] ، ومن الملاحظ أنها أغذية تحتوي على الفيتامينات سابقة الذكر ، والتي تستخدم اليوم في علاج مصابي الفيروسات، ومنها فيروس كورونا المستجد كوفيد 19، هو مايسمى اليوم بعلم الأغذية ، الذي يسعى لإحلال الغذاء محل الدواء ، هذا بالإضافة إلى علاج بعض العوارض المصاحبة للمرض مثل الحمى ، والإلتهاب الرئوي بالأدوية المعروفة، بالرغم من أن القليل من المرضى من كان يعالج بالأدوية وذلك للإعتقاد الديني حول أسباب الأوبئة وأن التداوي قد ينفع مع الأمراض الأخرى، ولكن لا ينفع مع الطاعون فقد أعيى الاطباء وعجزوا عن علاجه كليتا[3] ، كما أن أن الوباء في البداية يصيب الفقراء بسبب سوء التغذية وضعف المناعة الذاتية، والبيئة الملوثة ، وضعف قدرتهم عن شراء العلاج أو حتى التغذية السليمة، لذلك كانوا أكثر حصاد الأوبئة، ثم ضعف دور الدولة في مواجهة الأوبئة للحد من الخسائر البشرية ، ولكن هذا لاينفي أن هناك حالات كثيرة من المرضى قد نجت بفعل طرق العلاج المستخدمة آنذاك[4]، فكان أغلب الناس تعتمد في علاجها على أنواع معينة من الأغذية والأشربة [5].

وقد وجدت طرقا مختلفة لعلاج أنواع الأوبئة الثلاث نذكر منها أولا: طرق معالجة الطاعون الدبلي فقد أجمع ابن سينا والأطباء من بعده بفاعلية الفصد في إزالة الدماء الفاسدة المتجمعة في الأورام[6]، لكن أشاروا إلى ضرورة أن يكون المربض لديه من القوة التي تجعله يحتمل عملية إزالة الدم الفاسد بالشق أو الفصد، وإذا تحمل المريض إرسال الدم فلابد أن يكون الفصد

[1] ابن النفيس ، الموجز ، ص 281

[2] - ابن القيم ، الطب النبوي ، ص 6

[3] - المكرمي ، مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي ت 1033هـ ، ما يفعله الأطباء والداعون بدفع شر الطاعون ، تعليق ، خالد بن مدرك ، دار البشائر الإسلامية ن الطبعة الأولى 2001 ، ص 35 ، ابن الخطيب ، مقنعة السائل ، ص67

Elliott, ,op.cit,p 9

[4] - ابن المبرد ، فنون المنون ، ق 27

[5] - المقريزي ، السلوك ،ج7 ، ص 205

[6] ابن سينا ، القانون في الطب ،ج 3 ، ص 89 ، سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر، عودة الموت الأسود ، ص26

دون وجود قئ أو إسهال[1]، كما يكون الفصد للأورام قبل أن يصاب المريض بالحمى [2]، ويكون أيضا بعيدا عن المناطق الموت في جسم الإنسان كالعنق والقلب [3] ، فلا شئ في علاج الطاعون أبلغ من ذلك، ويطلى بعده بالطين الأرمني [4] ، كما استخدم أيضا أيضا علاج مواضح الدمامل، والخراريخ في المغرب عن طريق تسكين اللذع والأنضاج والتفجير بالدواء أو باليد [5]، ومن الأمور التي استخدمت في علاج الطاعون هو أن تمسح الخراريج باسفنجة مغموسة في الخل والماء، أو تدهن بزيت الورد أوزيت التفاح، ثم بإستفراغ الدمامل والخراريج بالفصد [6]، ومن الطرق المتبعة أيضا في العلاج استخدام الكوي لمواضع الخراريج، وذلك بتسخين حجر الزناد والكوي به عن طريق الضغط على الخراريج أربع مرات متتالية، ثم يدهن بالطين الأرمني لكن لمن يقوى على ذلك ولا يستخدم في الأطفال والضعفاء فقد يضر بهم .[7]

كما كانت تستخدم أدوية عطرية في علاج الطاعون كالطين الأرمني، ومسحوق من الزعفران، والمر والكافور[8]، والصمغ العربي العربي ، ومنها ما يخلط بخل التفاح، ويدهن في أماكن التي يظهر بها الطاعون كخلف الأذن وتحت الأباط [9]، أو في الصدر الصدر وفي الأفخاذ، كما ذكر الرزاي وابن سينا أن ترياق الأفاعي،[10] له فاعلية كبيرة في الشفاء من الوباء، وهو من أفضل العلاجات بعد العلاج بالفصد والحجامة [11]

أما الوباء الرئوي أو ما أطلق عليه أطباء المسلمين بالحمى الوبائية، وهي حمى يمكن أن تجتمع مع الطاعون الدبلي ، أو تأتي منفردة ، وكانت تعالج بالحمية عن الأغذية الرديئة ، وتناول الأغذية والتي تعتبر من المضادات الحيوية مثل الثوم والبصل

(1) - مجهول ، مخطوط نتيجة المطلوبات في معرفة الحميات ، دار الكتب القومية ، 400 طب تيمور ، ق45

2 - الخطابي ، الأغذية ، ص 164

3 - ابن المبرد ، فنون المنون ، ص35 ، ابن النفيس ، الموجز ، ص 280

(4) الرازي ، الحاوي ، المجلد السادس، ص2516 ، هو طين كان يؤتى به من أرمينيا، وهو طين يابس جدأ يقرب لونه إلى الصفرة

(5) ابن الخطيب ، مقنعة السائل ، ص 67 ، ابن حجر ، ، ص328

(6) - ابن حجر ، بذل الطاعون ، ص 329 ، ابن سينا، الشيخ الرئيس علي بن الحسين ، القانون في الطب ، ج3 ، ص 89

(7) - البيلوني ، خلاصة مايحصل ، ورقة 30

8 - استخدمه الأطباء كثيرا في علاج الحميات الحادة والأمراض الحارة على هيئة أقراص أو مراهم وأكحال ، الخطابي، ص209

(9) - ويطلق عليها المغابن جمع مغبن وهي ماتحت الأبط واسفل الفخذين ، ابن المبرد، فنون المنون ، ق21

10 - وهو عبارة عن: بعض الأدوية المركبة بالإضافة إلى لحم الأفاعي، وضعت صفات للأفاعي المستخدمة ، الخطابي ، الأغذية ، ص252

(11) - ابن المبرد ، المصدر السابق ، ص 35

وقشور العدس والحوامض وغيرها كذلك الأدوية النافعة ، لتنقية الدم والقلب وباقي أعضاء الجسم من السموم والخبائث[1] ، هذا إلى جانب العلاجات الموضوعية فقال الشافعي لم أرى أنفع للوباء من دهن البنفسج يدهن به ويشرب[2]، فكان علاج المسلمين يرتكز على رفع كفاءة وعلاج كل من القلب والرئة لذلك وجدنا الأطباء يعالجون الرئة بدهنها بالزيوت، وما هو معروف من خصائص الدهن بالزيت لتقوية الدورة الدموية في الرئة ومن ثم علاج الإلتهابات التي لحقت بها جراء الوباء، ثم علاج القلب بالأغذية والأشربة لتنقية الدم من السموم، وتقوية القلب فأجمعوا على فوائد بعض الأطعمة والأشربة مثل السفرجل وماء الشعير[3] بالإضافة الى المبردات والمعطرات وعدم التعرض للشمس ، ومن الجدير بالذكر هنا أن أغلب هذه العلاجات مأخوذة من الطب النبوي .

كذلك عولج الطاعون الرئوي أو الحمى الوبائية بالأستحمام بالماء البارد وشربه بكثرة [4] ، كذلك التغذية المعتمدة على الفاكهة الحامضة مثل الرمان، والكمثرى، والتفاح، والأترج[5] ، والخل، ، واللبن الرايب الرايب ، والربوب[6] كرب الآس[7] ، والأترج والرمان ، وأقراص الكافور[8] التي يتناولها المريض في الصبح قبل الطعام ، وتضميد الصدر بالخرق المغموسة بالماء الورد البارد المنقوع به الصندل والكافور ، ويبرد الصدر بشكل دائم ولا يترك للحمى كذلك يعطى شراب الشعير [9] في الصباح بعد أقراص الكافور، كما يوالى المريض بالطعام والشراب فلا جوع كامل ولا شبع كامل [10]، وأن يعطى المريض الشراب البارد من الأحماض، كل غداة كشراب الأترج، أو التفاح، أو الرمان . أوالليمون، أو

[1] - ابن القيم ، الطب النبوي ، ص 22

[2] - البسطاوي ، وصف الدواء ، ورقة 6 ، ابن المبرد ، فنون المنون، ق 46 ، جمال الدين محمد بن بكر الفارسي ، مادة الحياة ، طب تيمور1373 ، ق 33 ، القرشي : شفاء القلب ، ق 19

[3] - يقلل السفرجل من خفقان القلب المصحوب لبعض لبعض الأمراض ، الخطابي، الأغذية ، ص 111

[4] - ابن القيم ، الطب النبوي ، ص 21

[5] له فوائد عظيمة في مقاومة السموم وأخلاط الجسم استخدمه الأطباء بكثرة ، الخطابي ، الأغذية ، ص 112

[6] - حيث كانت تطبخ حتى تسخن مثل العسل ويقل ماؤها وتستخدم لعلاج الإسهال والحمى والسموم ، الخطابي، ص 269/268

[7] هو الريحان وله فوائد كبيرة في علاج أمراض الصدر والإسهال ، الخطابي، المصدر السابق ، ص 113

[8] - ابن سينا ، القانون في الطب ، ج3 ، ص 89

[9] الخطابي، الأغذية ، ص 83

[10] ابن المبرد ، المصدر السابق، ق44 ، القرشي ، شفاء القلب، ق 31

السفرجل، ويشم الرياحين مثل البنفسج والصندل والكافور، وكان العلماء والأطباء ينصحون بالإقلال من تناول الأطعمة، والأشربة خاصة التي ترفع حرارة الجسم مثل اللحوم خاصة لحوم ذوي الأربع [1]، والتقليل من الحلوى خاصة مع الطاعون الدبلي ، لأن تقليل الطعام يقلل من جريان الدم الذي يغذي تلك الآورام ، ومنع بعض الأشربة مثل الحليب، والخمر الذي جعله الأطباء من أهم وأقوى العوامل الضاره والمهلكة، وكان ذلك وراء هلاك كثير من الفاسدين [2] ، وموتهم في الطاعون، كما اشتهرت أطعمة تستخدم بكثرة أوقات الوباء مثل الخل والعدس والكتك، االقثاء ، والفلفل، بالإضافة الى الثوم والبصل والكراث والخيار [3] .

أما النوع الثالث وهو الطاعون التعفني والذي أطلق عليه المسلمين الذبحة ويبدوا أنه كان أخطر هذه الأنواع الثلاث وأشدها فتكا بالإنسان، بحيث لا ينجوا منه أحد ، فكان الإنسان يموت في أقل من ساعة [4] بالرغم من أنه كان يقع في وقت الوباء وفي غير وقته [5] ، فكان المريض يموت قبل أن تظهر عليه أعراض باقي الطواعين .

بالرغم ما كان يقوم به الأطباء من دور كبير في المجتمع لكنهم لم يسلموا من سهام الدهر القاتلة فقد أدى عجز الأطباء عن علاج السلطاان برسباي (825- 841 هـ / 1421 – 1437 م) في مرضه الذي مات فيه إلى الأمر بتوسيطهما وكان التوسيط [6] ، من أقصى أنواع العقوبات وأشنعها وهما الطبيب اليهودي الخضر الحكيم أحد الأطباء المشهورين والطبيب ابن العفيف الاسلمي رئيس الأطباء (ت 841 هـ/ 1437 م) بعد أن فشلت كل أنواع العلاج معه، فبدأت الوساوس يراود السلطان تجاههما لاسيما ، بعد أن كانت تسوء حالته مع كل دواء جديد يتناوله . [7]

---

(1) البيلوني ، خلاصة ما يحصل عليه ، ورقة 21 ، القرشي: شفاء القلب ، ق 30

(2) -السرمري ، ذكر الوباء والطاعون ،ص 109 ، ابن القيم ، زاد الميعاد ، ص 604 ، الطب النبوي ، ص 318 ، القرشي، شفاء القلب ، ق 30 ، ابن ابي حجلة ، دفع النقمة ، ق 43

(3) روبرت ، الموت الأسود ، ص 33

4 - المقريزي ، السلوك ، ج7، ص 205

5 - ابن حجر ، بذل الطاعون ، ص 95 ، ابن المبرد ، فنون المنون ، ص30

(6) -التوسيط، ووهي تثبيت المحكوم عليه بخشبة موضوعة على الأرض ثم بضرب بواسطة السيف تحت الصرة ضربة شديدة فينقسم الجسد الى نصفين ، هالة نواف الرفاعي السجون في العصر المملوكي ، جامعة الأردن ، 2008 ، ص 194 ، اسراء حسن فاضل ، أهل الذمة وأسهاماتهم الطبية في العصر المملوكي ، مجلة كلية التربية الأساسية، بابل 2019 ، العدد 43، ص 2225

(7) اسراء فاضل ، المصر السابق ، ص 2226

أما عن سبل الوقاية العامة التي نصح بها الأطباء وتحدث عنها علماء المسلمين ، وهي من سبل القضاء على التلوث البيئي، وفساد الهواء لتكون البئية النظيفة هي السلاح الأقوى في مواجهة الأمراض، وكان أهما تنظيف البيوت وإزالة القذورات منها، ثم رشها بالخل وتعطيرها بالرياحين، والتبخير بالصندل والكافور والخزامي وقشور الرمان والقسط، واستخدام بذور القطونا بخورا للقضاء على الروائح العفنة وفساد الهواء [1]، خاصة في أوقات الصباح والمساء ومنتصف الليل فهي الأوقات التي ينشط فيها الهواء[2]، حيث كانت تخرج روائح كريهة الموتى بالأوبئة على عكس المعتاد[3].

كما أرشد الأطباء إلى منع الإستحمام بالماء الحار، والتدليك الذي يعمل على فوران الدم ، ويخرج على الجسم في شكل أورام أوبثور كذلك تجنب اللعب، وكثرة الحركة أو التعرض للشمس، فيجب على الأنسان في أوقات انتشار الطاعون الركون إلى السكون والدعة، وتجنيب الأختلاط أو السفر من وإلى البلدان التي ينتشر بها الأمراض [4]، وقد تركت لنا كتابات من تحدثوا عن الأوبئة عدد من النصائح منها إصلاح الطعام والتهوية والإهتمام بالنظافة وتبخير المجالس بالبخوروالطيوب، وغيرها من الأعشاب التي تستخدم في التبخير، والحذر من الإصابة بمخالطة المرضى، وأو إستخدام متعلقاتهم ومجانبة الإختلاط بهم في المسكن والجوار [5]، وكما هو واضح فهذه فهذه أشياء يمكن توفرها للأغنياء أما عامة الناس الذين يعجزون عن توفير القوت اليومي فلا يمكنهم توفيرها مما يدفع بإرتفاع عدد الموتى من الفقراء والضعفاء كما أشبر إلى ذلك أعلاه

أما بالنسبة للعلاجات الروحانية والإيمانية فكان لها النصيب الوافر من كتابات من وضعوا كتبا أو رسائل خاصة بالأوبئة من غير الأطباء ،ووضح ابن حجلة في كتابة دفع النقمة في الصلاة على نبي الرحمة فائدة الصلاة على الرسول (عليه الصلاة والسلام) في دفع الطاعون، ولا يستطيع أحد أن يشكك في ذلك فقد نجى الكثير من مرضى الأوبئة باللجوء إلى الله

(1) - االمكرمي ، مايفعله الواعون ، ص 52 ، ، البسطاوي ، وصف الدواء ، ق14، العسقلاني ، ابن حجر ، بذل الطاعون ، ص 328 ابن سينا، القانون في الطب ، ، ، ج3 ، ص90

(2) - البيلوني ، خلاصة ما يحصل، ص25

(3) - المقريزي ، السلوك ، ج7 ، ص 205

(4) - السومري ، ذكر الوباء ، ص 111 ، ابن الخطيب ، مقنعة السائل ، ص 66 ، البيلوني ، خلاصة ما يحصل ، ص 21 ، ابن ابي حجلة ، دفع النقمة ، ق 56

(5) - ابن الخطيب ، مقنعة السائل ، ص 66 ، ابن حجر حجر بذل الطاعون ، ص 329 ، ابن حجلة ، دفع النقمة ، ق56

والتضرع له والصلاة على نبينا (صل الله عليه وسلم) ويرد ذلك على لسان كثير ممن نجوا من الأوبئة مثل القاضي جمال الدين يوسف صاحب مخطوط فنون المنون في الوباء والطاعون[1] ، لذلك كان الحكام كانوا يأمرون الناس بالصيام والتضرع إلى الله والإقلاع عن المعاصي، والصوم والصلاة والصدقة،وغيرها، فذكر بن بطوطة أن أهل دمشق خرجوا في يوم إلى الصحراء، المسلمون بقرآنهم والمسيحيون بإنجيلهم واليهود بتوراتهم، ومعهم نسائهم وأطفالهم وهم صائمون يتضرعون إلي الله برفع الوباء فقل الموت فيهم .

كما كان هناك من رجال الدين والفقهاء المسلمين الذى دعى إلى استخدام الدعاء أو آيات من القرآن الكريم تذاب في الماء ، وترش في أركان البيت دفعا للشيطان ، فقد ذكر البيروني أن تكتب سورة الصف في ورقة، ثم تذاب في ماء في قدر من النحاس وترش في البيت ، هذا بالإضافة إلى كتابة بعض من آيات القرآن الكريم، وتعلق على أبواب المنازل والحوانيت، وقراءة سورة البقرة فإن الشيطان يفرمن البيت التي تقرأ فيه [2] ، و استخدام قدر من السماق منقوع في ماء الورد مقروء عليه اسماء الله الحسنى ثلاث مرات ويتناوله من يخشى عليه من الإصابة بالطاعون ، وذلك لدفع الطاعون الذي هو راجع إلى وخز الشياطين ، ولذلك فهو ليس له علاج غير تجنب الشيطان ومداخله [3].

طرق العلاج في أوربا :

كان العلاج في أوربا العصور الوسطى معتمدا على نهج أرسطو من حيث الإقلال من الطعام ومدغه جيدا وعدم الشبع وملئ المعدة والنوم لساعات قليلة وتجنب النوم بعد الطعام والإبتعاد عن اللحوم، وتناول الأسماك خاصة كبيرة الحجم والألبان لانها تفسد وتتغير رائحتها في حين ينصح بتناول الخبزوالبيض والخضروات والفواكهة[4]، بالإضافة إلى الزنجبيل والقرنفل والفلفل [5]، فقد إعتمد جميع من من أشتغل بالطب في أوربا على نظرية أبقراط وهي الدرجات الأربع (الجاف والرطب والحر والبارد)[6]، فيجب أن يكون الغذاء بالتناسب حسب هذه القاعدة

---

[1] - ابن المبرد ، فنون المنون ، ص 15 /72

[2] الأنصاري ، تحفة الراغبين ، ورقة 5

[3] ابن المبرد ، فنون المنون ، ق 31 ، الانصاري ، تحفة الراغبين ، ق 35

[4] - روبرت ، الموت الأسود ، ص 179

(5)

Hecker , op,cit ,p 77

[6] - الخطابي محمد العربي، الأغذية والدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ،1990، ص33

تجنبا للأمراض، كذلك العلاج بالكي والإحتجام والتدليك والراحة والدفء للمرضى، وكان الإعتماء على الأعشاب شائعا والتمرينات المنتظمة، وقاية من الأمراض وقد أوصت بها أنا كومنينا، وكان يتم معالجة المرضى في مستشفيات ملحقة بأديرة النساء والرجال[1]، كما كانت النساء في المنازل تصنع الأدوية من الاعشاب التي تنمو في حديقة المنزل وتمزجها بالاطعمة، و تستخدم دهون الحيوانات في علاج بعض الأمراض ، خاصة دهن الخنزير الذي كان فاعلا في علاج الأورام [2] ، أما بالنسبة للأمراض المعدية كالطاعون ، والجذام ، فعرفوا العزل الصحي فكانوا يقومون بعزل المرضى عن الأصحاء فيما عرف (quarantine)[3]، أي الأربعينية بالاتينية، وهو نظام للحجر الصحي معروف لدى ابن سينا بالأربعيني، وهو حجز المريض بعيدا عن الأصحاء مدة أربعين يوما للتأكد من سلامته، وعدم خلوه من المرض، حيث أن كتاب ابن سينا القانون كان في أوربا بمثابة الوحي المقدس لا يجوز الخروج عليه [4] ، ولذلك كان هو المرجع الأساسي لأطباء أوربا في مواجهة الأمراض، ومنهم الطبيب الجراح جي دو شولياك الذي أصيب في الوباء الأسود نتيجة مخالطته للمرضى فقام بالإنعزال عن المجتمع ثم أخذ في علاج نفسه ، عن طريق الحجامة وسحب الدم الفاسد ،[5] مسجلا بذلك تجربته في النجاة من الوباء ، ومثبتا لفاعلية الحجامة في علاج الوباء ، كما كان للأطباء دور في الإرشاد إلى تطهير المدن من خلال إزالة النفايات من المدن وتنظيف مجاري المياه، وتوفير المياه الصحية [6].

وقد تشابهت طرق العلاج والوقاية من الوباء في المشرق، وأوربا ويبدوا أنها إنتقلت إلى أوربا عن طريق أطباء الأندلس وكتابات ابن سيناء ، فقد اتجه أهل العصر نحو الوقاية من الوباء بالعمل على إصلاح العناصر التي رأوها سببا لانتشاره وهي الهواء والماء والغذاء. فقد عملوا على إصلاح هواء البيوت باستعمال الطيوب الباردة والرياحين والفواكه ورش الخل وماء

---

(1) - وسام عبد العزيز ، دراسات في تاريخ الامبراطورية ، المنصورة ، 1982 ، ص 96

2 - ابن سينا ، القانون ، ج1، ص 683 ،

(3) - وهو ماخوذ عن ابن سينا أو ما عرف بوصايته بعزل المريض اربعين يوما حتى يتم التيقن من خلوه من المرض

4 - محمد بشيرالعامري، الإنجازات العلمية لأطباء الأندلس الأندلس وأثرها الحضاري على أوربا ، 2016 ، ص 408

5 - فاطمة الزهراء ، الوباء في أوربا ، ص 56 ، Hecker op,cit ,p 31

(6) - Elliott,op,cit,p14

الورد والتبخير بالطرفاء والصندل والعرعر وقرن الماعز وتعليق النارنج والبصل والنعناع والتفاح وتقوية التهوية بفتح نوافذ في الجهات التي لا يوجد بها وباء وشم الروائح الطيبة، وإشعال النيران في ضواحي العمران، واحترام الحمية التي تقوم على أغذية باردة وجافة (عدس- فول- بقول- فواكه جافة)، وخبز الحنطة المخمر والثوم والرمان الحامض وشرب أشربة مثل شراب البنفسج والطين الأرميني، وأكل الكزبرة والحصرم (عنب غير ناضج) والليمون وحامض الأترج وتجنب اللحوم والأسماك والألبان والمرق والفواكه الرطبة، والتزام الراحة والسكون والابتعاد عن الاستحمام إلا بالماء البارد.[1]

وللإعتقاد السائد في أوربا أن سبب الوباء هو غضب السماء لذلك انتشرت أمور بعيده عن الطب، والدواء فكانت الناس تلجأ إلى القديسين والكنائس طلبا للشفاء[2]، وعرف عن القديس سباستيان قدرته على شفاء الناس بروما في وباء عام 680م ، كذلك السيدة مريم العذراء التي كان يحمل البابا صورا لها في مسيرات تتجمع الناس من حوله في مسيرات حاشدة لدفع الهواء الفاسد فلم تعد تخلو كنيسة من صور العذراء وهي تحمي المسيحيين من أسهم الطاعون وعاد الأمر مرة أخرى في القرن الرابع عشر[3]، كذلك لجأ أهل مدينة مسينا الموبوءة إلى اسقف مدينة كتانيا ليحمل رفات القديسة أغاثا إلى المدينة لرفع الوباء عنهم لكن رفض أهل كتانيا الأمر وهددوه بالقتل فقام بتغسيل رفاة القديسة، وحمل الماء إلى أهل مسينا، وقام برشه على المرضى في المدينة ، ولم يمنع ذلك من انتشار الوباء أيضا في كتانيا.[4]

تعايش الشعوب مع الأوبئة والطواعين :

عززت ممارسات الشعوب أثناء انتشار الأوبئة التي اتصفت بعدم إتباعها لطرق الحجر الصحي من إنتقال الامراض وتركزها في محيط الدول الواقعة على البحر المتوسط، فكانت تمارس أنشطتها اليومية المعتادة بل وتقيم الإحتفالات، والزيارات في الأماكن العامة ، والأضرحة بهدف التبرك، ودرء مخاطر الاوبئة [5]، بالرغم من إشارة أطباء العرب والمسلمين لفاعلية العزل الصحي في القضاء على

(1) ابن المبرد ، فنون المنون ، ق 35 ،القرشي ، شفاء القلب ، ق31

(2) - هونكة ، شمس العرب ، ص 276

(3) - فاطمة الزهراء ، الطاعون في أوربا ، ص71

(4) - فاطمة الزهراء ،المرجع السابق ، 70 ، Stephanie Stephanie , op,cit ,p 6

(5) - السعداوي ، الطاعون في المغرب ، ص 11

الوباء، كما أن عادات الشعوب في تلك المدن مثل القاهرة و دمشق[1] ، وإعتمادهم على الطعام المطهي والمباع في الأسواق من عوامل انتشار الوباء ، فقلما نجد سكانهما يعتمدون في طعامهما على الطعام المطهي في المنازل[2]، كما كان هناك عادات إجتماعية أخرى أنتشرت في البلاد العربية ساعدت على نشر الطاعون مثل عيادة المرضى والسهر لتوديعهم، وتغسيل الموتى وتشييع الجنازات.[3]

ونتيجة لانتشار التفسير الديني للأوبئة فقد تعاطت الشعوب وحكوماتها مع الأوبئة من هذا الجانب في محاولة منها للقضاء عليه من خلال إنهاء أسبابه ، فتكثر أعمال البر والإحسان وفعل الخير والصدقات ويتم الحد من كل مظاهر الفساد بمهاجمة أوكار الفاسدين اللذين يتاجرون في الخمور والحشيش ، وتغلق أماكن البغاء والفواحش بل ويمنع النساء من الخروج لان بعضهن كن يخرجن سافرات ومتبرجات مما كان يشجع على انتشار الفواحش ، وذلك تقربا إلى الله لرفع الوباء، فقد فأغلقت الخمارات، ومنع البغاء، والفساد، والمعاصي، في حلب عام 841 هـ ، عندما انتشر الوباء فارتفع البلاء ففرح الناس وأعادوا فتح الخمارات، وعاد البغاء مرة أخرى من أجل ما هو مقرر عليهم من الضرائب فأصبحوا وقد عاد الوباء مرة أخرى[4]، وفي القاهرة التي كانت بؤرة للوباء بحيث أنه كان يتكررعلى سنوات متقاربة، ولا يقلع عنها إلا وقد أخذ معه عدد كبير من السكان ، لم تعرف أي من الإجراءات الصحية، وذلك تسليما من الناس بأن الوباء ليس له علاج إلا الألتجاء إلى الله ففي وباء عام 822 /1419م، نادى المحتسب في الناس بصوم ثلاث أيام ثم خرجوا مع السلطان المؤيد شيخ الذي ارتدى ملابس بسيطة من الصوف وشيوخ الصوفية والعلماء والفقهاء إلى الصحراء حاملين المصاحف سائلين الله أن يرفع عنهم البلاء ، لكن هذه الإجراءات بما تحمل من زيادة الإختلاط كانت من عوامل انتشار الوباء وزيادته.[5]

كما قام برسباي (825 / 1428– 842 هـ /1438م) في وباء عام 841/ 1437 م بالإفراج عن المسجونين من أرباب الجرام وأغلق السجون فأدى ذلك إلى انتشار

(1) – ليو الأفريقي ، وصف افريقيا ، ص 605

(2) - ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله اللواتي ت ٧٧٩ هـ ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة، ص 250

(3) – السعداوي ، الطاعون في المغرب ، ص 25

(4) المقريزي، السلوك ، ج 7، ص 347

(5) السعدي، الطاعون في المغرب ، ص21 ، ابن حجر ، ، بذل الطاعون ، 317

السرقة، والجرائم كما أكثر من الصدقات، وأعمال البر والإحسان[1]، ونودي في الناس بالإقلاع عن المعاصي وصيام ثلاث أيام، والخروج في اليوم الرابع إلى الصحراء للتضرع والدعاء، فتجمع الناس في اليوم الرابع خارج باب النصر وقام قاضي القضاء بالوعظ ثم بالدعاء فكثر ضجيج الرجال والنساء والأطفال بالبكاء لكن كثر الموت بعدها [2] ، ويمكن تفسير ذلك في ظل انتشار العدوى في التجمعات .

كما قام السلطان مؤيد شيخ بذبح مائة وخمسون كبشا بنفسه ، فضلا عن عشرة أبقار وجاموستين وجمليين وزعت على الفقراء ، بتوزيع الخبز على الفقراء ، هذا بالإضافة إلى عدد من الإجراءات الإقتصادية لتوفير السلع الغذائية ومحاربة الغلاء والإحتكار ومنع الضرائب والمكوس . [3]

ولم تقتصر أعمال الخير على دولة المماليك في مصر والشام لكن شهدتها أيضا بلاد المغرب والأندلس، فقام أهل مالقة بالأندلس بحمل أموالهم وممتلكاتهم من الذهب والفضة إلى القاضي ليتصدق بها يصلح بها شؤون العباد فقام بتوزيعها على الفقراء وطلاب العلم والغرباء وتجهيز وتكفين الموتى وإعداد القبور فنفع بها الاحياء والأموات وظل الناس زمانا هكذا حتى رفع الله الوباء[4]. فقد كان التقرب لله بأعمال الخير والصدقات هو من أولى الأمور التي تظهر بجلاء في تلك الفترات بل وتحري أن تكون تلك الصدقات من أفضل ما يملكه الإنسان ، مثل ذبح الكباش التي لها صفات الأضاحي، ويكون ثمنها حلال خالية من العيوب سليمة صحيا، والتصدق بلحومها على الفقراء[5]، فقد كان هناك يقين بأن الطاعون ليس له دواء، فقد أعجز الأطباء لذلك كان يحارب بأي من أنواع القربات لله تعالي والدعاء لرفعه، فقد جمع السلطان الأشرف برسباي أربعون شخصا من الأشراف، ووزع عليهم الأموال وأجلسهم بالجامع الأزهر لقراءة ماتيسر من القرآن من بعد صلاة الجمعة ثم قاموا للدعاء على أرجلهم حتى صلاة العصر فقاموا جميعا بالآذان ثم صلوا العصر ، وبعدها بدأ يتناقص الوباء بالقاهرة ، وقد أشار بعض العجم إلى أن

(1) المقريزي ، السلوك ، ج7 ، ص 350

(2) - المقريزي ، السلوك ، ج7 ، ص 204

(3) فتحي سالم ، الوباء واثره ، ص 12

(4) – ابن الخطيب، مقنعة السائل ، ص 75

(5) -البيلوني ، محمد بن فتح الله ت 1085 هـ ، مخطوط خلاصة ما يحصل عليه الساعون في أدوية دفع الوباء والطاعون ، مخطوط جامعة الملك سعود، رقم 5605 ، ق 7

ذلك أنه كان معمول به لديهم عند وقوع الوباء.[1]

بالرغم من أن البعض من رجال الدين قد إعترض على تلك الممارسات، وأعتبرها من البدع ، وأنه لا يجوز الدعاء بطلب دفع الطاعون لأنه رحمة وشهادة للمؤمن فلم يرد عن سيدنا عمر بن الخطاب عندما وقع الطاعون في عصره أنه شرع الدعاء كذلك عندما سأل سيدنا معاذ بن جبل في طاعون عمواس أن يدعوا الله برفع الوباء فرفض ودعى بالشهادة فيه فمات ابنه عبد الرحمن ومات هو من بعده [2] ، لكن خالفهم ابن حجر على مذهب الشافعي حيث يجوز الدعاء لرفع الأمراض والبلاء كذلك التداوي بالأدوية.[3]

وبالرغم من تحذيرات الأطباء بالإختلاط منعا لانتشار العدوى، فكان الناس تكثر من الزيارات لقوة الروابط العائلية ، إتباع الجنائز، أوالصلاة عليها، وتغسيل الميت، وكلها سلوكيات كانت تزيد من حجم البلوى، فقد واجه الناس الطاعون بإجراءات دينية، وإجتماعية، وطبية لم تكن قادرة على كبح جماح المرض بل كانت تسهم في زيادته خاصة بين الضعفاء، والفقراء، والنساء، والأطفال [4]، مع سرعة إنتقال الوباء، وانتشاره يكثر الموت حتى يبطل الحزن على من يموت، فكل انسان يوقن بموته فلا سبيل للنجاة ، فكل يستسلم لقدره ، فتخلو القرى والمدن من السكان وقد نالت الأوبئة قسط وافر من الأدب والشعرفقال الشاعر :

ربما ضر عاشق معشوقا
ومن البر ما يكون عقوقا [5]

وفي ذلك إشارة إلى انتقال العدوى من الإختلاط بل يدعوا إلى العقوق وعدم صلة الرحم في تلك الفترة وهو ما يدل على الوعي بفاعلية تجنب الإختلاط منعنا للعدوى .

ويبدوا أن التعامل مع المرضى والوباء في أوربا إختلف عنه في المشرق حبث اتسم بالهلع والخوف الشديد ، فكل خلق إنساني ضرب به عرض الحائط في سبيل النجاة من الوباء، فكان هناك حذر شديد من الإقتراب، والتعامل مع المرضى أو لمس متعلقاتهم الشخصية إلى الحد الذي يمنع حتى تقديم العون لهم، أو رعايتهم صحيا، بل كان يدفن بعضهم أحياء، فقد أحجم

(1) المقريزي ، السلوك ، ج 7 ، ص208

(2) - ابن نجيم : زين الدين بن ابراهيم المصري، رسالة في ضبط أهل النقل في خبر الفصل في حق الطاعون والوباء ، مخطوط جامعة الملك سعود ،رقم 5935 ، ورقة 7 ، ابن حجر ، بذل الطاعون ، ص90

(3) ابن حجر ، بذل الطاعون ، ص115

(4) - ابن الخطيب ، مقنعة السائل ، ص 74 ، السعداوي، الطاعون في المغرب ، ص21

(5) – ابن الخطيب ، المصدر السابق، ص 32

الأطباء عن مراجعة المرضى، وأعرض القساوسة عن الحضور لأخذ اعترافات المحتضرين[1]، بل أن أغلب الفقراء ومتوسطي الحال الذين كانوا يموتون في الوباء لايجدون من يقوم بدفنهم، ولايعلم أحد بموتهم إلى بعد أن تنتشر رائحة الجثث المتعفنه، وفي أحسن الأحوال فأنهم يخرجون الجثث من المنازل خوفا من العدوى ويلقونها أمامها حتى الصباح عسي أن يقوم أحد بحملها ودفنها، هذا بالإضافة إلى من كان يمرض لا يجد من يخدمه بل من الجائز أن يموت وحيدا فقد تركت المرأة زوجها والأب ابنة والأم أولادها، فكل شخص كان ينجو بنفسه بعيد عن من أصابة المرض ، فكان من الممكن أن يتم تقليل أعداد الموتى إذا وجد من يرعاهم في مرضهم [2] ، كما أمتنع الناس عن استخدام البضائع والسلع التجارية الآتية من الشرق بل وأكل الاسماك التي تاتي من البحار، وهجر الناس بعضهم البعض، وكثيرا ما كانت تلقى جثث الموتى خارج أسوار المدن لتنهشها الحيونات[3]

وقد أنقسم الناس في أوربا إلى ثلاث اقسام[4] في التعاطي مع الوباء فمنهم من كان يرى الغرق في الملذات وشرب الخمور والترويح عن النفس، والقيام بكل ما تهفوا إليه أنفسهم من متع الحياة هو أفضل الطرق للتعامل مع الوباء ، ومنهم من كان يرى أن الإعتدال في كل شيء في الأطعمة والأشربة وعدم الإفراط فيهما، والإعتكاف في منازلهم بعيد عن الإختلاط بالمجتمع ، ويمكن أن يكون هؤلاء قد اتبعوا نصائح ابقراط وجالينيوس وابن سينا التي وصلت لهم من المسلمين ، وصنف ثالث هجروا منازلهم وأملاكهم ومدنهم بحثا في الريف عن ملاذ آمن من الوباء ، ولم تنج طائفة وتهلك أخرى بل أن كل طائفة قد هلك منها جزء ، ونجى آخر [5]، كما درج الناس في أوربا أوربا على حمل الزهور والأعشاب ذات الروائح العطرية التي يشمونها من وقت لأخر بسبب رائحة العقاقير وزيادة الروائح الكريهة نتيجة لتعفن الجثث [6]

الآثار المترتبة على للأوبئة

حملت الأوبئة والطواعين عدد من التحولات الإجتماعية والإقتصادية في المشرق الإسلامي فكما سبق القول أنها لم

[1] - سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر ، عودة الموت الأسود ، ص 24

[2] - بوكاشيو ، الديكاميرون ، ص 43 ، سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر ، عودة الموت ، ص32

[3] – بوكاشيو ، المصدر السابق ، ص 45 ، فاطمة الزهراء ، وباء الطاعون، ص 64

[4] - سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر ، المرجع السابق ، ص28

[5] بوكاشيو ، الديكاميرون ، ص 42

[6] - روبرت ، الموت الأسود ، ص 131

تكن أمراض عادية ولكنها وقعت نتيجة لعوامل طبيعية ومناخية كانت تضر بكافة أشكال الحياة خاصة الإنسان الذي كان الضحية الأولى لهذه الأوبئة، وبإنهيار الإنسان كانت تنهار جوانب أخرى إقتصادية وعلمية وسياسية ، لذلك يصعب حصرها ولكن يمكن الإشارة إلى أهمها ، وأولها التغيرات في التركيبة السكانية فانتشار الوباء كان يقضي على عدد كبير من السكان خاصة الفقراء بسبب ضعف قدرتهم على شراء الدواء والغذاء بسبب إرتفاع أثمانهما في تلك الأوقات، كما خلت المدن والقرى من السكان ، فمات أصحاب الأملاك وأنتقلت إلى آخرون لا يستحقونها ، وفي القاهرة عصر المماليك وكانت إقطاعات الجند نتقل من شخص إلى أخر حتى تصل إلى الثامن في نفس اليوم ، إلى أن وصلت إلى الحرفين وأصحاب المهن كالخياطين ، والأسكافية ، فركبوا الخيول ولبسو الكلفتاه والقباء[1]، وفتغيرت مكونات الطبقات الإجتماعية، كما أدت الأوبئة التي إجتاحت مصر والشام في العصر المملوكي إلى ضعف الدولة حيث كان المماليك من الجنود السلطانية وأجناد الحلقة من أكثر ضحايا الأوبئة، و فقد ذكر برسباي في وصيته موته لمماليكه بطاعة ابنه مذكرا إياهم بأنه اشتراهم جميعا بعد موت أغلب المماليك السلطانية في وباء عام 833 هـ / 1430م [2]، كما ألقت الأوبئة على الحياة العلمية بظلالها، وذلك بإستيلاء المماليك على كثير من الأوقاف فتأثرت الحياة العلمية، وإشتد الحال بطلبة العلم والعلماء فأصبحوا من أفقر الناس، هذا بالإضافة إلى موت العلماء والفقهاء مما أثرعلى الحياة العلمية فخلت مناصب القضاء وحلقات العلم في المدارس من أصحابها، فيذكر المقريزي أنه في وباء 841 / 1437 م، أثناء صلاة الجمعة في الجامع الأزهر، وقد حضرها المقريزي أن خطيب الجامع جلس ليستريح بين الخطبتين والقارئ يقرأ جزءا من القرآن فتأخر الخطيب في القيام فصاح المؤذن مات الخطيب فهلع الناس وضج بعضهم بالبكاء ومنهم المقريزي،[3]، حينها قام الخطيب وقد أربكه ما حدث فتقدم إلى الصلاة دون الجهر بالقراءة فقال الناس لم تصح صلاة الجمعة، فتقدم آخرون وصلوا الظهر وأقامة جماعة بعدهم الجمعة وأخرى صلاة الظهر فكان في ذلك اليوم جمعتين

(1) المقريزي ، السلوك ، ج4 ، ص 89 ، ج 7 ، ص 208

[2] - المقريزي، المصدر السابق ، ج7، ص 208

(3) - فيبدوا أن في فترة الوباء كان ينتشر الموت السريع دون أعراض ولذلك توقع الناس موت الخطيب ، رغم أنه لم يكن يحمل أعراض الوباء

وصلاة الظهر مرتين وأنتشر أن ذلك علامة على زوال السلطان.[1]

وبالفعل مرض السلطان برسباي (825-841 هـ / 1421 – 1437 م)، وأشتد به المرض حتى يئس من شفائه وظن أن هناك تقصير من الأطباء فأمر بتوسيط أثنين منهما ورغم شفاعة الكثيرين لديه إلا أنه أصر على توسيطهما فكان ذلك من ابشع الأحداث وبعدها ثقل المرض على السلطان وأبنائه وحاشيته فمات من أولاده سبعة عشرا ولدا ما بين ذكور وإناث وسبع

عشرة محظية ومائة وستون جارية، ومن الطواشي والخدام مائة وستون ، ومن مماليك الطباق الآلاف وكان السلطان قد اشترى أغلبهم بعد موت الكثير من المماليك أيضا في وباء 833 هـ / 1430 م ، كما خلت الطباق من المماليك السلطانية في وباء عام 749 هـ /1348 م [2]، ، كذلك خلت القرى من الفلاحين، ونزل الأجناد لزراعة الأرض وجاء وقت الحصاد ونادوا على من يحصد الزروع ويأخذها نصف ما يحصد فلم يجدوا أحد [3]، كان يتبع الأوبئة فوضى سياسية تنخر في جسد المجتمع فقد استغل المماليك في وباء عام 833 هـ، وقاموا بالاعتداء على سكان القاهرة خاصة النساء بالإضافة إلى أعمال السلب والنهب [4]

ولكثر عدد الموتى وموت الورثة ، فكان في المعتاد أن يتم حصر المواريث لدى ناظر الخاص ليقوم بالتصرف فيها ، أما ما يخص أملاك اليهود والنصارى فكانت توكل إلى بطريك النصارى ورئيس اليهود للقيام بشأنها.[5]

أما على الجوانب الإقتصادية فكان أهمها إختفاء بعض الحرف والصناعات بموت أصحابها كذلك كساد الأسواق خاصة أسواق العبيد خاصة الإماء بسبب كثر الموت فيهم فكانت الناس تعزف عن شرائهم[6]، وكان أغلب الذين يقضون نحبهم في تلك الأوبئة هم الأطفال خاصة البنات فكادت تخلو البيوت من الأطفال فيظهرالخلل في التركيبة السكانية بموت جيل كامل من الأطفال[7]

وفي المغرب الإسلامي شهدت أيضا تغيرا ديمغرافي ظهر أثرها في المدن أكثر من المناطق الصحراوية حيث تأثرت الحرف والصناعات، بموت أصحابها ، أو فرارهم من الموت إلى المناطق الصحراوية، والريف مما أدى إلى أختفاء بعض الحرف

(1)- فتحي سالم ، وباء الطاعون وأثره ، ص 470

(2) - المقريزي ، السلوك ، ج7 ، ص 358 / 204 ، ج4 ، ص88

(3) ، المقريزي ، السلوك ، ج 4، ص 89

(4) - المقريزي ، السلوك ، ج7، ص 205

(5) - المقريزي ، السلوك ، ج 7 ، ص 350

(6) - المقريزي السلوك ، ج 7 ، ص 360

(7) المقريزي ، السلوك ، ج7 ، ص 360

والصناعات مما أدى إلى إرتفاع الأجور، وزيادة الأسعار و كساد الأسواق مما كان سببا في أن الأوبئة يتبعها الغلاء ، والجوع ويموت خلق آخرون بالجوع بعد أن يأكلوا الجيف والميتة في النهاية ، فتراجعت كثير من الصناعات والتي اشتهرت بها المغرب الأوسط خلال تلك الفترة كصناعة النسيج وصناعة الجلود، وحرف طحن الحبوب ، وتجفيف العنب والتين ، وهدمت مصانعها وخربت معالمها، وإنعدمت المنتجات الصناعية في الأسواق والحوانيت ، مما دفع بالسلطان أبا حمو موسى الثاني إلى الاستعانة بالحرفيين، والصناع الأندلسين خلال هذه الفترة، محاولة منه بعث النشاط الصناعي في دولته بعد أن أتت هذه الأوبئة على الكثير من الحرف والصناعات[1]، ومن أثاره السياسية على المغرب فشل حملة ابو الحسن المريني على المغرب حيث أرجع البعض أن تلك الحملة كانت وراء إنتقال المرض من إفريقية إلى المغرب [2]

أما في أوربا فقد شهدت تأثيرات عميقة ومباشرة ، بل وتعتبر تغييرات جذرية، فقد تناقص سكان الأمبراطورية الرومانية بشكل كبير بسبب وباء الطاعون الذي اجتاح الإمبرطورية في عام 542م ، الذي عرف بوباء جستنيان، والذي إنتشر في أسيا الصغرى، والبلقان، وشمال أفريقيا، وإيطاليا ، بسبب حركة القوات العسكرية بين الأقاليم الشرقية للامبراطورية ، فقد خلت مدينة ميلانو من السكان [3] ، وقد سبق ظهورالوباء زيادة القحط وانتشار الجوع فكان سببا في تراجع الرومان عن حملتهم على شمال ايطاليا [4]، وأودى بحياة الآلاف من السكان لذلك ترك جستنيان امبراطورية مترامية الأطراف، ولكنها منهكة القوى، وخرجت الولايات التي إستردها محطمة إقتصاديا صعب الحفاظ عليها، فقد أصبح توفير الحماية لها يتطلب عبئا إقتصاديا إضافيا فعجز خلفاءه عن تدبير الأموال الازمة لذلك [5]، وجعل البعض هذا الجائحة الطاعونية سبب في ضعف الامبراطورية البيزنطية أمام هجمات المسلمين بعد ذلك في فتوح الشام وأفريقيا [6].

---

(1) - خالد بلعربي ، آثار الأوبئة والمجاعات على تراجع الحرف والصناعات في المغرب الأوسط ، مخبر البحوث الإجتماعية والتاريخية، ع4، 2013 ، ص5

(2) - الأوبئة والمجاعات ن ص 226

(3) - وسام عبد العزيز فرج ، دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية ، ج1، ص 98 ، الغريب أن هذه المدينة نجت من وباء القرن الرابع عشر ، سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر ، المرجع السابق ، ص 37

(4) - J.b. Bury, the history of later roman , p 66 / 110

(5) - وسام عبد العزيز ، المرجع السابق، ص 130

(6) - روبرت ، الموت الأسود، ص 41

أما في القرن الرابع عشر الميلادي الذي أوقفت الكوارث والأوبئة تقدمه، التي أكتنفته بدءا من المجاعات المخيفة التي ألقت الخراب على أوربا في الفترة مابين عام 1315 إلى عام 1317م، والتي خلفتها تغيرات مناخية عام 1315 بهطول أمطار طوفانية وحدوث فياضانات اتلفت المحاصيل الزراعية، وحطمت الجسور والمباني وتعفنت الحبوب وخربت الغلال المخزنة، واستمرت تلك التغيرات المناخية حتى عام 1322 وقد سببت خراب عظيما ومجاعة كبيرة مات فيها عدد كبير من السكان[1] ، ثم جاء الوباء (الموت الأسود) ما بين عام 1347 إلى عام 1351م ، مات به ثلث سكان العالم [2]، ثم تبعه غلاء شديد ، هذا بالإضافة إلى الأضطرابات السياسية التي مزقت ايطاليا خلال حروب أهلية، والفوضى السياسية في ألمانيا وحرب المائة عام بين فرنسا وانجلترا 1337-1453 م [3]،

فقدت أوربا ما يقرب من ثلث سكانها ، هذا علاوة على تغيرات إجتماعية وإقتصادية كبيرة، إضافة إلى تغييرات أخرى دينية وسياسية أتصلت بمكانة الكنيسة ورجالها و كذلك شملت تلك التغيرات النظم الإقتصادية القديمة من الإقطاعيين والنبلاء الذين كانوا في موقع الصدارة من خلال استحوازهم على السلطة والأموال، وجدوا أنفسهم في مواجهة الفلاحين والطبقة الوسطى من التجار والصناع الذين انتعشت أحوالهم من خلال إتجارهم في السلع الصناعية والزراعية، كما أدى نقص عدد السكان في وأوربا إلى رفع قيمة أجرة الفلاحين الأحرار والعمال الذين يعملون بالتعاقد، لذلك عمد الحكام على ربط الفلاح بالأرض التي يعملون عليها وزيادة سلطة الإقطاعين حيث شهد هذا القرن نزاع بين الدولة والملاك الأرستقراطين[4]

وقد أدت هذه الأحداث إلى تغييرات كبيرة في أوربا فقد بدأ تحرير الفلاحين و الطاقات والقوى العاملة وبدأ ظهور فاعليتها في المجتمع الاوربي، بالرغم من أستمرارالسخرة، حيث بدأ الفلاحون

(1) - سعيد عبد الفتاح عاشور ، بحوث في تاريخ أوربا العصور الوسطى ، دار الأحد بيروت ، 1977 ، ص 90 ، فاطمة الزهراء ، وباء الطاعون ، ص24

(2) - في حين قدر السيوطي ان من مات في هذا الوباء نصف سكان العالم أويزيد ، السيوطي ، مارواه الواعون ، ص 14

(3) - هنري بيرين ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ترجمة عطية القوصي ، الهيئة المصرية للكتاب ، 1999 ، ص 186/185 Elliott,op,ct,p8

(4) - نورمان بينز ، الأمبراطورية البيزنطية ،تعريب، حسين مؤنس، لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، 1950 ، ص 138/129

يضجون من الخدمات المطلوبة منهم من قبل الإقطاعيين والرهبان بسسب إرتفاع الأجور، ومطالبتهم بزيادة الخدمات على الفلاحين، والتي أدت إلى ثورة الفلاحين في انجلترا عام 1381م ، ضد الإقطاعيين وضد الأديرة مطالبينها بتوزيع ريعها على الناس [1] ، بعد أن خلى الريف من سكانه ولم تجد الأرض الزراعية من يقوم على زراعتها[2]، ولم يكن الوضع في المدن أفضل حالا عن الريف، رغم تمتع العمال والحرفيين بقدرمن الاستقلال، كما ظهرت طبقة البرجوازيين من التجار والصناع التي قامت بالتأسيس لبعض النظم الإقتصادية، وعملت على ثبات الأسواق وتوفير المال الازم لنهضة المجتمع ، كذلك في فرنسا قامت ثورة شعبية ضد النبلاء عام 1357.[3]

كما تدنت مكانة الكنيسة ورجالها في أوربا نظرا لضعفهم في مواجهة الوباء بل جعله البعض نهاية للعصور الوسطى نظرا لتلك التغيرات التي أحدثها الوباء في النظام الديمغرافي في أوربا، بحيث يمكن ربط ذلك بظهور حركة الإصلاح الديني، والنهضة التي شهدتها أوربا، وبذلك كان الموت الأسود كما أسمته أوربا بكل ما حمل من عوامل قد أسرع من وتيرة التغيير وأعطى القوة للشعوب لتقدم على القيام بكل التداعيات التي أوصلت أوربا لعصر النهضة سريعا .[4]،

كما أضطرت الكنيسة مع إنخفاض عدد السكان، وموت كثير من رجال الدين أن تتنازل عن بعض من المعايير القديمة لتعيين رجال الدين، مثل المستوى العلمي والأخلاقي فلحق بالكنيسة رجال ليسوا مؤهلين علميا، ولديهم تدني في الأخلاق والطمع وقلة الورع، مما أدى إلى ظهور حركات الإصلاح الديني المطالبة بإصلاح الكنيسة ، وتغيرت نظريات الطب القائمة في العصور الوسطى إلى نظريات اخرى حديثة، وإنتهى عصر الإعتماد على كتابات جالينوس، وأبقراط ، وابن سينا وغيرهم ممن برعوا في الطب لأن كتابتهم لم تعد كافية للقضاء على الأوبئة[5]

وكانت الأوبئة ذريعة لإضطهاد اليهود في أوربا حيث اتهم اليهود بأنهم وراء تسمم الآبار وفساد الهواد وبدأت تقام ضدهم المذابح في ألمانيا، وفتك بهم المسيحيون وألقوا بالآلاف منهم في المحارق دون تفرقة، ورغم ذلك ثبت اليهود فكانت النساء ترمى

(1) - هنري ، تاريخ العصور الوسطى ، 187

(2) - فاطمة الزهراء ، المصر السابق ، ص 72

[3] روبرت ، الموت الأسود ، ص 56

(4) - روبرت ، الموت الأسود ، ص 21/20

(5) – المرجع السابق ، ص 165، ج.هـ.هرتس ، في الفكر اليهودي، ترجمة ألفريد يلوز، دار مجلتي ، ص 125

بأطفالهن في النار خوفا من تعميدهم، ثم يلقين بأنفسهن مع أطفالهن وأزواجهن في النار[1]، الجدير بالذكر أنه تم تبرئة اليهود من تلك التهم بعد ذلك حيث ثبت أنهم كانوا يشربون من نفس الآبار ، كما أن عدد كبير منهم قد أصابه الطاعون ونودى بعدم التعرض لليهود وحمايتهم في فرنسا ، ولكن لم ينتهي الأمر في ألمانيا حيث ظل بعض المتطرفين يبطشون باليهود، أما في سويسرا فقد صدر قرار بنفي اليهود جميعا الموجودون في زيورخ، وفي بال، ثم جمع اليهود في جزيرة في نهر الراين، وتم التضحية بهم جميعا ، بل واقيمت لهم المحارق التي أتت على الفين منهم في مدينة شتراسبورج ، واقيمت مذابح لليهود في أنحاء أوربا خاصة أوربا الشرقية حول حول بحر البلطيق قضت هذه المذابح على تجمعات اليهود واضطرت المتبقي منهم إلى الهجرة لروسيا وبولندا[2]

الخاتمة

أرجعت كتابات المسلمين انتشار الأوبئة إلى عوامل عدة أهمها هو فساد الهواء، وما يحمله الهواء من مسببات للأمراض، وهو إشارة منهم إلى أن المرض ينتقل بالتنفس لا بوسيلة أخرى ، وهو ما أثبته العلم الحديث ، وتم حصر أهم العوامل المؤدية إلى تلوث الهوا والبيئة والتي تكون وراء الأمراض بصفة عامة ومنها الأوبئة ، أولا: **العوامل الطبيعية** كالزلازل والبراكين والتي ارتبط وقوعاها ببعض الأوبئة وسبب ذلك أبخرة تخرج من باطن الأرض تكون سبب في تلوث الهواء كذلك الفياضانات وما يعقبها من فساد للزروع ومخازن الغلال ، فيكثر الموتى سواء بسبب الفيضانات أو بسبب المجاعات التي تعقب الفيضانات ، كذلك سنوات القحط والجفاف التي يكون لها نفس نتائج الفيضانات من كثرة الموتى من الحيوان والإنسان فتجيف الجثث وينتج عنها تلوث الهوا الذي يصل إلى مجاري المياه والآبار والتربة وتصبح البيئة ملوثة بالكامل، حتى يصل التلوث إلى النباتات ومن يتغذى عليها فتظهر الأمراضكما كان الموقع الجغرافي أيضا من أسباب جعل بعض المدن الساحلية من وبيئة ، ثانيا: **عوامل أخرى فلكية** أو سماوية كما سمتها المصادر كإقتران كوكب المريخ وزحل والمشترى أو سقوط الشهب

---

(1) - روبرت ، الموت الأسود ، ص122 ،سكوت، سوزان ، دنكان، كريستوفر، المرجع السابق ، ص34 ، Hecker , epidemic ,p 61

(2) - روبرت ، المصدر السايق ، ص123 Hecker , op, cit ,p 63

والنجوم على الأرض وما تحمله من أشعة ضارة كذلك تأثير بعض النجوم كنجم الثريا، كما أشارت المصادر إلى فترة تغيرات الفصول وما تحمله من تغير في درجات الحرارة والرطوبة أو تغير مناخ الفصول كأن يأتي المطر في الصيف أو لا يكون الربيع معتدلا كعادته.

ثالثا :**عوامل بشرية** تتسبب في فساد الهواء مثل تلوث المدن بالنفايات والفضلات ، والإزدحام السكاني في المدن التي جعلت منها مدن وبيئة كالقاهرة ودمشق ، كما ربطوا بين الحروب والأوبئة مثل الغزو المغولي لبغداد والذي خلفه وباء وصل إلى الشام ، كذلك فترة الحروب الصليبية ، وهي فترة شهدت الكثير من الأوبئة

أما بالنسبة لطرق العلاج التي استخدمها أطباء المسلمين في علاج المرضى نجد تقدما كبيرا في أساليب العلاج والتي تضاهي ما يستخدم الآن في علاج أمراض مشابهة فإن كثير من طرق العلاج والوقاية التي تحدث عنها علماء المسلمين ، والتي تتمحور أغلبها في التغلب على الأوبئة بزيادة المناعة الذاتية للإنسان وهي أفضل الطرق لمواجهة الأوبئة ، ثم طرق طرق العلاج والتي ذكر مدى فاعليتها في علاج الطاعون الدبلي هو الفصد والشق الذي هو إخراج الدم، ولكن جعلوه للمريض القادر على تحمل ذلك وليس لديه إسهال أو قيء ، ولا يكون في كل الأعضاء ولكن للأعضاء البعيدة عن أماكن الموت مثل الرقبة والقلب، ولم يكن ينصح به مع النساء والأطفال، أما فيما يتعلق بعلاج والطاعون الرئوي أو ما أسموه أطباء المسلمين بالحمى الوبائية ، فجلو الترياق، وهو مكون من عدة أدوية مخلوطة بلحم الأفاعي من الأدوية الفاعلة في علاج الوباء ، كذلك استخدام الدهان مثل دهن الورد أو دهن الآسن ودهن البنفسج بدهن الصدر عدة مرات وقد أجمع الأطباء على فاعلية في علاج الوباء لكل من استخدمه ، ومن الأدوية الفاعلة أيضا أقراص الكافور في الصباح قبل تناول الإفطار ، ومن المعلوم أن الكافور يستخدم الآن في علاج أمراض الرئة بعدة أشكال ، كذلك الضمادات بالماء البارد المنقوع به أعشاب كالكافور والصندل والسماق حتى تنخفض حرارة المريض أما عن طرق الوقاية فتكون بإصلاح الهواء والبيئة بالتبخير والتعطير للمنازل والبيوت المصابة وتنظيف المياه والآبار،و عزل المرضى وإجتناب التعامل مع المرضى ولكن لم يكن هذا الوعي كافيا لحمل للتقليل من حجم الخسائر التي خلفتها ، فكان تعامل الشعوب معها بشكل مختلف بل أنه في

بعض الأوقات عزز من انتشار الوباء ، هذا بالإضافة إلى الفراغ السياسي من قبل الدول في التعامل مع تلك الأزمات فيما يتعلق بتقديم العلاج للمرضى، أو فرض إجراءات صارمة للحد من انتشار الوباء، وقد تعاطت الشعوب في مصر والشام والمغرب الإسلامي وأوربا مع الأوبئة المتكررة بشكل أساسي ومجمع عليه أنها عقاب من الله للبشر على ما أقترفوه من ذنوب وآثام ، وهي دعوة للإقلاع عن تلك المسببات ، ولذلك لا نجدها لا تتفاعل كثيرا مع الأسباب الطبية سواء في طرق العلاج أو في الوقاية من المرض ، وهو ما كان يزيد من حجم الكارثة ، ويأتي على عمران مدن وقرى بأكملها .

كان العلاج في أوربا معتمدا على نهج أرسطو من حيث الإقلال من الطعام ومدغه جيدا وعدم الشبع وملئ المعدة والنوم لساعات قليلة وتجنب النوم بعد الطعام والإبتعاد عن اللحوم تناول الأسماك خاصة كبيرة الحجم ، والألبان لأنها تفسد وتتغير رائحتها في حين ينصح بتناول الخبز ،والبيض ، والخضروات ،والفواكهة ، بالإضافة إلى الزنجبيل ، والقرنفل، والفلفل اعتمد جميع من أشتغل بالطب في أوربا على نظرية أبقراط الدرجات الأربع (الجاف والرطب والحر والبارد) فيجب أن يكون الغذاء بالتناسب حسب هذه القاعدة تجنبا للأمراض ، بالإضافة إلى ما ادلى به الطبيب جي دو شولياك من تجربته ونجاته من الوباء ،خلفت هذه الطواعين في المشرق والمغرب وأوربا تغيرات إجتماعية إقتصادية كبيرة ، إضافة إلى تغييرات أخرى دينية وسياسية في أوربا أتصلت بمكانة الكنيسة ورجالها و كذلك شملت تلك التغيرات النظم الإقتصادية القديمة من الإقطاعيين والنبلاء الذين كانوا في موقع الصدارة من خلال استحوازهم على السطلة والأموال، وجدوا أنفسهم في مواجهة الفلاحين والطبقة الوسطى من التجار والصناع الذين انتعشت أحوالهم ، كما تدنت مكانة الكنيسة، ورجالها في أوربا نظرا لضعفهم في مواجهة الوباء بل جعله البعض نهاية للعصور الوسطى نظرا لتلك التغيرات التي أحدثها الوباء في النظام الديمغرافي في أوربا بحيث يمكن ربط ذلك بظهور حركة الإصلاح الديني في أوربا.

عنوان المداخلة : تمثلات الأوبئة والأمراض في المخيال الإغريقي القديم من خلال الكتابات الأدبية القديمة .

فتيحة غديري

طالبة دكتوراه تاريخ بلاد المغرب القديم/جامعة الشهيد حمّه لخضر الوادي - الجزائر-

ملخص :

تأتي هذه المداخلة لتسلط الضوء على المنظور القديم للأوبئة والأمراض في المجتمعات القديمة وتمثلات الأمراض والأوبئة في المخيال الإغريقي القديم ، حيث تنقسم التمثلات الى تمثلات غيبية سببها إلهي حيث ورد في إلياذة هوميروس أن أبوللون إله الطاعون توعد الآخيين بالوباء بسبب اختطاف ابنة كاهنه فهرع الآخيون للتقرب من أبوللون بتقديم القرابين.

أما التمثلات السياسية فتصور سوء تصرف الحكام والقادة المتسبب في انتشار الأوبئة في المدن والممالك ، ورد لدى الشاعر سوفيلكس في مسرحية "أوديب" الملك الذي يحاول إيجاد تفسير للطاعون المنتشر بمدينة طيبة فيتوصل إلى أنه هو المتسبب في طاعون المدينة، واتهم سكان أثينا الزعيم السياسي بركليس أنه سبب مصائبهم أثناء الطاعون الأثيني.

في حين تجلت تمثلات النخبة المثقفة في آراء المفكرين الإغريق القدامى حول الأوبئة والطواعين وهي نظرة علمية بعيدة عن الأساطير ومخاوف الجماعات من

المجهول، وعلى سبيل المثال يصف المؤرخ والسياسي ثيوكوديدس بعض المشاهد التاريخية والسياسية للحالة الوبائية في أثينا.

الكلمات المفتاحية : الأوبئة ، المفكرين الإغريق ، التمثلات ، المخيال، المجتمع الإغريقي .

abstract:

This intervention comes to shed light on the old vision of epidemics in ancient societies and Representations of diseases and epidemics in the ancient Greek imagination, where the representations are divided into metaphysical representations caused by the Gods as it was stated in the Iliad Homer that the plague god vowed to the epidemic because of the kidnapping of the daughter of his priest, so the Achaeans rushed to approve of Apoll presenting offering.

As for political representations, because of the misconduct of rulers and leaders, diseases and epidemics are resolved by cities and kingdoms, as was mentioned by the poet Sofelex in the play "Oedipus king", who is trying to find an explanation for the widespread plague in the city of Theba city, and the inhabitants of Athens accused

the political leader Percles of causing their misfortunes during the Athenian plague.

While the representations of the elite intellectuals, they are represented by the opinions of the ancient Greek thinkers about the epidemics and the plagues, which is a scientific view far from the myths and And the the society fears of the unknown. For example Thucydide who describes the epidemiological situation of Athenian society .

مقدمــة:

الأمراض والأوبئة ظاهرة قديمة قدم الإنسان ، وقد نظر إليها كقوى مجهولة المصدر قوية ومميتة ، فوقف عاجزا أمام فتكها ، لذلك يلجأ الى التفسير اللاهوتي هذا التفسير المطمئن عند رد الظواهر التي لا يمكن تفسيرها حسيا وماديا الى الإرادة الإلهية والقوى الغيبية، سيكون العلاج بالتقرب من الآلهة بالقرابين والتعاويذ السحرية ليحدث الشفاء.

وقد تمسكت شعوب الشرق القديم بالتمثل الديني للأوبئة والأمراض، حيث فسرت حدوثها على أنه عقاب إلهي أو انتقام قوى غيبية ، فسار العلاج الطبي المادي جنبا إلى جنب والعلاج الكهنوتي والسحري ، ولكن المتخيل الإغريقي اختلفت نظرته للأوبئة والأمراض عما يدور بالشرق القديم، ويعود ذلك الى خصوصية

المنظومة الدينية غير الموحدة في بلاد الإغريق مثل دويلات المدن التي لم تعرف الوحدة السياسية ، وكذلك تطور الفكر الفلسفي كنمط فكري يبحث في أصل الظواهر وحقيقتها الأمر الذي أدى الى انفصال العلوم البحتة عن الدين والسحر ، وتنوعت تمثلات الأمراض والأوبئة في المتخيل الإغريقي وفقا لمصادر القيم التي تشبعت بها الشعوب الإغريقية بين الأسطورة ، الدين، الفلسفة والعلم .

إشكالية المداخلة : كيف نظر القدامى للأوبئة والأمراض وفيما انحصرت تمثلات الأوبئة والأمراض في المتخيل الإغريقي؟

المناهج المتبعة : للإجابة على الإشكالية المطروحة تم الاعتماد على المنهج التاريخي لأنه الأنسب لوصف الأحداث التاريخية والتعليق عليها، الى جانب المنهج التاريخي التحليلي لتعليل الأحداث والحقائق التاريخية .

هدف المداخلة : وقع اختياري على هذا الموضوع بسبب الشبه الكبير بين تمثلات المجتمع الإغريقي للأوبئة والأمراض وتمثلات المجتمعات المعاصرة في زمن الكورونا (كوفيد 19) ، حيث عرف الإغريق انفصال العلوم عن الدين ، نشأة الفلسفة كنمط فكري يبحث عن الحقائق الكاملة ، وانكماش التفسير الديني للظواهر الطبيعية ، الى جانب الحياة السياسية الديمقراطية في أثينا التي شجعت المحاورات والمناظرات العلمية والفلسفية التي ساهمت في إثراء المتخيل الإغريقي ، وهي تقريبا نفس ظروف

التنوع الفكري والعلمي الذي تعيشه المجتمعات المعاصرة المؤثرة في تفسير ظاهرة انتشار الفيروس التاجي ، حسب كل شريحة اجتماعية وتوجهها العقدي والسياسي وتصنيفها العلمي والثقافي.

1- الأوبئة والأمراض في العالم القديم :

إن أولى الحضارات التي قامت على الأرض نشأت بالشرق، واصطبغت بسيمة التدين، فالدين هو المسيطر على كافة مناحي الحياة وهو المرجعية الأولى لتفسير كل الظواهر الطبيعية التي تحيط بالأشخاص ولا يعرف لها سببا ماديا ظاهرا ومحسوسا[1]، والأوبئة واحدة من هذه الظواهر التي لم يعرف لها الإنسان سببا أو تفسيرا حسيا ملموسا لذلك اعتقد أن أسبابها إرادة الآلهة والقوى غير المرئية التي تنفذ رغباتها، فتتفوق على الإنسان بقوتها فتتحكم في حياته وبالذكاء يتم إخضاعه لسلطتها فتفقده صحته وقوته، لذلك لا يخرج العلاج من جدران المعابد وأيدي الكهنة، كما يتم اللجوء الى الساحر والعراف القادرين على تفسير الغامض وكشف المستتر[2].

---

[1]- أسامة عدنان يحي، السحر والطب في الحضارات القديمة (بغداد: أشوربانيبال للكتاب، 2015)، ص 21.

2- محمد نزار خوام ومحمد عفت عبد الله، تاريخ العلاج والدواء في العصور القديمة العصر الإسلامي – عصر النهضة في أوروبا (الرياض: دار المريخ للنشر،1999)، ص 18.

والى جانب الكاهن المتمكن من معرفة أسباب الأمراض وعلاجها عن طريق تلاوة التعاويذ، وتعليق التمائم على جسد المريض، السحر والسحرة الذين بإمكانهم الغوص في الماورائيات واكتشاف العلل ووصف العلاج[1]، ففي بلاد مابين النهرين يعتبر الوباء عقابا إلهيا على المعصية التي يقدم عليها الناس ضد الآلهة، وتجسد ملحمة اتراخاسيس فكرة تسليط الأوبئة على البشر بسبب أفعالهم المنكرة من طرف الآلهة عندما تكاثر البشر بصورة رهيبة وعمت الفوضى في حياتهم[2]، هذه الفوضى والضجيج اللذين أقلقا راحة أنليل فراح يستدعي الآلهة لتسلط الأوبئة والكوارث على البشر :

"أجل لقد سمع أنليل ضجيجهم
(فقال مخاطبا) الآلهة العظام
لقد أصبح صخب البشر شديدا
علي وقد حرمني ضجيجهم من
النوم فلنأمر بالوباء (ينشر بين
الناس)[3]"

ومثلما يحل العقاب الإلهي على العامة، فإنه يصيب الملوك والحكام وقادة الجيوش اذا ما نكثوا العقود والعهود، فخلال إبرام الملك الآشوري أسرحدون (681-368 ق.م) معاهدة ولاية العرش لولديه أشوربانيبال وشمش شوم أوكين ، تضمنت

[1] - كمال السيد ، مترجم، *الطب في زمن الفراعنة* لبرونو أليوا (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2000)، ص 20.

2- أسامة عدنان يحي، السحر والطب، 26.

3- فاضل عبد الواحد علي، الطوفان في المراجع المسمارية(بغداد: مطبعة الإخلاص، 1975)، ص 139.

المعاهدة عبارة مفادها أنه من ينقض المعاهدة سوف يجعل الإله نركال يسلط عليه الطاعون، وعندما تمرد أوتع عن أشوربنيبال انتشر طاعون الإله ايررا -إله القتال- بين جنده[1].

وجاء في النصوص المسمارية أن عقاب التمرد على الملك الشرعي يكون صاحبه عرضة للوباء، فعندما تمرد شمش شوم أوككين على شرعية أخيه أشوربانيبال في 652 ق.م ورد في أحد النصوص: " الى ذلك الذي دبر الشر ضد أشوربانيبال وأثار العداء عليه ...سوف ينزل عليه الموت ... ويتفشى وباء الطاعون"[2].

وفي مصر القديمة كان الطب يسير جنبا الى جنب والسحر، فكان الأطباء يدرسون السحر والطب في دور الحياة[3]، إذ أن لكل مرض أعراض ظاهرية تعالج وتداوي بوصفات الأطباء، وأسباب أخرى غامضة غير محسوسة لا يمكن علاجها إلا بالسحر وأحيانا يصاحب العلاج بالدواء التعاويذ السحرية، وحمل الطبيب اسم سينو (Sinu)[4]، وقد حمل الساحر في مصر القديمة لقب (حريوتب) ويعني متصدر الجميع،وكذلك (خري حبت) وتعني الكاهن

1- أسامة عدنان يحي، السحر والطب، 30-31.

2- المرجع السابق .

3- ابتسام محمد عبد المجيد، مترجم، *الطب عند الفراعنة* كرستيانو داليو (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2013)، 74 .

4- فاطمة عبد الله محمود ، مترجم، *السحر والسحرة عند الفراعنة* لايفان كونج (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999)، 27 – 30.

المرتل،ومن أشهر السحرة في مصر الذين عثر في بردية "وستكار" على اسميهما هما الساحرين "ديدي" و"جاجا أم عنخ" اللذين يمارسان مداواة الأمراض الى جانب الأطباء ويَقُون من الشرور التي تنسب الى الإلهة سيخمت إلهة الأوبئة والأمراض والحرب، التي تمثلها إمرأة برأس لبؤة، ينتسب اليها السحرة والكهنة والأطباء ويطلق عليهم "سخمت واب" بمعنى كهنة الإلهة سخمت،ويسجل نص من سيرة "جتنوب" يعود الى الإمبراطورية الوسطى " أنا كاهن أواب لسخمت خبير في وظائفي، يضع يده على الرجل المريض ويعرف مرضه"[1] ، كما يحاول الكهنة والسحرة تهدئة الإلهة سخمت وتحويلها الى الإله باستت الوديع وتعتبر الأمراض المختلفة بما فيها الأوبئة والطواعين نفثات تطلقها الإلهة سخمت ، كما كانت لها قدرة على الشفاء كقدرتها على نشر الأمراض والطواعين وهي رياح الصحراء العاصفة التي تحمل الجفاف والوباء[2].

ومن الأمراض المعدية التي ذكرتها البرديات نجد اشارة في بردية الجراح الى داء الكزّاز (التيتانوس)، والدرن أو السل الذي أشير له في بردية أيبريس وهو عبارة عن تورم للغدد اللمفاوية، أما الطاعون فهو غامض في البرديات رغم ما ذكرته الفقرة 847 من بردية ايبرس التي تشير الى وباء يصيب الغدد اللمفاوية كما

1- كمال السيد ، *الطب في زمن الفراعنة*، 21.

2 - ابتسام محمد عبد المجيد ، *الطب عند الفراعنة*، 78.

تذكر الترانيم السحرية التي تعالجه، وتحمل قصة سنوحي طريقة انتقال الطاعون عن طريق لسعات الحشرات للإنسان[1].

ولا يختلف سبب الأوبئة في بلاد الحيثيين عن مصر وبلاد ما بين النهرين، فالإله ياريس (Yarris) هو إله الأوبئة، وعندما انتشر الطاعون في المملكة الحيثية في عهد ملكها مورسيلس الثاني (1321-1295 ق.م) نادى في الآلهة قائلا: " أيتها الآلهة، ماهذا الذي فعلتموه؟ لقد تركتم الطاعون يدخل، أرض خاتي كلها تموت"[2].

وتحمل أسفار التوراة المعتقد نفسه الذي يرى أن غضب الله على البشر يجلب الأوبئة والأمراض التي تنتشر بينهم، فتقضي على الكثير منهم كما هو مبين في سفر عاموس: " أرسلت بينكم وباء على طريقة مصر ... أصعدت نتن محالكم حتى الى أنوفكم فلم ترجعوا اليّ"[3]

رغم معرفة الشعوب الشرقية القديمة بالطب والعلاج بالأدوية المادية، لكن لم تستغن عن السحر والكهنوت كعلاجات مكملة للعلاج المادي، وظل تصور وتفسير ظهور الأوبئة وانتشارها مرتبطا بإرادة الآلهة التي تعاقب البشر على الخطايا التي يرتكبوها.

أما في بلاد الإغريق، فتعتبر المنظومة الدينية من أعقد الديانات في العالم القديم، حيث خضع الفكر الديني للعديد من المؤثرات أولا وقوعه تحت طائلة الأساطير التي زادت من غموضه،

1 - المرجع السابق، 116-117.

2 - أسامة عدنان يحي، السحر والطب، 43.

3 - التوراة. عاموس: 4 – 10.

ثانيا الكثير من الآلهة الإغريقية جلبت من خارج بلاد الإغريق[1] - من ليبيا القديمة وغيرها- كَيَفَها الإنسان الإغريقي وفق أطره الحضارية والنفسية لكنها ليست موحدة مثلها مثل دويلات المدن الإغريقية، ثم أدى ظهور الفلسفة كنمط فكري يبحث عن الحقائق الكاملة بعيدا عن الأسطورة والماورائيات الى استبعاد التفسير الأسطوري والتدخل الإلهي في الظواهر الطبيعية والشؤون العامة للمجتمع الإغريقي، ورغم أن الفلسفة عملت على تنقيح الفكر الديني من الغموض الأسطوري، فقد ظهر الهراطقة الذين ينكرون وجود الآلهة أو حتى يتجاهلونها[2].

ومن جهة أخرى انعكس الفكر الفلسفي على تصور وتفسير الظواهر الطبيعية المختلفة التي يحاول الإنسان إدراكها ، وهي بداية نشأة العلوم البحتة منذ القرن السادس قبل الميلاد ، كآراء انكساغوراس المبكرة بأن الشمس مجموعة حجارة ملتهبة بينما لا تزال الشمس في المتخيل الإغريقي إلها من الآلهة المقدسة[3]. وقس على ذلك في مجال الطب حيث برز أشهر أطباء الإغريق في القرن الخامس أبوقراط الذي استدعته أثينا

1- عصمت نصار، الفكر الديني عند اليونان(القاهرة: دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، 2005)، ص 21.

2 - المرجع السابق،33 – 34.

3- وول دايريل ديورانت، مترجم، *قصة الحضارة (حياة الإغريق)* (بيروت: دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، 1954)، 181.

ليعالج الطاعون ما بين 430 -425 ق.م،و قبل ذلك كان الطب مرتبطا ارتباطا وثيقا بالطقوس الدينية وهيكل أسكلوبيس (Asclepius) اله الطب والشفاء، وكان برتوكول العلاج مزيجا من العقاقير والتعاويذ السحرية، كما ظلت الأوبئة والأمراض عقابا إلهيا ضد العُصَاة من البشر، لكن الطب الإغريقي تعرف على عدوى الأمراض مثل الرمد، الجرب والسل وأن للأمراض أسبابا طبيعية بعيدا عن الآلهة و دعوا المرضى الى الصلاة والتقرب من الآلهة لزوال آلامهم[1].

كان لنشأة الفلسفة في القرن السادس قبل الميلاد دورا مهما في تحرير العقل الإغريقي من الفكر الأسطوري المسيطر على كافة جوانب الحياة ، كما ساهمت محاورات ومناظرات الفلاسفة في انكماش السببية الغيبية، وتفسير الظواهر الطبيعية المختلفة تفسيرا ماديا، بما في ذلك تفسير حدوث وانتشار الأمراض والأوبئة .

2- تصور وتفسير الأوبئة لدى الإغريق القدامى :

رصدت المدونات الإغريقية القديمة جملة من الأوبئة التي ضربت بلادهم، منذ حرب طروادة الى طاعون أثينا 430 -425 ق.م فطاعون القرطاجيين بصقلية 410 ق.م واصفة البيئة التي ظهر فيها الوباء، أوضاع القادة والعامة وردود أفعالهم خلال الأزمة الصحية ،بالإضافة الى آراء مختلف الفئات الإجتماعية حول الظاهرة الوبائية، هذه الآراء والتمثلات التي يكتسبها الأفراد

1- المرجع السابق، 184-186.

والجماعات من القيم السائدة في مجتمعاتهم، كالأعراف الإجتماعية، العادات والتقاليد، المنظومة الدينية والمعارف الثقافية[1].

وقد تنوعت مصادر تكوين القيم في المجتمع الإغريقي القديم (الأسطورة، الدين، الفلسفة، العلوم...)، الأمر الذي أدى الى تعدد التمثلات للأوبئة في المتخيل الإغريق القديم ويمكن تقسيمها إلى ثلاث تمثلات وهي :

2 – 1 – التمثل الديني : أو العقاب الإلهي وهو أقدم تفسير لأسباب ظهور الأوبئة في المجتمعات القديمة، يصف الشاعر الملحمي هوميروس (Homer) الذي عاش في القرن التاسع قبل الميلاد في إلياذته ،التي تؤرخ لحرب طروادة حوالي 1196 ق.م ، عندما غضب (أبوللو) "ابن لاتونا (Latona) وجوبيتر (Jove) انتشر الطاعون"، في إحدى الليالي أرسل الإله أبوللو سهامه التي أصابت الحيوانات أولا ثم البشر، فانتشر الطاعون في الجيش الآخيني كعقاب بسبب خطيئة أجمامنون بن أتريوس الذي اختطف خريسيس (Chryses) ابنة كاهن أبوللو[2].

ومن جهته كذلك يخبر ديودور الصقلي (Diodore de

1- مليكة ماقري، تمثلات الصحة والمرض وأساليب العلاج في المجتمع الجزائري-مقاربة سوسيولوجية ، مجلة الحكمة للدراسات الإجتماعية، 6 ،عدد1،(2018) ، 64.

2 - William Cullen Bryant, Trans, The Iliad of Homer , Book II, 10-45.(Poston: Houghton, Mifflin and Company).

(Sicileالذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد عن انتقام الآلهة من جيش القرطاجيين بانتشار الطاعون عقابا لهم عن تدنيس المقابر ونهب المعابد أثناء إقامة معسكرهم في صقلية لقتال دونيس طاغية سيراكوزا سنة 409 ق.م، وقد أصيب قائد الجيش هميلكون القرطاجي بالوباء بسبب ما أقدم عليه حيث نصب خيمته في معبد جوبيتر المجاور لمدينة سيراكوزا[1].

وحسب هوميروس حتى يتعافى المرء من الطاعون يتم تقديم الذبائح المشوية من الثيران والماعز الى الإله أبللو ، ثم يتطهروا برمي كل ممتلكاتهم التي طالها الدنس في البحر ، راجين الشفاء من الأسقام التي حلت بأجسادهم[2]، ويذكر بوزنياس (Pausanias) الذي عاش في القرن الثاني ميلادي أن الأثينيين عندما انتشر فيهم الطاعون أثناء حرب البيلوبونيز في الفترة الممتدة مابين 430 – 425 ق.م قدموا التماثيل للإله أبوللو ووضعوها في معبده كقرابين كتب عليها " من الأثينيين الذين أصابهم الطاعون" كما كان بناء المعابد إحدى الوجوه التي يتقرب بها الاغريق إليه زمن الأوبئة ، حيث شيد ملك أرجوس (Argos) معبدا تكفيرا عن الخطايا التي أثارت حفيظة الإله

1 -Fred Hove ,Trans , Bibliothèque Historique de Diodore de Sicile, Liv XIV, XVI.(Paris: Librairie de L. Hachette, 1865).

2 - William Cullen Bryant, The Iliad of Homer, 310-315.

ضده [1]، وكعلاج سحري يقول بلوتارك أن بركليس (Périclis) الزعيم الآثيني عندما أصيب بالطاعون فقد شوهدت تميمة تتدلى من رقبته، رغم أنه لا يؤمن بتأثيرها في الماضي ، لكن عندما بلغ منه المرض مبلغا فقد استعان بالتمائم كآخر أمل للشفاء وهو الشخصية التي ترفض التفسيرات الأسطورية ، وتذكر المصادر أن كاهنا جلب له رأس خروف بقرن واحدة وفسر ذلك بأنها نبوءة، فأقدم بركليس على تشريح الرأس لمعرفة سبب بروز قرن واحدة [2].

رافق التمثل الديني للأوبئة الإغريق في كافة الفترات التاريخية من عصر هوميروس الذي لا يزال الفكر الأسطوري مهيمنا على الذهنية الإغريقية إلى العصر الذهبي للإغريق -القرن الخامس- أين تقلصت التفسيرات الغيبية والميتافيزيقية وحل محلها الرأي العلمي المبني على حجج وبراهين مادية، لكنه لم يضمحل بل ظل يطفو على السطح كلما عجز الإنسان عن إيجاد حلول للمشكلات التي تفوق تجاربه وخبراته الماضية وتعليق بركليس للتميمة ما هو إلا أنموذجا لبروز التمثل الديني الكامن في نفسية الإنسان الإغريقي.

1 -M. L'Abée Gedoyn, Trans, Voyage Historique de La Grece de Pausanias, Liv I, 3,43 (Paris: Depanle, Imprimeur-Libraire, 1797).

2 - Alexis Pierron, Trans, Vie Des Hommes Illistres(PERICLIS) de Plutarque, (Paris:Charrentier, Libraire-Editeur,1853).

2-2 – التمثل السياسي:

تنظر الشعوب القديمة وكذلك المعاصرة الى النخب السياسية التي تحكمها، أنها تملك القدرة على إيجاد حلول لكل المشاكل التي تعترض البلاد، والجرأة في اتخاذ القرار، وتمتعها بالذكاء في التسيير ومعالجة مختلف القضايا، وإذا ما انتهجت النخبة السياسية عكس ما ترجوه الشعوب فسوف تتهم بالتقاعس وعدم المسؤولية تجاه المحكومين حتى لو كان الأمر خارج السيطرة البشرية مثل الكوارث الطبيعية و الوبائية ،

وقد صورت رمزيات الأدب الإغريقي القديم التي ترصد مسؤولية الحكام القصة الأسطورية التراجيدية في مسرحية أوديب ملكا (Œdipe Roi)[1] للشاعر المسرحي سوفكليس (Sophocles) الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، والذي يفتتح مسرحيته الشعرية بحيرة الملك أوديب وشعوره بالعجز في إيجاد حلول لشعب مملكة طيبة التي حل بها الطاعون، وخاطبه

1- تقول الأسطورة أن الملك لايوس حاكم مدينة طيبة الإغريقية أخبرته نبوءة أنه سيقتل من أحد أبنائه الذين يولدون من صلبه، لذلك تخلص من ابنه أوديب ، لكن هذا الأخير لم يمت وعندما أصبح شابا ودون دراية منه قتل والده وتزوج بأمه وأصبح ملكا على المدينة، وعندما أصاب المدينة الطاعون راح يبحث عن سبب البلاء الذي حل بها فوجده بسبب خطيئته المتمثلة في مقتل والده فعاقب نفسه بفقء عينيه التي لم تبصر الحقيقة، للمزيد ينظر: برهان أبو عسلي ، "أوديب ملكا" لسوفلكلس قراءة جديدة، مجلة جامعة ديمشق ، 30. عدد 1-2 ، (2014) ، 35-36.

كاهن زيوس قائلا : " إن لا نرفعك الى مرتبة الآلهة لا أنا ولا هؤلاء الأبناء ... حين نطوف بقصرك ولكننا نراك أحق الناس بأن نفزع اليك حين تلم بنا المصائب ، فقد أنقذت مدينة قادموس ورفعت عنها الضريبة ... دون أن نعينك سواء أعانك وحي الآلهة... وها نحن اليوم نعود إليك متوسلين أن تساعدنا... إن هذا البلد يسميك منقذه بما قدمت اليه فيما مضى "[1]، وفي هذا الحوار يتضح أنه قد تساعد الآلهة الملوك والحكام في اتخاذ القرارات المناسبة وترشدهم الى الرأي السديد لكن الحمل الثقيل يقع على كاهل الملوك ، اذ على المسؤول أن يكون منفتح البصيرة متقبلا للآراء المختلفة[2].

كما يشير ثوكديدس المؤرخ والسياسي الإغريقي الذي عاصر حرب البلوبنيز 430-404 ق.م والطاعون الآثيني 430-425 ق.م وقد أصيب بالعدوى وتعافى منه، أن الأثينيين عندما تفاقم الوضع بين الحرب والطاعون وانحصار السكان في الحصون وانتشار الوباء بين السكان وتزايد هزائم جيشهم ضد الإسبرطيين ،فعبروا عن مدى يأسهم " باتهامهم لبركليس بدفعهم الى الحرب والمسؤولية عن كل مصائبهم" ويضيف ثوكديدس :" لم يهدأ غضبهم حتى غرم بركليس خمسون تالنت " ، لكن بعد مدة عندما لم تستقم الحياة في

[1] - M. Artaud, Trans, , Tragédies ŒDIPE Roi de Sophocle, (Paris:Charpentier, Libraire-Editeur, 1859).

[2] - برهان أبو عسلي، أوديب ملكا .53.

المجتمع الأثيني تفهم الناس أن الأمور تتطلب مرونة وصبرا وليس حلا سحريا[1].

تصور مسرحية "أوديب ملكا" لسفوكليس الجانب العقلاني في العلاقة بين الملك وشعبه ، حيث تأمّل شعب طيبة وكهنتها الخلاص من الطاعون على يد ملكهم مثلما خلصهم من كوارث سابقة ،ومحاولة أوديب الملك المسؤول النظر بعمق البصيرة وإيجاد حل ينتشل طيبة من الوباء، وبمساعده كاهن زيوس الذي نبهه بأن السبب هو خطيئة سفك دماء الملك لايوس، ووجب البحث عن مرتكب الخطيئة ومعاقبته حتى تطهر المدينة وتعود إليها الحياة الهادئة[2].

أما ثوكيديدس فيقدم المشهد السياسي والاجتماعي في أثينا زمن الطاعون ، أين ساد الخوف والارتباك والفوضى جراء تزامن الحرب والوباء، وما زاد من تفاقم المرض تجمع السكان في الحصون التي كانوا يتوارون فيها خشية مداهمة أعدائهم، الأمر الذي زاد من ارتفاع نسبة العدوى، ومن جانبه بركليس يحاول تهدئة فزع الأثينيين من المرض وآثاره المختلفة الموت والجوع من جهة ، وتحفيزهم وبث الحماسة فيهم للحفاظ على مجد آثينا وعدم

1 - E. A. Bétant, Trans, Histoire de La Guerre Péloponnèse de Thucydie, Liv II, LIX- LXV, (Paris: Imprimerie de Ch. Lahure, 1863).

2- برهان أبو عسلي، أوديب ملكا . 58.

التفكير بقرار تعليق القتال ضد الإسبرطيين أو الإستسلام[1].

في الوقت الذي يقدم فيه سفوكليس الصورة المثالية للملك المسؤول عن شعبه التي سادت فيها المثالية والعقلانية حتى انتهى به الأمر بفقء عينيه في سبيل الوصول الى الحقيقة وإنقاذ مملكته[2]، فإن ثوكيديدس يقدم صورة شعب يقاوم من أجل مجد مدينته، وزاده الوباء إرهاقا ، فآثر الحياة عن المجد واتهموا بركليس بأنه سبب مصائبهم، أما بركليس وعلى الرغم من حنكته السياسية فقد وقع في فوضى التفكير وسوء تقدير الأمور والدعوة الى الحرب بدل الاهتمام بالصحة العامة للأثينيين[3].

لم يتمكن بركليس في هذا العصر من الوصول الى فهم ضرورة العزل الصحي والتباعد الاجتماعي لتجنب العدوى، بالرغم من بحثه المستمر على أسباب العلل واهتمامه بالعلوم المختلفة،أو ربما في ظروف الحرب انحصر اهتمامه بتلميع صورة أثينا الخارجية على الاهتمام بالشأن الداخلي.

3-2 – التمثل النخبوي (الثقافي): نقل المفكرين الإغريق

1 -E. A. Bétant, La Guerre Péloponnèse de Thucydide, Liv II, LXV.

2- برهان أبو عسلي، أوديب ملكا. 58 – 63.

3- تمثلت خطاب بركليس لشعب أثينا حول عدم الإستسلام لأعدائهم من اللاكيدمونيين (الأسبرطيين)، وتحفيزهم على الإستمرارية في القتال عوض الاستسلام للمرض والعجز للمزيد ينظر: E. A. Bétant, La Guerre Péloponnèse de Thucydide, Liv II, LX-LXV.

صورة المجتمع الإغريقي زمن الأوبئة ، كما عبروا عن آرائهم ونظرتهم الخاصة حول الأوبئة هذه الآراء التي تطورت بتطور المناهج العلمية واستقصاء الأحداث والظواهر، فالمؤرخ والسياسي ثوكديدس الذي عاصر حرب البيلوبونيز والطاعون الأثيني ، قدم وصفا تاريخيا حول الوباء الذي كان "يجهل حقيقته" ، وذكر أنه قدم من اثيوبيا الى ميناء جزيرة لمينوس ثم انتشر في باقي المدن التابعة لأثينا ، كما أعطى تقريرا وافيا شارحا أعراض المرض ومضاعفاته ، وتزايد حالات العدوى والموتى ، كما تطرق الى الأوضاع العامة لأثينا في هذه الظروف[1].

ويأتي ثوكديدس في المرتبة الثانية من حيث الأهمية التاريخية والموضوعية بعد هيرودوت أب التاريخ القديم ، حيث قدم الوقائع التاريخية كظواهر إنسانية وسياسية بعيدة عن الأساطير والفكر الديني، مستفيدا من تطور المناهج العلمية في عصره ، حتى أن قاسم يزبك يرى أن ثوكديدس وبوليب "معلمين حقيقين" للبحث التاريخي[2].

أما نظرة أفلاطون الفلسفية فهي أكثر مثالية ومفادها أن الحياة البشرية لا تستقيم إلا بالتوازن بين الحياة المادية والحياة الروحية ، حيث ساد في عصره تجاهل الآلهة الى حد نكران

1 -, XLVIII- LXV .
- Ibid

2- قاسم يزبك، التاريخ ومنهج البحث التاريخي،(بيروت: دار الفكر اللبناني، 1990)، ص19.

وجودها فوجه دعواه الى أولئك المتجاهلين أن كل الكوارث الطبيعية والأوبئة وكثرة المظالم ما هي إلا وجه آخر لنكران وتجاهل الآلهة[1].

في حين تذكر المصادر أن سقراط نظر الى الطاعون الذي عاصره وأصيب به وتعافى منه، أنه مرض يصيب جسد الإنسان في حالة اختلال الأخلاط التي يتكون منها هذا الجسم، ويقع الشفاء بالالتزام بإرشادات الأطباء وتوازن الغذاء وممارسة الرياضة وهو ما يشهد عليه من عاصر سقراط أنه كان له جسد قوي بفضل النظام الغذائي وممارسة الرياضة[2]، وهي نفس الرؤية الطبية لأب الطب أبوقراط الذي يصف أعراض الأوبئة المختلفة من الحمى ، التورم ، التهاب الغدد الليمفاوية والتقرحات[3].

وفي الطاعون الأثيني أمر أبوقراط بإشعال حرائق كبيرة من النباتات العطرية والأخشاب على أطراف المدينة، وأمر بتعليق الأكاليل الزهرية كنوع من التعقيم والتطهير المعروف في عصرنا الحالي. الأمر الذي جعل الأثينيون يعترفون بمزاياه العلاجية ويقيمون

1 -Victor Cousin , Trans , Les Lois Platon , Liv X, XIII, (Paris: Pichon Libraire –Editeur 1832).

2 - M. Dacier, Trans, Histoire Diverses de Elien, Liv XIII, 27, (Paris: L'Imprimerie D' Auguste Delalain, 1827).

3 -E. Littré, Trans, Epidémie de Hippocrate,, Liv III, Ch I , 3, Trd., (Paris: J. B. Bailliére, 1841)

له تمثالا واعتبروه المخلص من الأمراض[1].

من خلال ما تقدم من آراء لمفكرين أغريق مختلفي التوجهات والتخصصات يمكن ملاحظة مدى تطور النظرة السوسيوثقافية للأوبئة والأمراض في المجتمع الإغريقي ، ورغم أن نظرة الإغريق للأوبئة كمرض مقدس أو عقاب الهي ظلت جذورها راسخة في عمق النفسية الإغريقية ، لكن المنهج العلمي المبني على الملاحظة والتجربة تمكن من تجاوز القيود الدينية والأسطورة .

خاتمـــة :

من خلال دراسة ومناقشة تمثلات الأوبئة والأمراض في المخيال الإغريقي من خلال الكتابات الأدبية الإغريقية نخلص الى النتائج التالية :

1 – تُدْخِل الأمراض والأوبئة الشعوب والدول الأكثر تحضرا في العالم في حالة من الإرباك والفوضى في التفكير ، تمنع من اتخاذ القرارات والتدابير المناسبة لحل الأزمة ، حيث لم تتمكن الديمقراطية الأثينية من تعليق الحرب الدائرة رحاها بين الأثينيين والإسبرطيين مما أسفر عنه ارتفاع نسبة العدوى والوفيات في الجنود والسكان المحتشدين في الحصون ، فما كان من العامة إلا أن تتهم القادة أنهم سبب الوباء مثلما اتهم الأثينيين بركليس أنه سبب مصائبهم.

1 - E. Littré, introduction sur tous Les Livres Hippocratiques,(Bruxelles: Société Encyclograpgique des Siences Médicales, 1842).15.

2 – رغم ميل الفكر الإغريقي الى توظيف الأسطورة ومزجها بالواقع ، إلا أن الحقيقة العلمية لا يمكن دحضها ،فالأوبئة والأمراض المعدية (الفيروسات) هي كائنات حية خلقت كما خُلِقَ الإنسان ، تبحث عن وسط حيوي تعيش فيه، وإذا ما انتقلت الى جسم الإنسان فإنها تهلكه ، وتكمن مسؤولية القادة والسياسيين في محاولة الحد من انتشارها من خلال توفير الرعاية الصحية والنفسية للأفراد المصابين والأصحاء ، إلا أن مسؤولية الانضباط هي مسؤولية جماعية من أعلى الهرم الى قاعدته من القادة الى الطبقة العامة.

3 – لم تمنع حالة الإرباك السياسي والتفكير الهش لدى العامة في أثينا من إصرار النخبة السياسية والمثقفين من نشر الوعي بتفسير الوضع الوبائي تفسيرا علميا رصينا بإمكانيات وروح العصر مثل ما فعل ثيوكوديدس عند توصيفه لأعراض ومضاعفات المرض ، وسقراط الذي يناقش قواعد الوقاية والعلاج من الطاعون بما يعرف اليوم بتقوية الجهاز المناعي .

4 –تجدر الإشارة إلى مساهمة الأدباء الإغريق القدامى في مختلف فروع الأدب في نقل تجربة الإنسانية مع الأوبئة في العصور القديمة ، حيث قاموا بتوصيف المرض وأسبابه وتفسير انتشاره ورؤية المجتمع له وتأثيره في متخيل المجتمعات القديمة خاصة الإغريقية باختلاف الشرائح

الإجتماعية والسياقات الثقافية التي تؤطر الأفراد والمجتمعات .

5 - وأخيرا من الأمس الى اليوم وكلما انتشر وباء تواجه السلطة السياسية تحد عندما تعم المخاوف والشائعات في أوساط الشعب مما يتوجب على السلطة السياسية التدخل باتخاذ التدابير والإجراءات الوقائية والنفسية لسلامة الأفراد ، وهذا ما نلح عليه في هذه المداخلة الإهتمام بالجانب النفسي للأفراد المحجورين خاصة الأطفال ، وكذلك الرعاية النفسية لمن تعرض لصدمة فقد ذويه في هذه الجائحة العالمية.